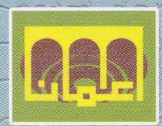


د. شذى جرار

موازنة بين مذهبي الباقلاني والجرجاني

في كتابيهما إعجاز القرآن ودلائل الإعجاز



منشورات أمانة عمان 2005


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

موازنة بين مذهبي الباقلاني والجرجاني في كتابيهما إعجاز القرآن ودلائل الإعجاز

◈ موازنة بين مذهبي الباقلاني والجرجاني
في كتابيهما إعجاز القرآن ودلائل الإعجاز

◈ شذى عطا جرار
◈ الطبعة الأولى ٢٠٠٥
◈ الناشر: أمانة عمان
عمان – الأردن
أمانة عمان الكبرى
الدائرة الثقافية – شارع الأمير محمد
ص. ب ١٣٢ – عمان
تلفاكس: ٤٦٢٤٧٤٩
www.amanaculture.jo

◈ تصميم الغلاف: محمد عساف
◈ الطباعة: مطبعة السفير هاتف: ٤٦٥٧٠١٥

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (٩٠٤/٤/٢٠٠٥)

٢٢٥,٣

جرار، شذى

موازنة بين مذهبي الباقلاني والجرجاني في كتابيهما إعجاز القرآن ودلائل الإعجاز / شذى عطا جرار_ عمان: أمانة عمان الكبرى، ٢٠٠٥

(   ) ص.

ر.إ: (٩٠٤/٤/٢٠٠٥)

الواصفات: / ألفاظ القرآن // إعجاز القرآن // اللغة العربية /

تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

موازنة بين مذهبي الباقلاني والجرجاني في كتابيهما

إعجاز القرآن ودلائل الإعجاز

د. شذى جرار



فهرس المحتويات





بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الحمدُ للهِ الذي شَغَلَ بالقرآن العقولَ، وجعلهُ معجزةً فاقت معجزةَ حبيسِ التابوتِ وابنِ البتول، فتحدت حتى مَنْ كانوا في البيان الفُحول، الناظرين في نظمه، فالجانحين في المعارضة إلى العدول.

والصّلاةُ والسّلامُ على مَنْ لاقى في مَن بُعثَ القَبول، وعلى آلهِ وصحبهِ ومن تبعه بإحسانٍ إلى يوم الملتَقى والمُثول.

وبعدُ،

فقد قالَ اللهُ – جَلَّ وعلا – في كتابه العزيز: ﴿اللهُ نَزَّلَ أحْسَنَ الحديثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقشَعِرُّ منهُ جُلودُ الّذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُم، ثُمَّ تَلينُ جلودُهُم وقلوبُهُم إلى ذِكرِ اللهِ، ذَلِكَ هُدى اللهِ يَهدي بِهِ مَنْ يشاء ومَنْ يُضلِلِ اللهُ فما لَه من هادٍ﴾ [الزمر ٢٣].

فأعْظِمْ بهذا الكتابِ دليلاً على صِدْقِ رسالةِ سيِّدنا مُحَمَّدٍ – صلى الله عليه وسلّم –، ومُعْجِزةً تحدّت فعمّت، بعد أن أعجزت وأبهرت!

وظلت نماذجُ من لطيفِ الإشارات المعجزةِ في القرآن الكريم ورفيع الشَّذرات التي تشي بصدوره عن عليمٍ قدير تَسْتَهوي النفسَ فَتَسْأَلُني البحثَ في موضوع الإعجاز.

وعندما شرعت في مرحلة القراءةِ والتقميش، وجدت أنني سابقةٌ للموازنة بين عَلَمين عظيمين في موضوع الإعجاز، حتى إن الموازنة، منهجاً في الدراسة دون موضوع الإعجاز مَنْهَجٌ شحيحُ المأخَذ.

وموضوع الدراسة على جدّةِ منهجيةِ البحثِ فيه، موضوعٌ مطروقٌ من قِبَلِ علماءَ كُثُرٍ، قدماء و محدثين، فهو يعالج ظاهرة خلافية من زمن النبي – صلى الله عليه وسلم – إلى آخر الزمان، فاسحاً المجال لكل باحث ومجتهد بالتأمل والاجتهاد.

فلذلك تعددت المصادرُ والمراجعُ التي بحثت في مجال الإعجاز عامةً والإعجاز البياني خاصةً، وهذه الأخيرةُ هي التي أوليتها عنايتي بالاطلاع والقراءة حيث بَلَغت مئةً وأربعين كتاباً، اقتبست من فقراتها موثقة، أو أفدت من معلوماتها رادة الفضل لأصحابه.

فبعد هذه القراءة وهذا التقميش شرعت في الكتابة، فجاءت الدراسة بعد المقدّمة في تمهيد وثلاثةِ فصولٍ ونتيجة.

حيث اشتمل التمهيد على دراسةٍ معجمية للعجز لغة، والإعجاز اصطلاحاً، وتَتبُّعٍ لأهم القضايا المتصلة بالإعجاز. ثم لأشهر مذاهب دراسة الإعجاز القرآني، وأوْلَيْتُ الإعجازَ البياني عنايتي واهتمامي حيث هو مَعْقِدُ الموازنة وبُؤرَةُ الدراسة مشيرة إلى جهود العلماء قدماء ومحدثين.

أما الفصل الأول، فقد اشتملَ على ترجمةٍ مختَصَرة للرجلين، تحققت فيها من اسم كلٍّ واحدٍ منهما وكُنيَتِهِ ونَسَبِهِ، ثم مولِدِه ونشأتِهِ، ثم تفكيرِه واعتقادِهِ وملامِح شخصيتِهِ، ثم شيوخه وتلاميذه وآثاره وآراء العلماء فيه.

وكما ضَمّنتُ هذه العنواناتِ المؤتلفةَ هذا الفصلَ، أثْبَتُّ عُنْوانَيْنِ مختلفين بينهما، فأثبَتُّ للباقلاني مناظَراتِه، وللجُرْجاني شاعِرِيَّتَهُ.

وأتبعتُ الفصلَ الأول بفصلٍ ثانٍ هو مَعْقِلُ الدراسة ولُبُّ لبابِها، لذلك نجده قد استغرقَ معظمَ صفحاتِها، حيث وازنتُ فيه بين مذهب كلٍّ من الرجلين في عرضِهِما لأشهر المفردات المتعلقة بالإعجاز مؤتلفة ومختلفة.

فمن المؤتلف: مقدمتا الكتابين، والشعرُ ونقدُه، والصّرفةُ، والتحدي والمعارضةُ، والنظْمُ، والبيانُ.

ومن المختلف: السّجعُ عند الباقلاني، والنحوُ عند الجرجاني.

ثم جاء الفصل الثالث، حيث ناقشتُ مذهبَ كُلٍّ منهما في عرضِهِ أفكارَه وتحليلها، وطريقتَهُ في الدفاع عن رأيه، واحتجاجَهُ ودحضِهِ حججَ الخصم، وسماتِ مذهبيهما في تَبيُّنِ النصوص القرآنية ونقد النصوص الشعرية على سبيل الموازنة بينهما أيضاً على غرار صَنيعِ الآمدي في موازنته بين الطائيين.

وأخيراً خَلَصْتُ إلى نتيجة مناسبة فأثبتُّ فيها ثمرة اجتهادي في هذا الموضوع حول هذين الرجلين ومذهبيهما، منوّهة بمكانتهما في دراسة الظاهرة.

وبعد،

فمِن حَقِّ أناسٍ عَلَيَّ أن أتوجَّهَ إليهم بالشكر:

- أمّي وأبي: مِن أعْيُنِكُما كنتُ استمدُّ العزيمةَ، وبوجودِكُما أشعرُ بالعزةِ، وبرضاكما أحقّقُ المبتغى.
- وأستاذي الدكتور محيي الدين رمضان: لأنَّكَ آمنتَ فِيَّ، وكنتَ حريصاً عليَّ، فأنتَ حقّاً شيخي إذ علّمتني الصبر وأكسبتني إحكام المنهج، آملةً السيرَ على دربك.

واللهَ أسألُ أن تفتحَ لي هذه الدراسة طريقَ السير في دروب العلماء. والحمد لله الدّافعِ عن طالب العلم العناء.



تمهيد

لموضوع الإعجاز ظاهرةً



الحمد لله الذي أنزل القرآن، وجعل فيه الرحمة والأمان، فكان معجزاً بنظمه ولفظه بما فيه من معانٍ، خارقاً لعادة الإنس والجان، مقروناً بالتحدي ببلاغته والبيان، سالماً عن المعارضة إلى يوم لقاء الديّان.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد حبيب الرحمن، وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان.

وبعد،

فقد قال الله – سبحانه وتعالى – في كتابه العزيز: ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ البَحْرُ مِدَاداً لِكَلِماتِ رِبِّي لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أن تَنْفَدَ كلماتُ رَبي، وَلَو جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾ [الكهف ١٠٩].

فالقرآن الكريم هو كلام الله الذي لا يَنْفَدُ، حتى لو جُعِلَتْ أشجار هذه البسيطة أقلاماً لكتابته، وكانت بحارُ الأرض مدادَ هذه الأقلام([1]).

لذلك كان هذا القرآن معجزة باقية بقاء الدهر. ولكن، قبل الشروع في الحديث عن هذه المعجزة الخالدة، هلاّ سألنا فقلنا:

ما العجزُ لغةً ؟

١. ذكر ابن فارِس (٣٩٥هـ) في معجم مجمل اللغة([2]):

العَجْزُ: الضعف، تقول: عَجَزْتُ عن الشيء.

وأعجزني: إذا وجدني عاجزاً عن طلبه.

٢. وذكر الجوهري (٤٠٠هـ) في الصِّحاح([3])

العَجْزُ: الضعف، تقول: عَجَزْتُ عن كذا، أعجِزُ، بالكسر، عَجْزاً ومَعْجِزَة، ومَعْجَزَة، ومعجِزاً، ومعجَزاً، بالفتح أيضاً على القياس.

([1]) قال تعالى: ﴿ولو أنّما في الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أقلامٌ والبحرُ يَمُدُّهُ من بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كلماتُ اللهِ ، إنَّ اللهَ عزيزٌ حكيم﴾ [لقمان ٢٧]

([2]) مادة عَجَزَ .

([3]) مادة عجزَ .

وأعجَزَه الشيء: فاته.

٣. وذكر ابن منظور (٧١١هـ) في لسان العرب([1])

العَجْزُ: الضعف، يقال عَجَزَ يعجِزُ عن الأمر، إذا قصر عنه.

وأَعجَزَه الشيء:عجز عنه، ومعنى الإعجاز الفوت والسبق.

وكذا النص على هذا المعنى عند الفيومي([2]) (٧٧٠هـ)، والفيروز آبادي([3]) (٨١٧هـ)، والزَّبِيدي([4]) (١٢٠٥هـ)، غير أنه – أعْني الزبيدي – انفرد بذكر التطور اللغوي للكلمة قائلاً: ([5]) "والعجز أصله التأخر عن الشيء، وحصوله عند عَجُز الأمر، أي مؤخّره. وصار في العرف اسماً للقصور عن فعل الشيء، وهو ضد القدرة".

فإن المعنى المشترك لجميع هذه التعريفات اللغوية للعَجْز، والإعجاز، الذي هو مصدر الفعل أعجَز، هو الضعف أولاً من طرف، وتحقّق الفوت والسبق للطرف الآخر.

لذلك، كان استخدام مصطلح الإعجاز مناسباً لوصف الأمور الخارقة للعادة، والمؤيدة للنبوات، فهي تُثْبِتُ الضعفَ للمدعوين، وتَحَقُّقَ الفوت والسبق للداعي.

ولعل هذا يقودنا للتساؤل عن معنى الإعجاز اصطلاحاً.

فما الإعجاز اصطلاحاً ؟

أورد عبد القاهر البغدادي (٤٢٩هـ) في كتابه "الفَرْق بين الفِرَق"، تعريفاً نسبَه إلى أهل السنة، قال فيه: ([6])"وقالوا: ...... إن المعجزة أمر يظهر بخلاف العادة على يدي مدعي النبوة، مع تحديه قومَه بها، وعن عجز قومه عن معارضته بمثلها على وجه يدل على صدقه في زمان التكليف".

([1]) مادة عجزَ .
([2]) انظر المصباح المنير : مادة عجزَ .
([3]) انظر القاموس المحيط : مادة عجزَ .
([4]) انظر تاج العروس : مادة عجزَ .
([5]) الزَّبيدي : تاج العروس : مادة عجزَ .
([6]) عبد القاهر البغدادي: الفرق بين الفرق ٢٩٧ . وقد تابعه السيوطي حيث قال "اعلم أن المعجزة أمر خارق للعادة ، مقرون بالتحدي ، سالم عن المعارضة" انظر الإتقان في علوم القرآن ٣/٤ .

لقد رسم هذا التعريف حدودا مانعة، ووضع شروطا جامعة، مفادها مخالفة العادة والتحدي والعجز عن المعارضة لإثبات النبوّة.

وكان لآية التحدي في سورة الإسراء تأثيرٌ على بعض العلماء في تعريفاتهم، فالمعجزة عندهم هي ما أعجز الخصم عند التحدي. منهم: القاضي عِياض اليَحْصُبي[1] (٥٤٤هـ)، والفيروز آبـادي[2] (٨١٧هـ)، والكَفَوي[3] (١٠٩٤هـ)، والزَّبِيدي[4] (١٢٠٥هـ)، ومصطفى صادق الرَّافعي[5] (١٩٣٧م).

وكذا جاء المعنى عند القرطبي (٦٧١هـ)، لكنه امتاز بوضع شروط موضحة لحد الإعجاز، حيث قال[6]: "والمعجزة: واحدة معجزات الأنبياء الدالة على صدقهم، وسُمِّيَتْ معجزة لأن البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها، وشرائطها خمسة، فإن اختل منها شرط لا تكون.

فالشرط الأول: أن تكون مما لا يقدر عليه إلاّ الله.

والشرط الثاني: هو أن تَخْرِقَ العادة.

والشرط الثالث: هو أن يستشهد بها مدعي الرسالة على الله – عز وجل –.

والشرط الرابع: هو أن تقع على وَفْق دعوى المتحدِّي بها، المستشهد بكونها معجزة له.

والشرط الخامس: ألا يأتي أحد بمثل ما أتى به المتحدِّي على وجه المعارضة".

والقرطبي هنا جنح إلى التفسير والتهذيب، دون الإبداع والتأليف، وهو بذلك لا يخرج عن سمة أهل زمانه من علماء القرن السابع.

---

(1) انظر القاضي عياض: الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢٢٣/١ .
(2) انظر الفيروز آبادي: القاموس المحيط . مادة عجز .
(3) انظر الكفوي: الكليات ١٤٩/١ .
(4) انظر الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس . مادة عجز .
(5) انظر مصطفى الرافعي: تاريخ آداب العرب ١٣٩/٢ .
(6) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١٩/١ ، ٧٠ ، ٧١ بتصرف .

هذا، وقد وردت تعريفات أكثَر تحديداً واختصاصاً، حيث ذكرت صراحة وجه الإعجاز، ومن هذه التعريفات تعريف القاضي عبد الجبّار المعتزلي[1] (٤١٥هـ)، الذي خصّ الفصاحة في عدم القدرة على المعارضة[2].

وكذلك فعل علي بن محمد الجرجاني (٨١٦هـ)، فحدّ الإعجاز عنده[3]: "هو أن يرتقي الكلام في بلاغته إلى أن يخرج عن طوق البشر، ويعجزهم عن المعارضة".

وقد سار على منواله الكفوي ووافقه في اختيار وجه الإعجاز[4]، أما محمد سعيد رمضان البوطي، فقد أضاف إلى وجه الإعجاز، وهو الإعجاز البلاغي، وجهين آخرين هما التشريعي والغيبي[5].

والملاحظ من التعريفات السابقة جميعاً، ورود عنصر التحدي فيها، وهذا يبعث على التساؤل:

هل تنتفي صفة الإعجاز عن المعجزة إذا افتقرت إلى عنصر التحدي ؟

والجواب عندي: لا. فالمعجزات نوعان:

١- **<u>معجزات خلت من عنصر التحدي</u>**: أرادها الله لإثبات قدرته في هذا الكون، وهي خارقة لقوانين الكون، والعباد غير مطالبين بالإتيان بمثلها.

ومن هذه المعجزات: معجزة سلب خاصية الإحراق من النار التي ألقي فيها سيدنا إبراهيم – صلى الله عليه وسلم –، ومعجزة خلق سيدنا عيسى – عليه السلام –، ومعجزة شق البحر بعصا سيدنا موسى – عليه السلام – هرباً من فرعون وأتباعه الطاغين.

---

(1) عبد الجبار المعتزلي:هو عبد الجبّار بن أحمد بن عبد الجبّار الهمذاني الأسداباذي ، أبو الحسن قاضي القضاة ، الفقيه الشافعي المتكلّم المعتزلي ، شيخ المعتزلة في عصره ، له تصانيف كثيرة ، انظر ترجمته في: الخطيب البغدادي :تاريخ بغداد ١١٤/١١ و السّمْعاني :الأنساب ١٣٦/١ .

(2) انظر: عبد الجبار المعتزلي : المغني في أبواب التوحيد والعدل ٢٢٦/١٦

(3) الجرجاني: التعريفات . باب الحاء .

(4) انظر: الكفوي: الكليات ١٥٠ .

(5) انظر: محمد سعيد رمضان البوطي : من روائع القرآن ١٢٥ .

وكذلك معجزات سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – دون القرآن، منها: ([1]) "ما ظهر وتواتر أنه – صلى الله عليه وسلم – سقى الكثير من الماء القليل، وكان ذلك في بعض الغزوات، في الجمع العظيم عند إعواز الماء وتعذره، فوضع – صلى الله عليه – يده في الميضأة، ولم يزل الماء يفور من بين أصابعه، حتى شربوا وتزودوا".

ومنها: إطعام الجماعة الكثيرة من الطعام اليسير، وحنين الجذع، وتسبيح الحصى، والذراع المسمومة، وكلام الذئاب، وانشقاق القمر، وانقضاض الكواكب، ومعجزة الإسراء والمعراج([2]).

٢- <u>معجزات مقرونة بالتحدي</u>: وقد منحها الله ــ سبحانه و تعالى ــ رسله؛ ليتحدوا بها أقوامهم، فلا يستطيعون الإتيان بمثلها، فيثبت عجزهم. لذلك جعل هذه المعجزات من جنس ما نبغ به أقوامهم.

يقول الجاحظ([3]): ([4])"ولما كان أعجبَ الأمور عند قوم فرعون السحرُ، ولم يكن أصحابه قط في زمان أشد استحكاماً فيه منهم في زمانه، بعث الله موسى ــ عليه السلام ــ علي إبطاله و توهينه، وكشف ضعفه وإظهاره، ونقض أصله لردع الأغبياء من القوم....، لأنه لو كان أتاهم بكل شيء، ولم يأتهم بمعارضة السحر، حتى يَفْصِل بين الحجة والحيلة ؛ لكانت نفوسهم إلي ذلك متطلعة .... ولكن الله ــ تعالى جدّه ــ أراد حسم الداء وقطع المادة ".

وكذا بالنسبة لقوم عيسى ــ عليه السلام ــ فقد كانت غايتهم علاج المرضى، فجاءت معجزته طبّية، فأبرأ الأكمه والأبرص، وأحيا الموتى.

وعندما أرسل الله ــ سبحانه وتعالى ــ محمداً ــ صلى الله عليه وسلّم ــ إلي قومه، وهم أهل الفصاحة والبلاغة، تحداهم ببلاغة القرآن ونظمه، فعجزوا عنه، مثبتين صدق المدعي.

([1]) القاضي عبد الجبّار : المغني في أبواب التوحيد والعدل ٤١٣/١٦ ، وانظر: القاضي عياض: الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢٥٢/١ .

([2]) انظر أخبار هذه المعجزات مفصلّة في المغني لعبد الجبار ٤٠٧/١٦ حتى ٤٢٣ ، والشفا للقاضي عياض ٢٤٨/٦ حتى ٣٢٢

([3]) الجاحظ هو : عمرو بن بحر بن محبوب ، أبو عثمان ، كان عالماً بالأدب فصيحاً بليغاً مُصَنِّفاً في فنون العلوم ، من أئمة المعتزلة . انظر ترجمته في : ابن الأنباري : نزهة الألباء ١٥١ ، والسيوطي : بغية الوعاة ٢٢٨/٢ .

([4]) الجاحظ : حجج النبوة (ضمن رسائل الجاحظ) ١٤٥ .

يقول الجاحظ:([1]) " وكذلك دهر محمد ــ صلى الله عليه وسلّم ــ كان أغلبَ الأمور عليهم، وأحسنها عندهم، وأجلها في صدورهم حسنُ البيان، ونظم ضروب الكلام مع علمهم له، وانفرادهم به، فحين استحكمت لغتهم، وشاعت البلاغة فيهم، وكثر شعراؤهم، وفاق الناس خطباؤهم، بعثه الله فتحداهم بما كانوا لا يشكّون أنهم يقدرون على أكثر منه، فلم يزل يقرعهم بعجزهم، وينقصهم على نقصهم، حتى تبين ذلك لضعفائهم وعوامهم، كما تبيّن لأقويائهم وخواصهم، وكان ذلك من أعجب ما أتاه الله نبيّا قط".

لكنّ الله – سبحانه وتعالى – لم يرسل محمَّداً – صلى الله عليه وسلّم – لقومه فقط وإنما أرسله للعالمين جميعاً ؛ قال تعالى: ﴿وما أَرْسَلْنَاكَ إلاّ كافّةً للناسِ بَشيراً ونَذيراً﴾ [سبأ ٢٨]، لذلك ظلّ الإعجاز به مستمراً، والتحدي به قائماً.

وقالت عائشة عبد الرحمن في ذلك:([2]) "مِنْ إعجاز القرآن أن يظلّ مطروحاً على الأجيال تتوارد عليه جيلاً بعد جيل، ثم يظل أبداً رحب المدى سخي الموارد، كلما حسب جيل أنه بلغ منه الغاية، امتد الأفق بعيداً وراء كل مطمح، عالياً يفوت طاقة الدارسين".

ونستنتج مما سبق أن معجزة القرآن الكريم تختلف عن المعجزات جميعها، ولكن:

كيف تختلف معجزة القرآن الكريم عن سائر المعجزات ؟

في كلام السيوطي ما يجيب عن جزء من هذا السؤال، حيث يقول:([3]) "أكثر معجزات بني إسرائيل كانت حسّيّة لبلادهم، وقلة بصيرتهم. وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية لفرط ذكائهم، وكمال أفهامهم، ولأن هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة خصّت بالمعجزة العقلية الباقية. إن المعجزات الواضحة الماضية كانت حسّيّة تشاهد بالأبصار، كناقة صالح، وعصا موسى. ومعجزة القرآن تشاهد بالبصيرة، فيكون من يتبعه لأجلها أكثر، لأن الذي يشاهد بعين الرأس ينقرض بانقراض مشاهده، والذي يشاهد بعين العقل باقٍ، يشاهده كلٌّ من جاء بعد الأول مستمراً".

([1]) الجاحظ : حجج النبوة (ضمن رسائل الجاحظ) ١٤٦ .
([2]) عائشة عبد الرحمن : الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق ١٥ .
([3]) السيوطي : الإتقان في علوم القرآن ٣/٤ .

لذلك فالمعجزة إما أن تكون حسيّة تخاطب البصر، تموت بموت العين التي رأتها وهي بمثابة الخبر عمَّنْ لم يرَها، ولو لم ترد في القرآن لكان من الممكن ردّها.

أو عقلية تخاطب البصيرة والعقل والذوق، فتبقى بقاء العقول والبصائر ؛ وهي تستمد قوتها من تجرّدها عن المادة، وتكسب المؤمن بها ثواباً كبيراً، حيث احتاج اليقين بها إلى إنعام نظر، وطول تدبّر، وقدرة على الفهم والتحليل، وطاقة فكرية، وحس مرهف.

وليس هذا فحسب، فمعجزة القرآن تختلف عن غيرها من المعجزات، بأنها صفة من صفات الله، فهي كلامه. أما المعجزات السابقة، فهي أفعال لله.[1]"والفعل باقٍ بإبقاء الفاعل له، والصفة باقية ببقاء الفاعل نفسه".

ولذلك كان القرآن باقياً متجدداً دائم العطاء لجميع الأجيال، وهو المنهج القائم لهذه الحياة، وهو الدستور والحكم.

وثمّ اختلافٌ آخر: ([2]) "فكل رسول كانت له معجزة وكتاب ومنهج ... فمعجزة موسى العصا ومنهجه التوراة، ومعجزة عيسى الطب ومنهجه الإنجيل، لكن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – معجزته هي عين منهجه، ليظل المنهج محروساً بالمعجزة، وتظل المعجزة محروسة بالمنهج".

فمن أجل ذلك حفظه الله من كل تحريف وتبديل، حيث قال: ﴿إنّا نحنُ نَزَّلْنا الذكرَ، وإنّا لَهُ لَحَافِظون﴾ [الحِجر ٩].

إذن فالقرآن معجزة تختلف، ولكن:

ما الدليل على إعجاز القرآن ؟

إن التحدي أولاً، ثم عدم المقدرة على المعارضة ثانيا: هما خير دليل لإثبات إعجاز القرآن. يقول القاضي عبد الجبّار:([3]) "الذي يدل على ذلك أنه – صلى الله عليه وسلم – تحدى بالقرآن،وجعله دِلالةَ نبوته، ومُوْجباً لاتّباعه وطاعته، والانقياد له".

([1]) محمد متولي شعراوي : معجزة القرآن ١/١٨ .
([2]) "المصدر السابق نفسه ١/٢٦
([3]) القاضي عبد الجبار المعتزلي : المغني في أبواب التوحيد والعدل ١٦/٢٤٦ .

لقد تحدى الرسول – صلى الله عليه وسلّم – قريشَ خاصة، والعرب عامة، وهم أهل الفصاحة والبيان، فكأنه يقول لهم: إن عارضتموني بسورة واحدة، فقد كذبت في دعواي وصدقتم في تكذيبي.

و([1])"لا يجوز أن يكون مثل العرب في كثرة عددهم، واختلاف عللهم، والكلام كلامهم وهو سيّد عملهم، قد فاض بيانهم، وجاشت به صدورهم ...... حتى قالوا في الحيّات والعقارب والذئاب .... وكلّ ما دبّ ودرج ولاج لعين، وخطر على قلب، ولهم بعد أصناف النظم، وضروب التأليف: كالقصيد والرجز والمزدوج والمَجالس والأسجاع والمنثور. وبعد، فقد هجوه من كل جانب .... وناجزوه الحرب، وهم أثبت الناس حقداً، وأهجاهم بالعجز، وأمدحهم بالقوّة، ثم لا يعارضه معارض، ولا يتكلف ذلك خطيب ولا شاعر".

لقد عَجَزَ الناس عن المعارضة بعد تحديهم، فانقسموا فريقين:

أ- فريق أعلن عن عجزه عن الإتيان بمثله، إما بإيمانه به بمجرّد سماعه له، أمثال: الطَفيلُ بن عمرو الدَّوْسِي([2])، وعمر بن الخطاب([3])، وأبو ذَرٍّ([4])، وعُتْبَة بن رَبيعة([4]). وإما باتهام الرسول بالسحر والشاعرية والجنون وكتابة الأساطير، وفي ذلك إقرارٌ منهم بالعجز، أمثال: الوليد بن المُغيرة، الذي وقع أثر القرآن في قلبه وقرع نفسه، فاعترف به قائلاً: ([5])"والله إن لقوله لحلاوةً، وإنّ أصله لَعِذْقٌ، وإنّ فَرْعه لجناة".

ولكنه عاد وكفر معانداً، متجاهلاً الحق، مستكبراً. فهذا فريق.

([1]) الجاحظ : حجج النبوة (ضمن رسائل الجاحظ) ١٤٣ .
([2]) انظر خبره في السيرة النبوية لابن هشام ٣٨٣/٢ .
([3]) انظر خبر إسلامه في السيرة النبوية لابن هشام ٣٤٧/٢ .
([4]) انظر الخبرين في الجرجاني : الرسالة الشافية (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) ١٢٤-١٢٥ ، والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٧٣/١ .
([5]) ابن هشام : السيرة النبوية ٢١٦/١ ، وانظر الجرجاني : الرسالة الشافية ١٢٥ .

ب- وفريق آخر، أبى إلاّ أن يعارض القرآن، ظنًّا منه أنه عليه قادر، فأتى بحماقات يأبىَ بها كل جاهل أحمق. أمثال: مسيلمة الكذّاب، والأسود العَنسي، وطُلَيْحَة الأسَدي، والنَّضْر بن حارث، وابن الراوندي([1]).

لقد ثبت إذن عجز العرب عن المعارضة، بعدما وقع التحدي في آيات متفرقة منه. واختُلف في ترتيب آيات التحدي من حيث النزول، و ([2])"لا شأنَ لهذا الاختلاف في ترتيب آيات التحدي إلاّ إثباتُ أن القرآن قد تحدى العرب بما يستدعيه المنطق من التحدي بالأصعب فالأسهل".

فأكثَرَ العلماء على أن التحدي قد تدرّج تنازلياً، و ([3])"نظير هذا كمن تحدى صاحبه بتصنيفه فيقول: ائتني بمثله، ائتني بنصفه، ائتني بربعه، ائتني بمسألة منه، فإن هذا هو النهاية في التحدي وإزالة العذر".

فالله – سجانه وتعالى – تحدى الخلق أولا بالإتيان بمثل القرآن، وذلك في سورة الطُّور، حيث قال تعالى: ﴿أم يَقُولونَ تَقَوَّلَهُ بل لا يُؤمِنون، فَلْيَأتُوا بحديثٍ مِثْلِهِ إنْ كانُوا صادِقين﴾ [الطور ٣٣، ٣٤].

فلما عَجَزوا تحداهم بمعارضة عشر سور مثله مفتريات، لا يلتزمون فيها الحكمة ولا الحقيقة، وإنما هم مطالبون بمعارضة النظم والأسلوب، فقال تعالى في سورة هود: ﴿أمْ يَقُولونَ افْتَراهُ قُلْ فأتوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ، وادعوا مَن استَطَعْتُمْ مِن دونِ اللهِ إن كُنْتُم صادِقين﴾ [هود ١٣].

ثم هاهم ما زالوا عاجزين عن معارضة قدر منه، حتى زادهم الله تقريعاً وتأنيباً، وتحداهم بمعارضة سورة من مثله، فقال في سورة يونس: ﴿أمْ يَقُولونَ افتَرَاهُ قُلْ فأتوا بِسورَةٍ مِثْلِه، وادعُوا مَن استَطَعْتُم من دونِ اللهِ إن كُنْتُم صادِقين﴾ [يونس ٣٨].

ثُمّ كرّر التحدي بنفس المقدار في سورة البقرة، مستفزاً لهم، جازماً بأنهم لن يستطيعوا، حيث قال: ﴿وإنْ كُنْتُم في رَيْبٍ مِمّا نَزَّلْنا على عَبْدِنا فَأتوا بِسورَةٍ مِنْ مِثلِهِ، وادعوا شُهَداءَكُم مِنْ دونِ

([1]) لتفصيل أخبار هؤلاء ، انظر الطبري : جامع البيان في تأويل القرآن ٢٩/١ ، ومصطفى صادق الرافعي : تاريخ آداب العرب ١٧٢/٢ .

([2]) نعيم الحمصي : فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر مع نقد وتعليق ٢٢ .

([3]) الفخر الرازي : التفسير الكبير ١١٧/٢ .

الله إنْ كُنتُم صادِقينَ، فإن لم تَفعَلوا، ولن تَفعَلوا، فاتَّقوا النَّارَ الّتي وَقودُها الناسُ والحِجارَةُ أُعِدَّت للكافرين﴾ [البقرة ٢٣، ٢٤].

وأخيرا: سدَّ الله عليهم كلّ الطرق، وأوصد في وجوههم كل باب، فلو استعان الإنس بتوابعهم من الجن – على نحو ما كان يعتقد الجاهليّون من أن لكل شاعر تابعاً من الجن – فلن يستطيعوا الإتيان بمثل القرآن، ولو حَرَصوا على ذلك، قال تعالى ﴿قُل لَئِن اجتَمَعَت الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثلِ هذا القرآنِ، لا يأتونَ بِمِثلِه، ولو كانَ بعضُهُم لبعضٍ ظَهيراً﴾ [الإسراء ٨٨].

وبهذا يكون اللهُ – سبحانه وتعالى – قد قدّم الدليل على إعجاز القرآن الكريم.

ولم يختلف العلماء في حقيقة إعجاز القرآن، لكن الذي اختلفوا فيه هو تحديد الوجه الذي صار من أجله القرآن معجزاً، فهو السبب الذي أعياهم أن يأتوا بمثله!

لذلك، تعددت المذاهب القائلة بإعجاز القرآن، بحيث ارتَضَى كُلُّ مذهب وجهاً إعجازياً للقرآن الكريم. ومن أبرز هذه المذاهب: مذهب الإعجاز النفسي، والإعجاز الغيبي، والإعجاز التشريعي، والإعجاز العلمي، والإعجاز التضافري.

فيمَ اختلفتْ هذه المذاهب ؟

إن للقرآن الكريم تأثيراً على النفس الإنسانية، بما يحدثه فيها من هيبة تعتريها عند سماعه، وروعة تلحق القلب والروح، فتهتز ملكات النفس لسماع تلك الموسيقى اللغوية المنسجمة مع خبايا النفس، والمداعبة لأنغام الروح.

هذا الأثر دعا بعض العلماء للقول بالإعجاز النفسي، منهم الخَطَّابي[١] والقاضي عِياض[٢]، ومن المحدثين عبد الكريم الخطيب[٣] ونعيم الحمصي[٤].

---

[١] الخطابي : هو حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي ، أبو سليمان ، فقيه سني محدث ، صاحب التصانيف الحسنة . انظر ترجمته في السمعاني : الأنساب ٣٨٠/٢ ، والسيوطي : بغية الوعاة ٥٤٦/١ . وحول الإعجاز النفسي انظر كتابه : بيان إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) ٧ .

[٢] انظر القاضي عياض : الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢٤٢/١ .

[٣] انظر عبد الكريم الخطيب : إعجاز القرآن ٣١٨ .

[٤] انظر نعيم الحمصي : فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر مع نقد وتعليق ٢٩ .

ونظر قوم إلى أخبار الأمم البائدة وقصص الأنبياء الواردة في القرآن، ثم إلى أخبار المستقبل والأخبار المتعلقة بخبايا النفس الإنسانية وما تضمره، وهي أخبار في صدقها مما لا يستطيعه بشر، فقالوا بالإعجاز الغيبي.

ومن القائلين به: النظّام(١) والرُّمّاني(٢) والباقلاني(٣) والقاضي عياض(٤)، ومن المحدثين محمد سعيد رمضان البوطي(٥). ورفضه الخطابي(٦) وعبد الجبّار المعتزلي(٧)، ومن المحدثين محمود محمد شاكر(٨) عائشة عبد الرحمن(٩)، وحجتهم في ردهم له وجهاً معجزاً، أن المعجز هو علم الله بالغيب، وليس ما ورد في القرآن من إشارات غيبية.

ثم وازن قوم(١٠) بين التشريعات البشرية المرحلية غير الخالية من النقص والخلل، وبين التشريع الإلهي من عبادات ومعاملات وعقوبات وعلاقات دولية، الوارد في القرآن أراده الله للناس جميعاً، المتره عن كل عيب، الصالح لكل الأجناس في شتى العصور فقالوا **بالإعجاز التشريعي**، ناظرين إلى المضمون.

ونظرة أخرى إلى المضمون من منظور علمي عصري، تكشف عن تلك الإشارات الطبية والجيولوجية والنباتية والإحصائية والكيماوية، غير المتعارضة مع ما وصل إليه العلم الحديث من اكتشافات دعت للقول **بالإعجاز العلمي**، طبّياً كان أو معرفياً أو عدديًّا.

---

(١) النظام: هو إبراهيم بن السيار، أبو إسحاق. كان ينظم الخرز في سوق البصرة ، أعجب بقول البراهمة في إبطال النبوات، فأنكر المعجزات. انظر ترجمته وأخباره في البغدادي : الفرق بين الفرق ١٢٠، والشهرستاني : الملل والنحل ٥٧. وحول الإعجاز الغيبي انظر الخياط المعتزلي : الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد ٢٨، والقاضي عبد الجبار المغني في أبواب التوحيد والعدل ١٦/٣٣١ .

(٢) الرماني هو: علي بن عيسى بن عبد الله، أبو الحسن، من كبار النحويين، معتزلي متفنّن في النحو واللغة والفقه. انظر ترجمته في: ابن الأنباري: نزهة الألباء ٢٣٤، والسيوطي: بغية الوعاة ٢/١٨٠. وحول الإعجاز الغيبي انظر كتابه النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) ١١٠ .

(٣) ستأتي ترجمته بالتفصيل في الفصل الأول. وحول الإعجاز الغيبي انظر كتابه: إعجاز القرآن ٣٣ .

(٤) انظر القاضي عياض: الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢٣٧ .

(٥) انظر محمد سعيد البوطي: من روائع القرآن ١٥٣ .

(٦) انظر الخطابي: بيان إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) ٢٤ .

(٧) انظر عبد الجبار المعتزلي: المغني في أبواب التوحيد والعدل ١٦/٢٢٠ .

(٨) انظر مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية ، مقدمة محمود محمد شاكر ٢٥ .

(٩) انظر عائشة عبد الرحمن: الإعجاز البياني للقرآن ، ومسائل ابن الأزرق ٨٢ .

(١٠) انظر مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب ٣/١٠٦ حتى ١١٢، ومحمد سعيد رمضان البوطي: من روائع البيان ١٥٤!

ورأت جماعة[1] أن وجهاً واحداً غير قادر على تفسير الإعجاز، فوجوه الإعجاز لا يمكن حصرها فقالوا بالإعجاز التضافري، وعدّوا وجوهاً للإعجاز كثيرة، كان معظمُها فضائلَ للقرآن، وخواصَ له، أكثرَ من كونها وجوهاً لإعجازه.

وثمة مذهب مقابل لهذه المذاهب الباحثة في وجوه الإعجاز، فبعد تأمل أصحابه لحال العرب، أصحاب البلاغة والبيان واللسن، في عجزهم عن معارضة القرآن على الرغم من استمرار التحدي، نفوا أن يكون القرآن معجزاً في ذاته، وقالوا بالإعجاز بالصرفة. ونتساءل هنا فنقول:

بمَ اختص المذهب القائل بالصرْفَةِ ؟

ما زال رجل من فرقة المعتزلة، يقال له النظّام (٢٣١هـ)، يقول بالإعجاز بالصرفة حتى نُسِبَ إليه، وقُرِنَ اسمه به، منكراً إعجاز القرآن في نظمه.

والصَّرْفَةُ هي: ([2])"صرف الهمم عن المعارضة، وإن كان مقدوراً عليها، غير معجوز عنها إلاّ أن العائق من حيث كان أمراً خارجاً عن مجاري العادات، صار كسائر المعجزات".

فالمعجز إذن، هو المنع والصرفة دون ذات القرآن. وهو قول يُبْطِلُ بعضَ القرآن حيث قال تعالى: ﴿قُل لَئِن اجتَمَعَت الإنسُ والجِنُّ على أنْ يأتوا بمثلِ هذا القرآنِ لا يَأتُون بمِثلِه، وَلو كانَ بعضُهُم لبعضٍ ظَهيراً﴾ [الإسراء ٨٨].

فالله – سبحانه وتعالى – يشير في هذه الآية إلى حال فيها اجتماع واحتشاد، ثم تكلّف واجتهاد، ومحاولة ثم عدم قدرة، وهذا لا يتناسب والقول بالصرفة.

([1]) انظر الرماني : النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) ٧٥ ، والقاضي عياض : الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢٤٣/١ حتى ٢٤٦ ، والقرطبي : الجامع لأحكام القرآن ٧٣/١ حتى ٧٥ .

([2]) الخطابي : بيان إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) ٢٢ .

وقد تصدى علماء كثر للنظام، وأفسدوا مقولته الخبيثة هذه، منهم الخَطّابي[1] (٣٨٨هـ)، وعبد الجبّار المعتزلي[2] (٤١٥هـ)، وعبد القاهر الجرجاني[3] (٤٧١هـ)، والرّازي[4] (٦٠٦هـ)، والزَرْكَشي[5] (٧٤٩هـ)، والسُّيوطي[6] (٩١١هـ).

ولقد نُسِبَ القول بالصرفة إلى بعض علماء المعتزلة مثل الجاحظ والرماني.

أما الجاحظ: فقد ورد في كتابه الحيوان، في ردّه على كلام الدهرية الطاعنين في ملك سليمان، المُستشهدين بعدم معرفته عن ملكة سبأ على صحة معتقدهم، أن هناك قوة مانعة سلبت عنه هذه المعرفة، تماماً كما حدث للعرب عندما صرفت نفوسهم عن معارضة القرآن، بعد أن تحداهم الرسول – صلى الله عليه وسلم – بنظمه.

يقول الجاحظ: ([7])"ولذلك لا نجد أحداً طَمِع فيه، ولو طَمِع فيه لتكلّفَه، ولو تكلّف بعضهم ذلك فجاء بأمر فيه أدنى شبهة، لعَظُمت القصة على الأعراب، وعلى أشباه الأعراب .... ولألقى ذلك المسلمين عملاً،ولطلبوا المحاكمة والتراضي ببعض العرب، ولكَثُر القيلُ والقال".

من هذا النص نفهم صرفة الجاحظ، فهي تختلف عن صرفة النظّام: فالقرآن عنده معجز في ذاته، لكن المعارضة حمته من أن يتكلف للمعارضة بعض المتكلفين، مما قد يوقع في نفوس الجهلة الاضطراب. فالخلق عنده قد صُرِفوا عن المعارضة، ولو تَعَرَّضُوا له لعجزوا عنه، فهي صرفة بالمنع فقط دون القدرة على الفعل، بخلاف النظّام الذي يرى في الخلق القدرة لولا المنع.

أما الرماني (٣٨٦هـ) فقد وقع تحت تأثير الفكر المعتزلي، وجنح إلى هذا الرأي الكسول على استحياء في رسالته "النكت في إعجاز القرآن". فساق الصرفة كوجه من وجوه الإعجاز بإيجاز[8]، وجعل معظم رسالته في الحديث عن الإعجاز البلاغي.

([1]) انظر الخطابي : بيان إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) ٢٣ .

([2]) انظر عبد الجبار المعتزلي : المغني في أبواب التوحيد والعدل ٣٢٢/١٦ و ٣٢٣ .

([3]) ستأتي ترجمته بالتفصيل في الفصل الأول . وحول إبطاله الصرفة انظر كتابه : الرسالة الشافية (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) ١٤٦-١٥٤ .

([4]) انظر الرازي : نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ٣٣ .

([5]) انظر الزركشي : البرهان في علوم القرآن ٩٤/٢ .

([6]) انظر السيوطي : الاتقان في علوم القرآن ٧٠/٤ .

([7]) الجاحظ : الحيوان ٨٩/٤ .

([8]) انظر الرماني : النكت في إعجاز القرآن ٧٥ .

ومن القائلين بالصرفة أيضا[1] الشريف المرتضى (٤٣٦ هـ)، وابن سنان الخفاجي (٤٤٦ هـ)، والصرفة عندهما هي عدم القدرة على المعارضة بسبب سلب العلوم التي تعين على تحقيقها.

ولكنّ هذا المذهب القائل بالصرفة لم يلاقِ استحساناً من قبل جمهور العلماء، للقول به، لذلك يبقى المذهب القائل بالإعجاز البياني هو المذهب الأم، والمعوّل عليه حتى يومنا هذا في تفسير إعجاز القرآن.

فبم اختص المذهب القائل بالإعجاز البياني ؟

أجمع جمهور العلماء على القول بالإعجاز البياني، من نظم وأسلوب وفصاحة وبلاغة. فهو أبرز وجوه الإعجاز وأشهرها، ولم يكن الإعجاز البياني موضع خلاف باعتباره وجه الإعجاز، وإن قال بعض العلماء بوجوه أخرى معه.

ومن أشهر الذين قالوا بالإعجاز البياني:

أ - الجاحظ [٢٥٥هـ]

تناثرت آراء الجاحظ في كتبه حول الإعجاز البياني، ولعل السبب في ذلك يكمن في ضياع كتابه "نظم القرآن"، الذي يظهر من اسمه أنه خصّه للحديث عن الإعجاز بالنظم، وكما تشي بذلك الإشارات المتفرقة في المؤلفات المختلفة.

ولعل الجاحظ هو أول القائلين بالإعجاز بالنظم، حيث يقول في "الحيوان": ([2])"وفي كتابنا المُنَزَّل الذي يدلنا على أنه صدق، نظمه البديع، الذي لا يقدر على مثله العباد".

كما يقول في رسالته حجج النبوة: ([3])"لأن رجلاً من العرب لو قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة طويلة، أو قصيرة لتبيّن له في نظامها([4]) ومخرجها، وفي لفظها وطبعها أنه عاجز عن مثلها".

([1]) انظر نعيم الحمصي : فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر مع نقد وتعليق ٤٧٠ و ٤٧١

([2]) الجاحظ : الحيوان ٤/٩٠ .

([3]) الجاحظ : حجج النبوة (ضمن رسائل الجاحظ) ١٢٠ .

([4]) يقول الباحث أحمد ياسوف في ذلك : "من المؤكد أنه يريد بالنظام مفهوم النظم نفسه ، ذلك النسق الذي يربط الكلمات فيما بينها" ، انظر جماليات المفردة القرآنية في كتب الإعجاز والتفسير ٣٩ .

إنّ النظم البديع، والصياغة الرفيعة، وجودة السبك: مكمن إعجاز القرآن، ولا شأن للمعنى بذلك، فمهما كان المعنى راقياً، فإن النظم المضطرب يجعله دَميما. لذلك نراه يقول: (١)"والمعاني مطروحة في الطريق، يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والقروي والمدني، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتميّز اللفظ، وسهولة المخرج وكثرة الماء، وفي صحة الطبع، وجودة السبك".

لقد كان لظاهرة الاحتفال بالمعنى الشائعة في أيامه أثرٌ في تحريضه للنظر في الإعجاز البياني، فوضع حجر الأساس لصرح الإعجاز البياني عامة، ولنظرية النظم خاصة، الذي علا بعده على أيدي علماءَ أمثال: الرُّماني والخَطابي والباقلاني وعبد الجبّار المعتزلي وعبد القاهر الجرجاني.

ب - الرماني [٣٨٦هـ]

لقد وقف الرماني وَقفة مطوّلة في رسالته "النكت في إعجاز القرآن" عند الإعجاز البياني في القرآن الكريم. فقد جعل البلاغة وجهاً من وجوه الإعجاز السبعة عنده، وصرف فيها معظم صفحات رسالته، مما يدل على قناعته بها وجهَ الإعجاز.

والبلاغة عنده في طبقات ثلاث: (٢)"فما كان في أعلاها طبقة فهو معجز، وهو بلاغة القرآن".

والبلاغة القرآنية عنده قد حققت الإعجاز لأنها لم تعتمد فقط إفهام المعنى دون النظر إلى اللفظ وصورة النظم. ولم تعتمد اللفظ المستكره لمجرد تحقيق المعنى، وإنما اعتمدت النظم للألفاظ الحسنة المحققة للمعاني المرادة، وهذا كله مستمد من البلاغة.

لذلك نراه يعرّف البلاغة قائلاً: (٣)"وإنما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ".

إذن ؛ فهو لا يقول بالنظم بصورة مباشرة، لكنه يجعله كائناً في ثنايا الحديث، ففي تعليقه على تشبيه قرآني ارتضاه مثالاً دالاً على إعجاز القرآن(٤) "تشبيه أعمال الكفار بالسراب من حُسْن التشبيه، فكيف إذا تضمن مع ذلك حسن النظم، وعذوبة اللفظ، وكثرة الفائدة، وصحة الدِّلالة".

---

(١) الجاحظ : الحيوان ١٣٢/٤ .
(٢) الرماني : النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) ٧٥ .
(٣) المصدر السابق نفسه ٧٥ .
(٤) المصدر السابق نفسه ٨٢ .

فالنظم عنده هو ([1])"النسق المحكم الذي تندرج تحته كثير من ألوان البلاغة".

لقد كان الرماني صاحب محاولة رائدة في التصنيف البلاغي، حيث قسّم البلاغة عشرة أقسام، مقدمًا لكل قسم الشواهد القرآنية، معتمداً في تحليلها على حسّه الذوقي، منوها بالنظم القرآني البديع، مثبتاً إعجاز القرآن.

ج - الخطابي [٣٨٨هـ]

قدّم الخطابي في رسالته (بيان إعجاز القرآن) شرحاً لفكرة الإعجاز بالنظم انطلاقاً من إيمانه بالإعجاز البياني، موليا البلاغة عناية لتوضيح وجه الإعجاز.

فالبلاغة عنده في طبقات ثلاث:

١. فأعلاها طبقة وأرفعها: هي التي تتضمن الكلام البليغ الرصين الجزل.

٢. وأوسطها طبقة وأقصدها: هي التي تتضمن الكلام الفصيح القريب السهل.

٣. وأدناها طبقة وأقربها: هي التي تتضمن الكلام الجائز الطلق المرسل.

([2])"فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصة، وأخذت من كل نوع من أنواعها شعبة، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعذوبة .... فكان اجتماع الأمرين في نظمه مع نبوّ كل واحد منهما على الآخر فضيلةً خُصَّ بها القرآن".

وهو لم يقف عند البلاغة في كشف سر إعجاز القرآن، بل تجاوزها إلى توضيح مفهوم النظم عنده، فالبشر قد عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن، لأسباب ثلاثة هي:

١. علمهم لا يحيط بجميع ظروف المعاني و الحوامل لها و هي الألفاظ.

٢. أفهامهم لا تدرك جميع المعاني المحمولة على الألفاظ.

٣. معرفتهم لا تكتمل لاستيفاء جميع وجوه النظم التي بها يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض.

([1]) فتحي أحمد عامر : فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم ٦٦ .

([2]) الخطابي : بيان إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) ٢٦ .

يقول الخطابي في هذا:(1)"وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم. وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزم ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً، وأشد تلاؤماً و تشاكلاً من نظمه، وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تَشْهَدُ لها العقولُ بالتقدم في أبوابها، و الترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعومتها و صفاتها".

وهكذا فالخطابي يرى أن الفضل للقرآن على غيره من ضروب التأليف في جمعه بين حسنات ثلاث وهي:

أ- أصح الألفاظ.

ب- أحسن نظوم التأليف.

ج- أصح المعاني.

حيث يتعذر الجمع بينها في البشر.

د - الباقلاني [٤٠٣هـ]

يعد الباقلاني أول من ألفّ في إعجاز القرآن كتاباً مستقلاً وصل إلينا، قصر فيه الحديث على وجوه الإعجاز التي يراها، حيث قدّم وجوهاً ثلاثة للإعجاز، و بذل في شرح وجه منها معظم صفحات كتابه، وهو وجه الإعجاز البياني قائلاً بإعجاز النظم.

يقول في ذلك: (2)"والوجه الثالث: أنه بديع النظم، عجيب التأليف، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يُعلَمُ عجزُ الخلق عنه".

ثم نراه يشرع في شرح هذا النظم البديع، و تحديد سماته، فبديع النظم هذا المتضمن للإعجاز هو عنده موجود في وجوه عشرة وهي: خروجه عن نظام كلام العرب، وشموليته على صفات عديدة رفيعة بإتقان مستمر، وتصرفه إلى وجوه شتى بدون تفاوت في النظم والإبداع والدقة، وعدم تفاوته على الرُّغْمِ من اختلاف فنونه وتعدد وجوهه، وإعجازه للإنس والجن، واشتماله على جميع

---

(1) الخطابي : بيان إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) ٢٦.

(2) الباقلاني :إعجاز القرآن ٣٥ .

فنون الكلام، وموافقة معانيه لألفاظه، ومزيّة الكلمة القرآنية في ذاتها، وانتظامه من نفس حروف العربية، وخروجه عن الوحشي والغريب والمتكلّف مع سهولته ثم امتناعه.

١. خروجه عن نظام كلام العرب:

فالقرآن في جملته، من ناحية النظم، خارج عن المألوف والمعهود من نظام جميع كلام العرب وخطابهم، وأسلوبه الذي يختص به مخالف لأساليب العرب، فهو ليس بالشعر ولا بالسجع ولا بالمرسل، فهو خارج عن عادتهم.

٢. شموليته على صفات عديدة رفيعة بإتقان مستمر:

فالقرآن مشتمل على الفصاحة والغرابة والتصرّف البديع، والمعاني اللطيفة، والفوائد الغزيرة، والحكم الكثيرة، والتناسب في البلاغة، والتشابه في البراعة. وليس للعرب كلام مشتمل على كل هذا، على هذا الطول و هذا القدر من الفصاحة بإتقان دون أي اختلال أو اختلاف، مع الاستمرار في هذا الإتقان.

٣. تصرفه إلى وجوه شتى بدون تفاوت في النظم والإبداع والدقة:

فالقرآن يتصرف إلى وجوه شتى من قصص ومواعظ وحكم وأحكام وإعذار وإنذار ووصف وتعليم وتأديب، ثم هو لا يتباين ولا يتفاوت في عجيب نظمه، وبديع تأليفه، محافظاً على دقته وإبداعه. بينما نجد الشاعر يجود في غرض دون آخر، كذلك الخطيبُ الذي لا يستطيع نظم الشعر، فانفرد كل منهما بمجال أتقنه دون غيره وأبدع فيه.

٤. عدم تفاوته على الرغم من اختلاف فنونه وتعدد وجوهه:

يتفاوت كلام الفصحاء تفاوتاً بيّناً في الفصل والوصل، والعلو والنزول، والتقريب والتبعيد، لكنّ القرآن بعيد عن أي تفاوت على الرغم من اختلاف فنونه، وتعدد وجوهه التي يتصرف بها، فمؤتلفه كمختلفه، ومتباينه كمتناسبه.

٥. إعجازه للإنس والجّن:

يخرج القرآن في نظمه عن عادة الإنس والجّن، فهم عاجزون عن الإتيان بمثله، مع استمرار التحدي.

٦. اشتماله على جميع فنون الكلام:

فالقرآن يشتمل على جميع فنون الكلام من البسط والاقتصار، والجمع والتفريق، والاستعارة والتصريح، والتجوّز والتحقيق، ونحو ذلك كثير.

٧. موافقة معانيه لألفاظه:

القرآن يتضمن موافقة المعاني للألفاظ في لطف وبراعة مما يتعذر على البشر الإتيانُ بمثله.

٨. مزّية الكلمة القرآنية في ذاتها:

فالكلمة في القرآن إذا ما ذكرت في تضاعيف الكلام، أو قذفت ما بين شعر، تكون كالدّرة في واسطة العقد. لكن الباقلاني في رأيه هذا لا يسير على وتيرة واحدة فهو ينفي في مواضع أخرى مزيّة معجميّة الكلمة وجمالها في ذاتها، ويؤكد الفضل للمفردة في نظمها مع غيرها، كما يرى الجاحظ.

٩. انتظامه من نفس حروف العربية:

فالقرآن الكريم منتظم من نفس الحروف التي يَنْظِمُ بها العرب كلامهم. ونراه يُنَوِّهُ بعملية إحصائية قام بها، ذاكراً أن عدد السور التي افتتح بها بذكر الحروف هي ثمانٍ وعشرون سورة، وجملة ما ذكر من هذه الحروف في أوائل السور أربعة عشر حرفاً. وكأنه يشير إلى إعجاز عددي متعلق بنظم هذه الحروف المكوّنة لكلمات القرآن.

١٠. خروجه عن الوحشي والغريب والمتكلّف مع سهولته ثم امتناعه:

فالقرآن خارج عن كل وحشي مستكره، أو غريب مستنكر، أو صنعة متكلّفة وهو على ذلك قريب الفهم، ولكنه ممتنع المطلب، وغيرُ مقدور عليه.

والملاحظ مما سبّق أنه فصّل القول في إعجاز النظم، بصورة فاق فيها من سبقه من علماء. وهو مع ذلك يصرّح بأن هذا الوجه قد سُبق إليه، وينسب الفضل لنفسه في الكشف عن سمات هذا النظم المعجز.

فيقول في ذلك:([1])"والذي أطلقه العلماء هو على هذه الجملة، و نحن نفصّل ذلك بعض التفصيل، و نكشف الجملة التي أطلقوها".

لكنّه يخالف رأي الرماني القائلَ بإعجاز القرآن عن طريق تصوّر ما فيه من البلاغة، فالبلاغة عنده لا تصلح أن تكون وجهاً من وجوه الإعجاز، لأن البديع يمكن تعلُّمُه. غيرَ منكر في الوقت نفسه نصيب القرآن من البديع، ([2])"فالمدار عنده قبل كل شيء على الصياغة، و أن أسرار الإعجاز كامنة في نظم القرآن، لا في البديع ولا في وجه من وجوه البلاغة التي أحصاها الرماني".

غير أن نظرية النظم هذه لم تتبلور عنده لتأخذ شكلها الناضج، فجاء القاضي عبد الجبّار المعتزلي، ومن بعده عبد القاهر الجرجاني لإتمام ما ابتدأه الباقلاني، الذي استنار بفكر الجاحظ والرماني والخطابي.

هـ - القاضي عبد الجبار المعتزلي [٤١٥هـ]

يعد القاضي عبد الجبّار أول من رسم معالم فكرة النظم القرآني، وذلك في كتابه (المغني في أبواب التوحيد والعدل)، حيث وضح مفهوم النظم الذي هو الضم على طريقة مخصوصة بهدف إظهار فصاحة الكلام، لأن الكلمات مُفْرَدَةً لا تظهر فيها الفصاحة.

ولكنّ هذا الضم عنده مقيّد بشرط، وهو أن تكون للكلمة صفة من صفات ثلاث تظهر ما في الكلام من فصاحة. فالكلمة في حال نظمها ينظر إليها من جوانب ثلاثة:

١. مفهومها في ذاها:

فلكل كلمة معناها الخاص بها الذي يفرّقها عن غيرها من مرادفاها، ففي اختيار اللفظ المناسب للمعنى، دون المرادف له، يظهر جمال النظم، ومزية الفصاحة.

([1]) الباقلاني : إعجاز القرآن ٣٥ .
([2]) منير السلطان : إعجاز القرآن بين المعتزلة و الأشاعرة ١١٨.

٢. حركات إعرابها:

فقد تزداد الكلمة حسناً، وتكتسب بهاء ورونقاً إذا أسندت في موضع معّين. وهي تفقد من البهاء الشيء الكثير إن هي خدمت نفس المعنى، لكنها جاءت مضافة في موضع آخر، على سبيل المثال.

٣. موقعها في التقديم والتأخير:

فالموقع أيضاً يبرز جمال النظم وحسنه، فقد تقدّم كلمة وحقها التأخير لتحقّق إعجازاً في خدمة المعنى نفسه([1]).

يقول القاضي عبد الجبّار في هذا المعنى: ([2])"اعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام، وإنما تظهر في الكلام بالضم علي طريقة مخصوصة، ولا بد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة، وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التي تتناول الضم، وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه، وقد تكون بالموقع، وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابع ؛ لأنه إما أن تعتبر فيه الكلمة، أو حركاتها، أو موقعها، ولا بد من هذا الاعتبار في كل كلمة، ثم لا بد من اعتبار مثله في الكلمات إذا انضم بعضها إلى بعض ... فعلى هذا الوجه الذي ذكرناه إنما تظهر مزية الفصاحة بهذه الوجوه دون ما عداها".

ونلاحظ مما سبق أن القاضي عبد الجبّار قد قصر النظم علي الصياغة النحوية من حركات ومواقع إعرابية، وهي عين نظرية النظم الجرجانية

٩ _ عبد القاهر الجرجاني [٤٧١ هـ]

لقد بسط عبد القاهر الجرجاني القول في إعجاز القرآن في كتابه (دلائل الإعجاز)، وكشف عن هذا الوجه بطريقة نحوية بلاغية، قائلاً بنظرية النظم التي هي القول الفصل في إعجاز القرآن دون اللفظ أو المعنى عنده.

([1]) يسمي عبد الكريم الخطيب حركات الإعراب : الوظيفة التى تؤديها الكلمة ، ويسمي الموقع : المكان المناسب لأداء الوظيفة . انظر كتابه إعجاز القرآن ٢٢٦ .

([2]) القاضي عبد الجبّار : المغني في أبواب التوحيد والعدل ١٦/١٩٩ .

لقد أخضع الجرجاني الإعجاز البياني للنحو، والنحو للإعجاز البياني، عندما نظر للنظم من منظور القاضي عبد الجّبار. فالنظم عنده هو توخي معاني النحو في الكلام. حيث يقول: ([1])"والنظم هو أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو".

فإعجاز القرآن قد تمّ بسبب مراعاة قواعد النحو بدقة متناهية، فالخطأ في استعمال القواعد النحوية يؤدي إلى ضعف في النظم وفساد فيه. وعليه، فهو يرفض فصاحة المفردات وعذوبة جرسها وجهاً للإعجاز. فالمعوّل عليه هو النظم لهذه المفردات المؤدية للمعنى على الوجه الصحيح.

وهو باعتماده اللفظ والمعنى والنظم يقسّم الكلام أقساماً ثلاثةً:

١. كلام اعتمد اللفظ الجميل الحسن، مستغنياً به عن النظم البديع.

٢. كلام اعتمد المعنى الحسن، والأفكار المترابطة، مستغنياً عن اللفظ الأنيق.

٣. كلام حوى الحسن من طرفيه، فجمع إلى جمال اللفظ وصحته، حسن المعنى وتساوقه، بنظم بديع. وهو موضوع التفاضل بين العلماء، وبه يتحقق الإعجاز.

وعليه قولُهُ: ([2])"وجملة الأمر أن ههنا كلاماً حُسنُه للّفظ دون النظم، وآخرَ حسنه للنظم دون اللفظ. وثالثاً قد أتاه الحسنُ من الجهتين، ووجبت له المزية بكلا الأمرين".

إذن، فهو سائر على نهج القاضي عبد الجّبار، وتبقى المزيةُ عنده في تهذيب الفكرة وتوضيحها، وإسهابه في شرحها، وتدعيمها بالشواهد، كل ذلك بأسلوب علمي منطقي، سَلِسٍ لطيف.

لقد ظلّ وجه الإعجاز البياني يلقى الرعاية والاهتمام من العلماء منذ القرن الثالث الهجري. حتى إذا ما وصل إلى العصر الذهبي للبحث فيه، وهو القرن الخامس الهجري، وجد الأفكار حوله قد تبلورت، ونَضِجت النظريات الباحثة في كنهه. فكانت قطوفاً دانية لعلماء القرون اللاحقة الذين اعتمدوا جهود من سبقهم، وأفادوا من آرائهم الطيّبة، ونظراتهم الثاقبة، فحلّلوا مناقشين، وبوّبوا مهذّبين مشذّبين.

([1]) عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ٨١ .
([2]) نفسه ١٠٠ .

ثم تمر القرون وتدور عجلة البحث، فيبرز في العصر الحديث علماء قائلون بالإعجاز البياني، مؤمنون به، مدافعون عنه، بأسلوب علمي معاصر جديد.

فمن أبرز هؤلاء العلماء: مصطفى صادق الرافعي (١٩٣٧م)، وعائشة عبد الرحمن (١٩٩٨م)، ومحمد متولي شعراوي (٢٠٠٠م)، ومحمد سعيد رمضان البوطي.

١. لقد ردّ هؤلاء العلماء جميعاً المذهب القائل بالصرفة، وهم لم يخرجوا في ذلك عن الطريق التي رسمها القدماء في ردّهم لها. حيث أوردوا الشاهد القرآني نفسه، وجاؤوا بالحجج العقلية ذاتها التي اعتمدها القدماء.

٢. وكما اتفقوا في ردّهم مذهب الصرفة، اتفقوا أيضاً في تعرضهم لقضية التحدي والمعارضة، على اختلاف في المعالجة.

فالرافعي في الجزء الثاني من كتابه (تاريخ آداب العرب)([١]) تعرض للقضية بإسهاب تاريخي، واصفاً حال العرب في الجزيرة العربية عند الدعوة، وما كانوا عليه، متعرضاً لبلاغتهم وفصاحتهم، ثم عدم قدرتهم على المعارضة مع استمرار التحدي، متتبعاً أسماء الذين حاولوا المعارضة، رادّاً الظنّ ببعضهم، محتجاً لذلك بحجج علمية مقنعة.

وعائشة عبد الرحمن في كتابها (الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق) اختلفت في معالجتها بأن جاءت بفكرة طريفة فَرَّقت فيها بين التحدي والإعجاز، فالتحدي يخصّ البلغاء في عصر الرسول – صلى الله عليه وسلم – دون غيرهم، بينما الإعجاز يخص عامة الناس في شتى العصور.

وأما محمد متولي شعراوي في كتابه (معجزة القرآن)، ومحمد سعيد رمضان البوطي في كتابه (من روائع البيان)، فقد أشارا إلى القضية إشارة سريعة، وعالجاها معالجة مقتضبة.

٣. ثم هم في اتفاقهم جميعاً في القول بالإعجاز البياني للقرآن، وإيمانهم بنظرية النظم، وتعرضهم لأسلوب القرآن مادةً للإعجاز البياني، ودراسته من جهات عدّة، اختلفوا في طريقة دراسة هذه الجهات المختصة بالأسلوب، والعرض لها.

([١]) جعل هذا الجزء فيما بعد كتاباً مستقلاً أسماه (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية) .

فالرافعي الذي يرى في أسلوب القرآن مادة الإعجاز البياني، في تلاؤمه وعدم تفاوته ثم بمخالفته جميع أساليب البلغاء، قد درسه – أعني الأسلوب – من جهات ثلاث اختص بها نظم القرآن، وهي الحروف، والكلمات، والجمل.

يقول الرافعي: (1)"فأنت تعلم الآن أن سر الإعجاز هو في النظم، وقد علمت أن جهات النظم ثلاث:في الحروف، والكلمات، والجمل".

فحروف القرآن مرتبة باعتبار من أصواتها ومخارجها، وهي متوازنة، مؤتلفة المخارج، متناسبة الأصوات، مما يُشعِر السامع بموسيقى لغوية معجزة في نغمها وسريانها في النفس. والحرف أيضاً معجز في موضعه.

وكلمات القرآن هي صوت للحس، حيث فيها من روح البلاغة، وهي لا تُسرِف على النفس بل هي مقتصدة مناسبة للمعنى تماماً، وهي مختلفة عن صوت النفس، وصوت العقل.

وجمل القرآن هي أيضاً مظهر من مظاهر إعجاز نظمه، فهي تجري على نمط واحد من القوة والإبداع، بحيث يتعلق بعضها ببعض، فيحقق الوحدة في مستوى الأداء، دون تفاوت أو اختلال، والمستوى الرفيع من البلاغة.

وترى عائشة عبد الرحمن في إيمانها بالإعجاز البياني أنه لم يكن قط موضع خلاف، فالجدل الكائن بين الفرق الإسلامية عندها في اعتبار الإعجاز البياني الوجه الأوحد في الإعجاز أو القول بوجوه أخرى، ثم هي تمضي في إثبات رأيها هذا.

وفي محاولة منها لفهم الإعجاز البياني تقف عند الحرف والكلمة، دون الجملة. فتنظر إلي سر الحرف القرآني في فواتح السور، ثم ترفض تقدير بعض حروف القرآن زائدة أو محذوفة أو مؤولة بحروف غيرها.

وترفض في أثناء معالجتها للكلمة القرآنية قضية الترادف في القرآن الكريم من خلال عرضها للأمثلة الموضحة للفروق اللغوية.

---

(1) مصطفى صادق الرافعي : تاريخ آداب العرب ٢/ ٢١١ .

وهي لا تقف عند هذا الحد في دراسة الأسلوب القرآني، بل تتعرض لظواهر أسلوبّية بالتعليق والأمثلة، مثل ظاهرة الاستغناء عن الفاعل، والبدء بواو القسم، والسجع ورعاية الفواصل.

وعالج محمد متولي شعراوي الأسلوب البلاغي للقرآن من جهة الحرف والكلمة والجملة أيضاً، مكثراً من الشواهد القرآنية المؤكدة لمعتقده.

فالحرف قد تم وضعه بحكمة بالغة، والكلمة القرآنية بعيدة عن الترادف، فلكل لفظ معنى دقيق يؤديه، يصعب على أي معنى آخر تأديته، على الرغم من التشابه، وهو ينفي أيضاً التكرار في الكلمة القرآنية، وفي الجملة القرآنية.

ويقرّر محمد سعيد رمضان البوطي أن الحديث عن إعجاز القرآن هو بسط لمنهجه وخصائصِ أسلوبه البلاغي المعجز. وهو يتناوله من جهتين فقط هما: الكلمة القرآنية، والجملة القرآنية.

فمزية الكلمة القرآنية هي في تناولها لسطْحِ المعنى و أعماقِه، ومطابقتِها التامة للمعنى، وعدم وجود أي ضابط للجرس والوزن والإيقاع.

ومزية الجملة القرآنية في اتساقها اللفظي و إيقاعها الداخلي، و دلالتها بأقصر عبارة على أوسع معنى، و إخراج المعني المجرد في مظهر الأمر المحسوس.

ثم إن لكل واحد منهم منهجاً في البحث، وأسلوباً في العرض، ولغة مختلفة عن الآخرين.

فالرافعي جاء بأسلوب رفيع أثناء العرض و المناقشة إحساساً منه برفعة الموضوع الذي يعالجه، فكان يكتب عبارات من روح القرآن متأثراً بالمقام. فكَثُرَت التراكيب البلاغية والجمل الشعرية والعبارات الرّنانة.

وقد اتبع في بحثه المنهج التاريخي مازجاً إياه بالمنهج النقدي حيث بسط القول في الموضوعات الفرعية التي تناولها، وحاول تعميق الأفكار، وتنظيم البناء.

واعتمدت عائشة عبد الرحمن منهج الرافعي دون أسلوبه، لكنَّ نقدَها كان أكثر جرأة وطلاقة، فوافقت القدماء بعد تتبعهم تاريخياً أحياناً في مواقفهم وآرائهم، وخالفتهم بأسلوب يراوح بين العنف في ردّ الفكرة، والتهكم غير المسوّغ عند عدم الاقتناع بها.

أما محمد متولي شعراوي فقد اقتصر على المنهج النقدي دون التاريخي بأسلوب تعليمي قريب سلس ؛ يخلو من التعقيد والعبارات الشعرية، ويلتزم السهولة في العرض، والإكثار من الشواهد التوضيحية.

ووافق محمد سعيد رمضان البوطي أيضاً الشعراوي في المنهج، لكنه ارتفع بلغته قليلاً عن لغة المعلّم المبسِّط إلى لغة الباحِث المتخصص، دون لجوء إلى أي تعقيد في بسط العبارة أو جنوح إلى التراكيب الشعرية المتكلّفة.

و يبقى أخيراً أن أقول: إنهم في جملة ما اتفقوا عليه، وما اختلفوا فيه، لم يخرجوا عمّا رسمه علماء القرن الخامس الهجري، ولا سيما الباقلاني والجرجاني فيما توصلاّ إليه من حقيقة إعجاز القرآن، ويبقى الفضل لهم في عرضهم الأفكار وتقريبها وتهذيبها لنا.

و بعد،

فهذا تمهيدٌ لظاهرة الإعجاز، يَعْقُبُه:

١. الفصل الأول: ترجمة مختصرة للباقلاني والجرجاني.

٢. الفصل الثاني: عرض لمذهب كل واحد منهما بالتتبع والشرح والتحليل للمؤتلفِ والمختلفِ، موازنةً بينهما على غرار ما فعل الآمدي في موازنته بين الطائيين .

٣. الفصل الثالث: مناقشة لمذهب كل واحد منهما مع النقد والتقويم ضمن إطار الموازنة أيضاً.

ومِن ثَمَّ، أخلص إلى نتيجة مناسبة من حيث أهميةُ تناول الرجلين للموضوع، ومكانتهما في تاريخ ظاهرة الإعجاز.

الفصل الأول

ترجمة مختصرة
للباقلاني والجرجاني



نقف في هذا الفصل على ترجمة مختصرة للرجلين، تُعَرِّفنا بهما، قبل أن نعرض لمذهبيهما.

وترجمة أولهما هي:

اسمه: مُحَمَّدُ بنُ الطَّيِّبِ بن مُحَمَّد.

كذا ورد الاسم عند الخطيب البغدادي[1]، ومثله عند القاضي عِيَاض[2]، و أيضاً عند ابن عساكر[3].

وذَكَرَ جدَّه الثاني جَعْفَراً، ابنُ العماد[4]، و الذَّهَبِيُّ[5].

و ذكر جدَّه الثالث القاسِمَ، ابنُ خَلِّكان[6]، وابن تَغْرِي بَرْدي[7]، وإسماعيل باشا البغدادي[8].

كنيته: أبو بكر، دون خلاف، كما ذُكِرَتْ في جميع المصادر التي تقدّم ذكرها في الحواشي[9].

نسبه: الباقلاّني. ذكرها القاضي عياض[10]، والسَّمْعَاني[11]، والنُباهي[12]، وابن خَلِّكان[13].

---

[1] انظر : تاريخ بغداد ٤٥٦/٢

[2] انظر : ترتيب المدارك و تقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ٤٥/٧ .

[3] انظر : تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري ٢١٧ . كما ورد كذلك عند ابن فرحون في الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ٣٦٣ . ومحمد باقر الموسوي في روضات الجنّات في أحوال العلماء و السادات ٣٤٣/٧ .

[4] انظر : شذرات الذهب في أخبار مَنْ ذهب ٣١٠/٣ .

[5] انظر : العبر في خبر من غبر ٢٠٧/٢. وذكر هذه الزيادة أيضاً : أبو الفداء إسماعيل بن علي في تاريخه المسمّى المختصر في أخبار البشر ٤٩٢/١ ، و الزركلي في الأعلام ١٧٦/٦ .

[6] انظر : وفيات الأعيان ٢٦٩/٤ .

[7] انظر : النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة ٢٣٤/٤ .

[8] انظر : هدية العارفين : أسماء المؤلفين و آثار المصنّفين . ٥٩/٢

[9] وانظر أيضاً : اليافعي في مرآة الجنان ٦/٣ ، ومحمد بن محمد مخلوف في شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ٩٣/١ ، و ابن كثير في البداية و النهاية ٣٥٠/١١ .

[10] انظر ترتيب المدارك ٤٥/٧ .

[11] انظر الأنساب ٢٦٦/١ .

[12] انظر تاريخ قضاة الأندلس ٣٧ .

[13] انظر وفيات الأعيان ٢٦٩/٤ .
وذكر ذلك أيضاً : ابن فَرْحون في الديباج المذهّب ٣٦٣ ، واسماعيل باشا البغدادي في هدية العارفين ٥٩/٢ ، وابن كثير في البداية والنهاية ٣٥٠/١١ ، و الصفدي في الوافي بالوفيات ١٧٧/٣ و محمد بن محمد مخلوف في شجرة النور الزكية ٩٣/١ ، و الموسوي في روضات الجنَّات ٣٤٣/٧ ، و الزركلي في الأعلام ١٧٦/٦ .

أو ابن الباقلاني. نصّ على ذلك الخطيب البغدادي([1])، واليافعي([2])، وابن عساكر([3])، وابن العماد([4]).

والراجح عندي أنه ليس ثمة اختلافٌ بين النسبتين، فقد كان أبو بكر يبيع الباقلاء مع أبيه، فَنُسِبَ إليها، كما نسب إليها أبوه قبله. و يؤكد ما ذهبت إليه الحافظ الذّهبي، الذي زاوج بين النسبتين في كتابيه: العبر و سير أعلام النبلاء([5]).

و الباقلاني: ([6])"بفتح الباء الموحّدة، و كسر القاف بعد الألف، و اللام ألف، و في آخرها نون، هذه النسبة إلى باقلا و بيعه".

و هذه النسبة عند الحريري([7])من شواذ النسب صرفياً ؛ لأنه لم يرد عند العرب إلحاق الألف والنون في النسب إلاّ بأسماء محصورة للمبالغة، والشواذ لا يُقاس عليها.

ومن أشهر ألقابه التي لُقِّبَ بها: سيف السنة ولسان الأمة. وقد ذكر هذين اللقبين كلٌّ من القاضي عياض([8])، واليافعي([9])،وابن فَرْحُون([10])، ومحمد بن محمد مخلوف([11]).

مولده ونشأته

لم تذكر كتب التراجم السنة التي ولد فيها الباقلاني([12])، كما أنه لم يَرِدْ ذكر مكانٍ ولادته صراحة، غير أن المترجمين له أجمعوا على أنه بصري، ([13])"من أهل البصرة". وقد استقر الباقلاني في بغداد، وظلّ فيها حتى وفاته.

([1]) انظر تاريخ بغداد ٤٥٦/٢ .
([2]) انظر مرآة الجنان ٦/٣ .
([3]) انظر تبيين كذب المفتري ٢١٧ .
([4]) انظر شذرات الذهب ٣١٠/٣ ، و انظر أيضاً التوحيدي في الإمتاع والمؤانسة ١٤٣/١ ، و أبا الفداء في تاريخه ٤٩٢/١ .
([5]) انظر الأول ٢٠٧/٢ ، و الثاني ٨٦/١٥ و ٢١٣ .
([6]) السمعاني : الأنساب ٢٦٦/١ .
([7]) انظر درّة الغوآص ١٠٠ .
([8]) انظر ترتيب المدارك ٤٥/٧ .
([9]) انظر مرآة الجنان ٦/٣ .
([10]) انظر الديباج المذهّب ٣٦٣ .
([11]) انظر شجرة النور ٩٣/١ .
([12]) غير أن الزركلي في الإعلام انفرد بذكر السنة ، وهي عنده (٣٣٨هـ) .
([13]) القاضي عياض : ترتيب المدارك ٤٥/٧ ، ابن فرحون : الديباج المذهّب ٣٦٣ ، ابن عساكر :تبيين كذب المفتري ٥٢ ، الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ٤٥٦/٢ .

ونحن لا نعرف عن أسرته شيئاً، سوى أنّ والده كان يبيع الباقلاء، ولم يَذِع صيتُ أي فرد من أفراد أسرته.

تفكيره واعتقاده وملامح شخصيته

كان الباقلاني سنياً أشعَرياً على مذهب أبي الحسن، وقد ذكر هذا الخطيب البغدادي ([1])،والقاضي عياض([2])، وابن عساكر([3]).

وقد ذكر اليافعي نُصرةَ الباقلاني للمذهب السنيّ قائلاً: ([4])"كان الانتساب إلى الاعتزال فاشياً منتشراً، وكل من كان متسنناً كان مستخفياً مستتراً، إلى أن قام القاضي أبو بكر بنُصرة المذهب".

وقد شُهِدَ للباقلاني بالورع والتقوى، فهذا ابن العماد يقرُّ بذلك قائلاً: ([5])"وكان وَرِعاً لم تُحْفَظ عنه زَلّة ولا نقيصة، وكان باطنه معموراً بالعبادة والديانة والصيانة".

وشَهِدَ اليافعي له أيضاً بذلك قائلاً: ([6])"كان فاضلاً متورعاً ممن لم يُحْفَظُ عليه زَلّةٌ قط، ولا تنسب إليه نقيصة".

وكذلك فعل أبو عبدالله الصيرفي حيث قال: ([7])"كان صلاح القاضي أكثر من علمه، وما نفع الله هذه الأمة بكتبه، وبثّها فيهم، إلاّ بحسن نيته، واحتسابه بذلك ما عند الله من الثواب".

([1]) انظر تاريخ بغداد ٢/٤٥٥ .
([2]) انظر ترتيب المدارك ٧/٤٥ .
([3]) انظرتبيين كذب المفتري ٢١٧ . وقد ذكر أشعريته أيضاَ السّمعاني في الأنساب ١/٢٦٦ ، وابن خلكّان في وفيات الأعيان ٤/٢٦٩ ، وأبو الفداء في تاريخه ١/٤٩٢ ، والذهبي في العبر ٢/٣٣٠ ، والصفدي في الوافي بالوفيات ٣/١٧٧ ، واليافعي في مرآة الجنان ٣/٦ ، وابن فرحون في الديباج المذهب ٣٦٣ ، وابن تغري بردي في النجوم الزاهرة ٤/٢٣٤ ، ومحمد بن محمد مخلوف في شجرة النور ١/٩٣ ، والنباهي في تاريخ قضاة الأندلس ٣٧ .
([4]) اليافعي : مرآة الجنان ٣/٧ .
([5]) ابن العماد : شذرات الذهب ٣/٣١١ .
([6]) اليافعي : مرآة الجنان ٣/٧ .
([7]) القاضي عياض : ترتيب المدارك ٧/٤٨ ، وانظر الخبر عند النباهي : تاريخ قضاة الأندلس ٣٧ .

ولم يكن الباقلاني يجاهر بورعه وتقواه، ولا يخافت بهما، حيث كان له في اعتداله هذا وجهةُ نظر حكيمة، ذكرها أبو حاتم القزويني حيث قال: (١)"إن ما كان يضمره القاضي الإمام أبو بكر الأشعري ــ رضي الله عنه ــ من الورع والديانة والزهد والصيانة أضعافَ ما كان يظهره، فقيل له في ذلك، فقال: إنما أظهر ما أظهره غيظاً لليهود والنصارى والمعتزلة والرافضة والمخالفين لئلا يستحقروا علماء الدين، وأضمر ما أضمره فإني رأيت آدمَ مع جلالته نوديَ عليه بذوقة، وداود بنظرة، ويوسف بهمّة، ومحمد بخطرة ــ عليهم السلام ــ".

ومما اشتهر به مداومته على العبادة، وصبره عليها، فقد اعتاد قراءة الوِرْد بعد صلاة العشاء كل ليلة في الحضر والسّفر، وقد أشار البغدادي لهذا قائلاً: (٢)"كان ورده في الليل عشرين ترويحة، في الحضر والسّفر".

فلا عجب بعد كل هذا أن يتوّج على رأس المئة الرابعة هادياً للناس، حيث قال القاضي عياض: (٣)"جاء في الأثر: أنّ الله يتعاهد عباده بأنبيائه ورسله، فلمّا ختم الرّسلَ محمدٌ ــ صلى الله عليه وسلم ــ تعاهد أمَّتَهُ في رأس كل مئة بربّاني من علمائها، يحيي لها دينها، ويجددّ شريعتها، فكان إمامَ رأس الأربعمئة أبو بكر الطيّب".

وليس هذا فحسب فقد اشتُهر الباقلاني، بالإضافة إلى ورعه وتقواه، بذكائه وسرعة بديهته. فقد أورد الخطيب البغدادي حادثة في ذكائه وسرعة بديهته حيث قال: (٤)"حَدَثَ أن ابن المُعَلِّم، شيخَ الرافضة ومتكلمَها، حضر بعض مجالس النظر مع أصحاب له، إذ أقبل القاضي أبوبكر الأشعري، فالتفت ابن المعلّم إلى أصحابه وقال لهم: قد جاءكم الشيطان ! فسمع القاضي كلامهم، وكان بعيداً من القوم، فلما جلس أقبل على ابن المعلّم و أصحابه، وقال لهم: قال الله تعالى: ﴿ألم تَرَ أَنّا أرْسَلْنا الشَياطينَ على الكافِرينَ تَؤُزُّهُم أزّاً﴾ [مريم ٨٣]، أي إنْ كُنْتُ شيطاناً فأنتم كفّار، وقد أرسلت عليكم".

---

(١) ابن عساكر : تبيين كذب المفتري ٢٢١ .

(٢) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ٤٥٦/٢ , وانظر الخبر في ابن العساكر : تبيين كذب المفتري ٢٢٠ ، والذهبي: العبر ٢٠٧/٢ , والصفدي : الوافي بالوفيات ١٧٧/٣ .

(٣) القاضي عياض :ترتيب المدارك ٤٨/٧ .

(٤) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ٤٥٦/٢ . وقد ذكر الخبر أيضاً القاضي عياض في ترتيب المدارك ٥١/٧ ، وابن عساكر في تبيين كذب المفتري ٢١٧ .

وقد ذكر القاضي عياض حادثة أخرى تشير إلى سرعة بديهته حيث قال: ([1])"سمعت بعض الشيوخ يحكي أن ابن المعلّم تكلّم معه يوماً، فلما احتد الكلام بينهما، رماه ابن المعلّم بباقلاء أعدّه له، يُعَرِّضُ له بما نسب إليه ليخجله بذلك ويُحْصِرَه، فردّ القاضي للحينِ يده إلى كمّه، ورماه بِدِرَّة أعدّها له، فعجب من فطنته، و إعداده للأمور أشباهَها قبل وقتها".

ومن الحوادث التي تدل على ذكائه وسرعة بديهته أيضاً، حادثة وقعت له في بعثته إلى ملك الروم، ذكرها البغدادي قائلاً: ([2])"حدثنا أبو القاسم علي بن الحسن بن أبي علي عثمان الدّقاق وغيره أن الملك الملقّب بعضد الدولة كان قد بعث القاضي أبا بكر بن الباقلاني في رسالة إلى ملك الروم، فلما ورد مدينته عرف الملك خبره، وبُيِّنَ له محله من العلم وموضعُه، فأفكر الملك في أمره، وعلم أنه لا يَكْفُرُ له إذ دخل عليه، كما جرى رسم الرّعية أن تُقَبِّلَ الأرض بين يدي الملوك، ثم نتجت له الفكرة أن يضع سريره الذي يجلس عليه وراء باب لطيف، لا يُمَكِّنُ أحداً أن يدخل منه إلا راكعاً ليدخل منه القاضي على تلك الحال، فيكون عوضاً من تكفيره بين يديه، فلما وضع سريره في ذلك الموضع أمر بإدخال القاضي من الباب، فصار حتى وصل إلى المكان، فلما رآه تفكّر فيه، ثم فَطِنَ بالقصة فأدار ظهره، و حنا رأسه راكعاً، ودخل من الباب وهو يمشي إلى خلفه، قد استقبل الملك بدبره حتى صار بين يديه، ثم رفع رأسه ونصب ظهره، وأدار وجهه حينئذٍ إلى الملك ! فعجب من فطنته، ووقعت له الهيبة في نفسه".

وقد وصف ابن خلكّان ذكاءه هذا قائلاً: ([3])"وكان موصوفاً بجَوْدة الاستنباط، وسرعة الجواب".

وكان الباقلاني حريصاً على ثبات اتزانه ووقاره،وهو قاضٍ([4]) وعالِمٌ مسلمٌ وَرِعٌ، حيث يقال ([5]):"إنّ ملك الروم أحضر بين يديه آلة الطرب المسماة بالأَرْغُل، ليستفز عقله بها، فلما سمعها الباقلاني خاف على نفسه أن يظهر منه حركة ناقصة بحضرة الملك، فجعل لا يألو جهداً أن جرح

([1]) القاضي عياض : ترتيب المدارك ٥١/٧ .
([2]) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ٤٥٦/٢ . وانظر الخبر عند ابن عساكر : تبيين كذب المفتري ٢١٨ .
([3]) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٢٧٠/٤ .
([4]) ذكر كونه قاضياً القاضي عياض في ترتيب المدارك ٤٥/٧ ،حيث قال : ولي القضاء بالثغر".
([5]) ابن كثير : البداية والنهاية ٣٥٠/١١ .

رجله حتى خرج منها الدم الكثير، فاشتغل بالألم عن الطرب، ولم يظهر عليه شيء من النقص والخفّة. فعجب الملك من ذلك، ثم إنّ الملك اكتشف الأمر، فإذا هو قد جرح نفسه بما أشغله عن الطرب، فتحقّق الملك وفور همته، وعلو عزيمته، فإنّ هذه الآلة لا يسمعها أحد إلاّ طرب شاء أم أبى".

فالباقلاني لم ينغمس بالترف و المجون، بل كان منكباً على التدريس والتأليف، منشغلاً بهما عن أي شيء سواهما. وقد ذكر المَيُورَقي غزارة إنتاج الباقلاني العلمية قائلاً: ([1])"حسبت تواليف القاضي وإملاءاته، فقسمت على أيام عمره من مولده إلى مماته فوجدت أنه يقع لكل يوم منها عشرُ ورقات أو نحوها".

وقد ورد خبر تأليفه عند ابن عساكر حيث قال: ([2])"كان كل ليلة إذا صلّى العشاء، وقضى ورده، وضع الدَّواة بين يديه، وكتب خمساً وثلاثين([3]) ورقة تصنيفاً عن حفظه. وكان يذكر أن كَتْبَه بالمداد أسهل عليه من كَتْبِه بالحبـــر، وإذا صلى الفجر دفع إلى بعض أصحابه ما صنّفه في ليلته، وأمره بقراءته عليه، وأملى عليه الزيادات فيه".

ونراه قد استغنى بعلمه وسعة اطلاعه ثم بغزارة معلوماته وحضور ذاكرته عن الرجوع إلى تواليف غيره من العلماء. وقد ذكر ذلك ابن عساكر قائلاً: ([4])"قال أبو الفرج: وسمعت أبا بكر الخوارزمي يقول: كل مصنّف ببغداد إنما ينقل من كتب الناس إلى تصانيفه سوى القاضي أبي بكر، فإن صدره يحوي علمه وعلم الناس. وكان القاضي أبو بكر يهم بأن يختصر ما يصنّفه فلا يقدر على ذلك لسعة علمه، وكثرة حِفظه، وما صنّف أحدٌ خلافاً إلاّ احتاج أن يطالع كتب المخالفين عند القاضي أبي بكر، فإن جميع ما كان يُذْكَر خلافُ الناس فيه صنّفه من حفظه".

([1]) القاضي عياض : ترتيب المدارك ٤٩/٧ .

([2]) ابن عساكر : تبيين كذب المفتري ٢٢٠ . وانظر الخبر أيضاً عند البغدادي في تاريخه ٤٥٦/٢ . والسمعاني في الأنساب ٢٦٦/١ ، وابن فرحون في الديباج المذهب ٣٦٣ ، واليافعي في مرآة الجنان ٧/٣ . والذهبي في العبر ٢٠٧/٢ .

([3]) ذكر ابن كثير في البداية والنهاية أنه كان يكتب عشرين ورقة ، انظر ذلك ٣٥٠/١١ .

([4]) ابن عساكر :تبيين كذب المفتري ٢٢٠ .

لذلك شَهِدَ له كلّ من ترجم له بغزارة إنتاجه العلمي، ولا سيّما علم الكلام. يقول البغدادي: ([1])"أما الكلام، فكان أعرف الناس به، وأحسنهم خاطراً، وأجودهم لساناً، وأوضحهم بياناً، وأصحهم عبارة، وله التصانيف الكثيرة المنتشرة في الردّ على المخالفين من الرافضة، والمعتزلة، والجهمية، والخوارج".

وقد ذكر مكانته العلمية المرموقة هذه ثلّة من العلماء، فهذا ابن خَلّكان يقول: ([2])"صنّف التصانيف الكثيرة المشهورة في علم الكلام وغيره، وكان في علمه أوحد زمانه، وانتهت إليه الرياسة في مذهبه".

أما عن تدريسه، فقد اتفقت المصادر على أنه ([3])"كانت له بجامع المنصور حَلْقةٌ عظيمة" يُدَرِّسُ علومه فيها.

مناظراته

أورد معظم من ترجم للباقلاني مناظراتِه التي ذاع صيتها، وشاعت في الكتب، وهذا مما يؤكد على ما ذهبت إليه سابقاً من اتقاد ذكائه، وحضور ذهنه، وسرعة خاطره، وسعة علمه، واتساع ثقافته.

ومن مناظراته الشهيرة مناظرته في مجلس عضد الدولة البويهي فِنَّاخِسْرو بن يزيد الديلمي، الذي كان محبّاً للعلماء، حريصاً على أن يضمَّ مجلسه نخبة مميزة منهم، وأكثرهم كان من الفقهاء المتكلّمين، وكان يعقد لهم مجالس للمناظرة.

([1]) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ٤٥٦/٢ . وانظر الخبر عند السمعاني في الأنساب ٢٦٦/١ . وابن عساكر في تبيين كذب المفتري ٢١٧ ، وابن كثير في البداية والنهاية ٣٥٠/١١ ، والموسوي في روضات الجنات ٣٤٣/٧ ، واليافعي في مرآة الجنان ٧/٣ ، وابن تغري في النجوم ٢٣٤/٤ ، وأبو الفداء في المختصر ٤٩٢/١ .

([2]) ابن خلّكان : وفيات الأعيان ٢٦٩ . وانظر الخبر أيضاً عند الصفدي في الوافي بالوفيات ١٧٧/٣ ، وابن العماد في شذرات الذهب ٣١٠/٣ حيث يقول : "صاحب المصنّفات وأوحد وقته في فنّه".

([3]) القاضي عياض : ترتيب المدارك ٤٥/٧ ، وابن العماد : شذرات الذهب ٣١٠/٣ ، والذهبي : العبر ٢٠٧/٢ ، وابن فرحون : الديباج المذهّب ٣٦٣ .

وقد كان قاضي قضاة عضد الدولة هذا معتزلياَ، فعندما طلب منه فناخسرو يوماً، أن يحضر مجلسه سنيٌّ قائلاً: [١]"هذا المجلس عامر بالعلماء، إلاّ أني لا أرى فيه قاعداً من أهل الإثبات ــ يعني الحديث ــ ينصر مذهبه، قال له قاضيه: إنما هم عامة أصحاب تقليد ورواته يروون الخبر وضدّه، ويعتقدونهما جميعاً....وإنما أراد ذم القوم. ثم أقبل يمدح المعتزلة. فقال له عضد الدولة: محال أن يخلو مذهب ــ طَبْقَ الأرض ــ من ناصر له..... فلما عزم عليه، قال القاضي: أخْبَروني أن بالبصرة شيخاً وشاباً، الشيخ يعرف بأبي الحسن الباهلي والشاب يعرف بابن الباقلاني، فكتب الملك إلى عامله ليبعثهما إليه".

فلّما وصل القاضي الباقلاني إلى المجلس، وناظر المعتزلة، وأبدى قدرته العجيبة على الاحتجاج العقلي السليم، عرف عضد الدولة مكانته العلمية، فهيّأ له منزلاً مجهزاً بجميع ما يحتاج إليه ليسكنه، ولم يزل مُصَاحباً للملك معلّماً لابنه الصَّمْصام، حتى قدم بغداد.[٢]

ومن مناظراته أيضاً الدالة على مقدرته الفائقة في إفحام الخصم، مناظرة له مع أبي عبد الله بن مجاهد حول مسألة الاجتهاد، ذكرها ابن عساكر، حيث قال: [٣]"لّما قدم القاضي الإمام أبو بكر الأشعري بغداد، دعاه الشيخ أبو الحسن التميمي الحنبلي ــ رحمهما الله ــ إمامُ عصره في مذهبه، وشيخ مصره في رهطه، وحضر الشيخ أبو عبد الله بن مجاهد، والشيخ أبو الحسين محمد بن أحمد سَمْعُون، وأبو الحسن الفقيه، فجرت مسألة الاجتهاد بين القاضي أبي بكر وبين أبي عبد الله بن مجاهد، وتَعلّق الكلام بينهما إلى أن انفجر عمود الصبح، وظهر كلام القاضي عليه ــ رحمهما الله ــ".

وهو مع سعة علمه، وجلده على الحجاج، صبورٌ شديدُ التحّمل، مما ساعده على التطويل في مناظراته. يقول ابن خَلكّان: [٤]"كان كثير التطويل في المناظرة، مشهوراً بذلك عند الجماعة".

---

(١) القاضي عياض : ترتيب المدارك ٥٢/٧ بتصرّف .
(٢) انظر تفاصيل الخبر في ترتيب المدارك ٥٢/٧ .
(٣) ابن عساكر : تبيين كذب المفتري ٢١١ .
(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٢٦٩ .

ومما يدل على ذلك مناظرته مع أبي سعيد الهاروني حيث [1]"أطال القاضي أبو بكر فيها الكلام، ووسَّع في العبارة، وزاد في الإسهاب، وبالغ في الإيضاح والإطناب، ثم التفت إلى الحاضرين وقال: اشهدوا على أنه إن أعاد ما قلت لأغيّر الإيضاح، ولم أطالب بالجواب. فقال الهاروني: اشهدوا على أنه إن أعاد كلام نفسه سلّمت له ما قال".

وقد تناقلت كتب التراجم أيضاً مناظراته في مجلس ملك الروم، عندما كان مبعوثاً من قبل عضد الدولة. ومن مناظراته هناك مناظرتان جرتا حول المعجزة والإعجاز، حيث سأله ملك الروم مرّة حول معجزة انشقاق القمر قائلاً: [2]"هذا الذي تدّعونه في معجزات نبيكم من انشقاق القمر، كيف هو عندكم؟

قلت: هو صحيح عندنا، وانشقّ القمر على عهد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ حتى رأى الناس ذلك، وإنما رآه الحاضرون، ومن اتفق نظره إليه في تلك الحال.

فقال الملك: وكيف ولم يره جميع الناس؟

قلت: لأن الناس لم يكونوا على أُهْبَةٍ ووعد لشقوقه وحضوره.

فقال: وهذا القمر بينكم وبينه نسبة وقرابة، لأي شيء لم تعرفه الروم وغيرها من سائر الناس، وإنما رأيتموه أنتم خاصّة !

فقلت: فهذه المائدة بينكم وبينها نسبة، وأنتم رأيتموها دون اليهود والمجوس والبراهمة وأهلِ الإلحاد، وخاصة يونانَ جيرانَكم، فإنهم كلهم منكرون لهذا الشأن، وأنتم رأيتموها دون غيركم، فتحير الملك وقال في كلامه: سبحان الله !"

فَتَأَمَّلْ هذه المقدرة العجيبة على إفحام الخصم بقياسه الأمور أشباهها واستحضار المسلّمات التي لا يمكن للخصم إنكارها كي يقرّ برأيه.

---

[1] اليافعي : مرآة الجنان ٦/٣ . وانظر الخبر أيضاً عند الصفدي : الوافي بالوفيات ١٧٧/٣ ، والموسوي : روضات الجنات ٣٤٣/٧ .

[2] القاضي عياض : ترتيب المدارك ٦٣/٧ .

وتأمل أيضاً هدوءه واتزانه في إيصال الملك الرومي إلى الحقيقة التي يريد حول المسيح ــ عليه السلام ــ ومعجزته حيث قال: ([1])"ثم سألني الملك في مجلسٍ ثانٍ فقال: ما تقولون في المسيح عيسى ابن مريم ــ عليه السّلام ــ؟

قلت: روح الله، وكلمته وعبده ونبيّه ورسوله، ﴿كَمَثَلِ آدمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُون﴾ [آل عمران٥٩] وتلوت عليه النّص......

وقال: يا مسلم، العبدُ يَخْلُقُ، ويحيي، ويبرئ الأكمه والأبرص؟

قلت: لا يقدر على ذلك، وإنما ذلك كلّه من فعل الله ــ تعالى ــ.

قال: وكيف يكون المسيح عبداً لله، وخلقاً من خلقه، وقد أتى بهذه الآيات، وفعل ذلك كلّه؟

قلت: معاذ الله ! ما أحيا المسيح الموتى، ولا أبرأ الأكمه والأبرص.

فتحيّر وقل صبره، وقال: يا مسلم، تنكر هذا مع اشتهاره في الخلق، وأخذ الناس له بالقبول؟

فقلت: ما قال أحد من أهل الفقه والمعرفة إن الأنبياء يفعلون المعجزات من ذاتهم، وإنما هو شيء يفعله الله ــ تعالى ــ على أيديهم، تصديقاً لهم، يجري مجرى الشهادة.

قال: قد حضر عندي جماعة من أولاد نبيكم، والمشهورين فيكم، وقال: إنّ ذلك في كتابكم.

قلت: أيها الملك، في كتابنا أن ذلك كلّه كان بإذن الله ــ تعالى ــ، وتلوت عليه منصوص القرآن في المسيح، وقلت: إنما فِعْلُ المسيحِ كلُّهُ بإذن الله وحده، لا شريك له، لا من ذات المسيح، ولو كان المسيح يحيي الموتى، ويبرئ الأكمه والأبرص ذاته وقوته، لجاز أن يقال إن موسى خرق البحر، وأخرج يده بيضاء من غير سوء من ذاته، وليست معجزات الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ من أفعالهم دون إرادة الخالق، فلما لم يجز هذا، لم يجــز أن تُسْنَدُ المعجزات التي ظهرت على يد المسيح".

([1]) القاضي عياض : ترتيب المدارك ٦٦/٧ .

من أجل هذا كلّه قال فيه ابن عساكر: ([1])"مَنْ سمع مناظرة القاضي أبي بكر لم يستلذ بعدها بسماع كلام أحد من المتكلّمين والفقهاء والخطباء والمترسلين ولا الأغاني أيضاً، من طيب كلامه وفصاحته وحسن نظامه وإشارته".

شيوخه

تتلمذ الباقلاني على كوكبة من العلماء الأفاضل، الذين كان لهم أثرٌ في صقل شخصيته العلمية، وبلورت معالمها.

وممن وقفت عليه منهم:

١. أبوبكر القطيعي، أحمد بن جعفر بن مالك (٣٦٨هـ).

٢. أبو محمد بن ماسي، عبدالله بن إبراهيم بن أيوب (٣٦٩هـ).

٣. أبو أحمد النيسابوري، الحسين بن علي بن يزيد (٣٤٩هـ).

وقد أخذ عنهم جميعاً الحديث، وقد نص على ذلك الخطيب البغدادي([2]).

١. أبو عبدالله بن مجاهد، محمد بن أحمد بن محمد بن يعقوب. وقد أخذ عنه الباقلاني الأصول والكلام وعلم النظر. وقد نص على ذلك الذهبي([3]).

٢. أبو الحسن الباهِلي (٣٧٠هـ)، وقد أخذ عنه أصول المذهب الأشعري. قال الباقلاني: ([4])"كنت أنا وأبو إسحاق الإسفراييني، وابن فَوْرَك معاً في درس الشيخ الباهلي، وكان يُدَرِّسُ لنا في كل جمعة مرّة واحدة، وكان منّا في حجاب، يرخي الستر بيننا وبينه كي لا نراه. وكان من شدة اشتغاله بالله مثلَ والهٍ أو مجنون، لم يكن يعرف مبلغ درسنا حتى نذكرّه ذلك، ولم يكن الباهِلي يحتجب عن هؤلاء الثلاثة فقط، بل كان يحتجب عن كل الناس، حتى عن الجارية التي كانت تخدمه.

([1]) ابن عساكر : تبيين كذب المفتري ٢١٩ . وانظر أيضاً اليافعي : مرآة الجنان ٧/٣ .
([2]) انظر تاريخ بغداد ٤٥٦/٢ ، وابن عساكر : تبيين كذب المفتري ٢١٧ .
([3]) انظر العبر في خبر من غبر ٢٠٧/٢ . وكذا عند ابن العماد : شذرات الذهب ٣١٠/٣ .
([4]) الباقلاني :إعجاز القرآن مقدمة التحقيق ١٩ . وانظر الخبر عند الذهبي : سير أعلام النبلاء ٣٠٤/١٦ .

وقد سأله تلاميذه في أول عهدهم به عن سبب إرساله الحجاب بينه وبينهم فقال: إنكم تَرَوْنَ السُّوقَة، وهم أهل الغفلة، فترَوْني بالعين التي تَرَوْن أولئك بها".

٣. أبو أحمد العسكري، الحسن بن عبدالله بن سعيد (٣٨٢هـ). وأستبق الكلام فأقول إنّ عبد الرؤوف مخلوف ذكر أن الباقلاني أخذ البلاغة والبيان عنه([١]). وقد ذكر محقّق كتاب العسكري: شرح ما يقع فيه التصحيف و التحريف أن الباقلاني قد روى الحديث عنه حيث قال: ([٢])"وقد روى عن أبي أحمد أبو عبد الرحمن السُّلَمّي الصوفي بخراسان بالإجازة، وكذلك القاضي أبو بكر بن الباقلاني المتكلّم بالعراق".

تلاميذه

قد تتلمذ عليه كوكبةٌ من العلماء المرموقين، أذكر منهم:

– أبوذَرٍّ الهَرَوِيّ (٤٣٤هـ).

وقد أخذ عنه أصول المذهب الأشعري. وكان التلميذ مُجلاًّ لأستاذه مقدراً له، حيث قال: ([٣])"كان سبب أخذي عن القاضي أبي بكر، ومعرفتي بقدره، أنيّ كنت مرّة ماشياً ببغداد مع أبي الحسن علي الدارَقُطْنِي، إذ لَقِينا شابّاً، فأقبل الشيخ أبو الحسن عليه، وعظّمه، ودعا له.

فقلت للشيخ: من هذا الذي تصنع به هذا؟

فقال لي: هو أبو بكر بن الطيّب، الذي نصر السّنّة، وقمع المعتزلة، وأثنى عليه.

قال أبو ذر: فاختلفت إليه، وأخذت عنه من يومئذ".

([١]) انظر كتابه : الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن ٨٦ .

([٢]) العسكري : شرح ما يقع فيه التصحيف و التحريف . مقدمة المحقق ١٢ .

([٣]) القاضي عياض : ترتيب المدارك ٤٦/٧ ، وورد الخبر أيضا عند محمد بن محمد مخلوف :شجرة النور الزكية ٩٣/١ حيث قال :"قيل لأبي ذرّ : من أين تمذهبت بمذهب مالك ، ورأي الأشعري مع أنك هروي ؟ فقال: قدمت بغداد ، وكنت ماشياً مع الدارقطني ، فَلَقِيَنَا أبوبكر بن الطيّب ، فلزمه الدارقطني بعدما قبّل وجهه وعينه ، فلما افترقا قلت : من هذا ؟ قال : هذا إمام المُسلمين ، والذاب عن الدين القاضي أبوبكر ، فمن ذلك الوقت ترددت عليه ، وتمذهبت بمذهبه ." .

- أبو عمران الفاسي.

وقد رحل إليه، وأخذ عنه علم الأصول والفقه. يقول أبو عمران: ([1])"رحلت إلى بغداد، وكنت قد تفقهت بالمغرب والأندلس عند أبي الحسن القابسي، وأبي محمد الأصيلي، وكانا عالمين بالأصول، فلما حضرت مجلس القاضي أبي بكر، ورأيت كلامه في الأصول والفقه مع المؤالف والمخالف، حقرت نفسي، وقلت: لا أعلم من العلم شيئاً، ورجعت عنده كالمبتدئ".

وقد أورد القاضي عياض، أيضاً، أسماء مجموعة من تلاميذه قائلاً: ([2])"وأخذ عنه جماعة لا تعد، ودرسوا عليه أصول الفقه والدّين وخرج منهم من الأئمة:

- أبو محمد، عبد الوهاب بن علي (٤٢٢ هـ)

- علي بن محمد الحربي

- أبو جعفر السمناني (٤٤٤ هـ)

- أبو عبد الله الأزْدي

- أبو طاهر الواعظ

- أبو عمر بن سعدى"

وقد ذكر أيضاً، القاضي عياض من تلاميذه:

- أبو محمد بن نصر. قائلاً ([3])"وتفقّه عنده القاضي أبو محمد بن نصر، وعلقّ عنه، وحكى في كتبه ما شاهد من مناظرته في الفقه بين يدي ولي العهد ببغداد للمخالفين".

وذكر الأسنوي من تلاميذه:

- ابن اللبّان الأصبهاني، القاضي أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن (٤٤٦ هـ). حيث قال: ([4])"أخذ الأصول عن الشيخ أبي بكر الباقلاني".

([1]) القاضي عياض : ترتيب المدارك ٤٧/٧ ، وقد ذكر تلمذة أبي عمران على الباقلاني أيضاً محمد بن محمد مخلوف : شجرة النور ٩٣/١ .

([2]) المرجع السابق نفسه ٤٦/٧ .

([3]) المرجع السابق نفسه ٤٧/٧ . وقد ذكر اسمه أيضاً محمد بن محمد مخلوف : شجرة النور ٩٣/١ .

([4]) الأسنوي : طبقات الشافعية ٥٤/١ .

ومن تلاميذه تلميذ كان له الباقلاني بمترلة المؤدب في بلاط الحاكم وهو:

- صمْصَام بن عضد الدولة.

يقول القاضي عياض: ([1])"دفع إليه الملك ابنه ليعلّمه مذهب أهل السنّة، وألف له التمهيد".

آثاره

لا بد لرجل اشتُهِرَ بغزارة تأليفه أن يترك لنا آثاراً عظيمة: قيّض الله لجزء منها محققيّن غُيُر على تراث أمتنا، أخرجوها لنا محققّة مطبوعة، وما زال جزءٌ آخر منها مخطوطاً، وبقي جزء مأسوف عليه منها، ضاع فيما ضاع من نفائس التواليف، وحفظت لنا كتب التراجم أسماء المؤلفات منه.

وهذا ثَبَتٌ بآثار الباقلاني:

١. الإبانة عن إبطال مذهب أهل الكفر والضلالة. ذكره القاضي عياض([2]) ومحمد ابن محمد مخلوف([3])، واختلف عنهما ابن كثير([4]) بأن سماه"شرح الإبانة".

٢. كشف الأسرار في الرد على الباطنّية. ذكره القاضي عياض([5])، وقال فيه الذهبي: ([6])"صنّف القاضي أبو بكر الباقلاني كتاب: كشف أسرار الباطنيّة فافتتحه ببطلان انتساهم إلى الإمام علي، وكذلك القاضي عبد الجبّار المعتزلي".

وقال فيه ابن كثير أيضاً: ([7])"ومن أحسنها كتابه في الرد على الباطنية الذي سمّاه كشف الأسرار وهتك الأستار".

([1]) القاضي عياض : ترتيب المدارك ٥٧/٧ .
([2]) انظر ترتيب المدارك ٧٠/٧ .
([3]) انظر شجرة النور ٩٣/١ .
([4]) انظر البداية والنهاية ٣٥٠/١١ .
([5]) القاضي عياض : ترتيب المدارك ٥٧/٧ .
([6]) الذهبي : سير أعلام النبلاء ٢١٣/١٥ .
([7]) ابن كثير : البداية والنهايه ٣٥٠/١١ .

وقد نسبه إليه أيضاً إسماعيل باشا البغدادي[١]، وحاجي خليفة [٢].

٣. التمهيد في الرد على الملحدة المعطّلة والرافضة والخوارج والمعتزلة وهو كتاب مطبوع[٣]، واكتفى القاضي عياض[٤] بذكر الاسم الأول له"التمهيد" بينما ذكر ابن كثير عنواناً شرح فيه المضمون حيث سمّاه [٥]"التمهيد في أصول الفقه".

٤. مناقب الأئمة. ذكر الزِّركْلي أنه مخطوط[٦] وقد ذكر هذا الكتاب القاضي عياض[٧] وإسماعيل باشا البغدادي[٨]، وأضاف محمد بن محمد مخلوف: [٩]"ومناقب الأئمة كتاب حافل". أما حاجي خليفة فإنه فَصّل في وصفه قليلاً حيث قال: [١٠]"مناقب الأئمة للقاضي أبي بكر محمد ابن الطيّب بن محمد بن جعفر الباقلاني المالكي المتوفى سنة ٤٠٣ هـ، وهو كتاب حافل بَيّن فيه أن الصحابة كلهم مأجورون على ما شجر بينهم".

٥. هداية المسترشدين: ذكره القاضي عياض قائلاً: [١١]"الهداية: وهو كتاب كبير". وذكره أيضاً إسماعيل باشا البغدادي[١٢]، وحاجي خليفة [١٣]، والزركلي[١٤].

٦. الانتصار للقرآن: ذكره القاضي عياض[١٥]، ومحمد بن محمد مخلوف حيث قال: [١٦]"الانتصار للقرآن ومدار البحث فيه على إثبات إعجاز القرآن". واكتفى كلٌّ من إسماعيل باشا البغدادي وحاجي خليفة بذكر الاسم الأول له دون شبه الجملة[١٧].

---

[١] انظر هدية العارفين ٧٩/٢ .حيث سماه "كشف أسرار الباطنية" .

[٢] انظر كشف الظنون ٤١١/٢ . وانظر أيضا خير الدين الزركلي : الأعلام ١٧٦/٦ .

[٣] طبع في مؤسسة الكتب الثقافية ببيروت سنة ١٩٩٣م .

[٤] انظر ترتيب المدارك ٧٠/٧ .

[٥] ابن كثير البداية والنهاية ٣٥٠/١١.

[٦] انظر الأعلام ١٧٦/٦ .

[٧] انظر ترتيب المدارك ٧٠/٧ .

[٨] انظر هدية العارفين ٥٩/٢ .

[٩] محمد بن محمد مخلوف : شجرة النور ٩٣/١ .

[١٠] حاجي خليفة : كشف الظنون ٦٧٥/٢ .

[١١] القاضي عياض : ترتيب المدارك ٧٠/٧ .

[١٢] انظر هدية العارفين ٥٩/٢ . حيث قال :"من تصانيفه....... هداية المسترشدين في الكلام " .

[١٣] انظر كشف الظنون ٨٢٤/٢ .

[١٤] انظر الأعلام ١٧٦/٦ .

[١٥] انظر ترتيب المدارك ٧٠/٧ .

[١٦] محمد بن محمد مخلوف : شجرة النور الزكية ٩٣/١ .

[١٧] انظر : هدية العارفين ٥٩/٢ . وكشف الظنون ١٨٨/١ .

٧. دقائق الكلام: كذا ورد العنوان عند القاضي عياض([1])، والزركلي([2])، أما ابن كثير فأورد عنواناً آخر له وهو"دقائق الحقائق"([3])، واختلف عنهم محمد بن محمد مخلوف حيث أورد عنواناً آخر وهو:"حقائق الكلام"([4]).

٨. التبصرة: ذكره القاضي عياض([5])، وابن كثير([6]).

٩. الملل والنحل: ذكره إسماعيل باشا البغدادي([7])، وحاجي خليفة حيث قال: ([8])"الملل والنحل: صنّف فيها جماعة منهم القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣ هـ" والزركلي([9]).

١٠. الإنصاف فيما يجب اعتقاده، ولا يجوز الجهل به: وهو كتاب مطبوع([10])، حقّقه محمد زاهد ابن الحسن الكوثري، وقال في مقدمة التحقيق في وصفه: ([11])"وهذا الكتاب من أبدع ما برز للوجود من آثار المتقدمين من المتكلّمين في التفنّن في التذليل على مباحثه". وقد ذكر هذا الكتاب الزركلي([12]).

١١. التقريب والإرشاد في أصول الفقه: ذكره القاضي عياض ثم قال: ([13])"كتاب كبير"، وكذا ورد العنوان عند محمد بن محمد مخلوف([14]).

([1]) انظر ترتيب المدارك ٧/٧٠ .
([2]) انظر الأعلام ٦/١٧٦ .
([3]) انظر البداية والنهاية ١١/٣٥٠ .
([4]) انظر شجرة النور الزكية ١/٩٣ .
([5]) القاضي عياض : ترتيب المدارك٧/٧٠.
([6]) انظر البداية والنهاية ١١/٣٥٠ .
([7]) انظر هدية العارفين ٢/٥٩ .
([8]) حاجي خليفة : كشف الظنون ٢/٦٦٠ .
([9]) انظر الأعلام ٦/١٧٦ .
([10]) طبع في المكتبة الأزهرية بالقاهرة سنة ١٩٩٣م . وطبع طبعات آخر في مطبعة الخانجي لنفس المحقق .
([11]) الباقلاني : الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به ، ٦ .
([12]) انظر الأعلام ٦/١٧٦ .
([13]) القاضي عياض : ترتيب المدارك ٧/٧٠ .
([14]) انظر شجرة النور الزكية ١/٩٣ .

١٢. التقريب والإرشاد"الصغير": وهو كتاب مطبوع([1])، حققه عبد الحميد بن علي أبو زنيد. وقد ذكره القاضي عياض حيث قال: ([2])"مختصر التقريب والإرشاد الأصغر، وله الأوسط –ولم أره".

١٣. شرح اللمع.

١٤. أمالي إجماع أهل المدينة.

١٥. الإمامة الكبيرة.

١٦. الإمامة الصغيرة.

١٧. المقدمات في أصول الديانات.

١٨. المقنع في أصول الفقه:

وقد ذكر هذه المؤلفات الست الأخيرة كلٌّ مَنْ القاضي عياض([3])، ومحمد بن محمد مخلوف([4]).

١٩. تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، وهو كتاب مطبوع([5])، وحققه محمود محمّد الخضيري ومحمد عبد الهادي أبو ريده، ذكره الزركلي بعنوان مختلف حيث قال: ([6])"تمهيد الدلائل".

٢٠. البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات. وهو كتاب مطبوع([7])، حققه الأب رتشارد يوسف مكارثي اليسوعي. وقد ذكره الزركلي([8]).

٢١. نكت الانتصار لنقل القرآن. وهو كتاب مطبوع([9])، حقّقه محمد زُغْلول سلاّم.

([1]) طبع في مؤسسة الرَسالة في لبنان سنة ١٩٩٣م .
([2]) القاضي عياض. : ترتيب المدارك ٧/٧٠
([3]) انظر : ترتيب المدارك ٧/٧٠
([4]) انظر شجرة النور الزكية ١/٩٣ .
([5]) طبع في دار الفكر العربي في القاهرة سنة ١٩٤٧م .
([6]) الزركلي : الأعلام ٦/١٧٦ .
([7]) طبع في المكتبة الشرقية في بيروت سنة ١٩٥٨م .
([8]) انظر الأعلام ٦/١٧٦ .
([9]) طبع في منشأة المعارف في الإسكندرية سنة ١٩٧١م .

وقد انفرد القاضي عياض في" ترتيب المدارك"([1]) بذكر مجموعة من مؤلفات الباقلاني. وقد ذكر أنه نقل معظمها من خط شيخه أبي علي الصدفي، وأذكر بعضاً منها:

١. الاستشهاد.

٢. الكفّار المتأولين وحكم الدار.

٣. التعديل والتجريح.

٤. شرح أدب الجدل.

٥. الأصول الكبير في الفقه.

وغيرها، وقد بلغت نحو الثلاثين، وأظنها في جملتها رسائل قصاراً.

وذكر القاضي عياض([2]) أيضاً أنه وقف على كتب لم يجدها بخط الشيخ أبي علي الصدفي. وهي:

– البيان عن فرائض الدين وشرائع الإسلام ووصف ما يلزم من جرت عليه الأقلام مِنْ معرفة الأحكام.

– رسالة الحُرّة([3]).

– رسالة الأمير.

– إمامة بني العبّاس.

ومسك ختام الثبت مدار بحثنا كتاب:

– إعجاز القرآن، وقد ذكره القاضي عياض([4]) وإسماعيل باشا البغدادي([5])، والزركلي([6]) وقد قال فيه السيوطي نقلاً عن ابن العربي: ([7])"ولم يصنّف مثل كتابه". وقرّظه سيد أحمد صقر في

([1]) انظره ٧٠/٧ .
([2]) انظر : ترتيب المدارك ٧٠/٧ .
([3]) ذكر سيد أحمد صقر أن رسالة الحرّة هو الإنْصاف . انظر الباقلاني : إعجاز القرآن مقدمة التحقيق ٤٥ .
([4]) انظر : ترتيب المدارك ٧٠/٧ .
([5]) انظر : هدية العارفين ٥٩/٢ .
([6]) انظر : الأعلام ١٧٦/٦ .
([7]) السيوطي : الإتقان في علوم القرآن ٣/٤ .

مقدمة تحقيق له قائلاً: ([1])"وهو أول كتب الباقلاني نشراً، وأشهرها ذكراً، وهو أعظم كتاب ألّف في الإعجاز إلى اليوم".

آراء العلماء فيه

لا بد أن يكون لكل عالم جليل مؤيدون، سَلِمت نفوسهم من أمراض الحقد والغيرة والضغينة، يُجِلّونه ويعترفون بفضله ويقدّرون علمه، شاهدين له شهادة حق.

وفي المقابل تظهر فئة المعارضين، الذين عجزوا عن الوصول إلى مرتبته العلمية، فأخذوا ينقصون الرجلَ قدرَهُ لعلّهم يصلون إليه.

فلذلك نجد آراء العلماء في الباقلاني تقف عند طرفي نقيض بين مؤيد أعطاه حقه، ومعارض نقصه إيّاه.

فمن آراء العلماء المؤيدين له:

١. رأي للخطيب البغدادي: حيث قال: ([2])"كان أبو محمد اليافي يقول: لو أَوْصى رجلٌ بثلث ماله أن يُدْفَعَ إلى أفصح الناس لوجب أن يُدْفَعَ لأبي بكر الأشعري".

وقد نقل الخطيب البغدادي في تاريخه قصيدة مَدْحٍ للسكري في الباقلاني حيث قال: ([3])"أنشدني أبو عبدالله محمد بن علي بن دالان قال: أنشدني أبو الحسن علي بن عيسى السكري لنفسه، يمدح القاضي أبا بكر محمد بن الطيب من قصيدة........

فَكَأَنَّهــا مِــنْ حيــثُ مــا قابلتَهــا ... شِــيَمُ الإمــام مُحَمَّــد بــنِ الطيّــبِ
اليَعْرُبِــــيُّ فَصَاحَـــــةً وبَلاغَـــــةً ... والأشْـــعَرِيُّ إذا اعتَـــزَى للمـــذهَبِ
قاضٍ إذا التبسَ القضــاءُ علــى الحِجــى ... كشَــفَتْ لــهُ الآراءُ كَــلَّ مُغَيِّــبِ
لا يســـتريحُ إذا الشـــكوكُ تَخَالَجَـــتْ ... إلاَّ إلى لُـــبٍّ كـــريمِ المَنْصِـــبِ

([1]) الباقلاني : إعجاز القرآن . مقدمة التحقيق ٦٧ .
([2]) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ٤٥٦/٢ ، وانظر الخبر نفسه عند ابن عساكر : تبيين كذب المفتري ٢٢٠ .
([3]) المرجع السابق نفسه ٤٥٧/٢ .

مَــازالَ يَنْصُــرُ ديــنَ أحمــدَ صــادعاً — بــالحَقِّ يَهْــدي للطريــقِ الأصــوبِ
والنـــاسُ بَــيْنَ مُضَــلِّلٍ ومُضَــلَّلٍ — ومُكَــذِّبٍ فيمــا أتــى ومُكَــذِّبِ"

ولم يكن تقدير العلماء له يقتصر على مكانته العلمية، فقد ورد في أخباره ما يشير إلى اعترافهم بصحة دينه، وصدقه، فهذا الخطيب البغدادي، أيضاً، ينقل لنا ما حدثه به عبد الصمد بن سلامة المقرئ، عن القاضي أبي عبدالله محمّد بن عبدالله البيضاوي، فيما يشير إلى مكانته الدينية، وطهره وورعه، حيث قال: ([1])"رأيت في المنام كأني دخلت مسجدي الذي أدرس فيه، فرأيت رجلاً جالساً في المحراب وآخر يقرأ عليه، ويتلو تلاوة لا شيء أَحْسَنُ منها.

فقلت: من هذا القارئ، ومن الذي يقرأ عليه؟

فقيل لي: أما الجالس في المحراب فهو رسول الله ــ صلى الله عليه وسلّم ــ، وأما القارئ عليه فهو أبو بكر الأشعري يدرس عليه الشريعة".

٢. رأي للقاضي عياض: حيث نقل آراء متفرقة للعلماء فيه منهم:

ابن عمّار المَيُورْقي الذي قال: ([2])"كان حصناً من حصون المسلمين، وما سُرّ أهل البدع بشيء مثل سرورهم بموته".

وابن عمران الفاسي الذي قال: ([3])"كان سّيد أهل السنة في زمانه، وإمام متكلمي أهل الحق في وقتنا".

وأبو الحسن بن جهضم الهمداني، الذي قال:([4])" كان شيخ المالكيين في وقته، وعالم عصره، المرجوعَ إليه فيما أشكل على غيره".

٣. رأي لابن عساكر: حيث قال: ([5])"كان أبو الحسن التميمي الحنبلي يقول لأصحابه: تمسكوا بهذا الرجل، فليس للسنة عليه غنى أبداً".

([1]) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ٢/٤٥٦ .
([2]) القاضي عياض : ترتيب المدارك ٧/٤٥ .
([3]) المصدر السابق نفسه ٧/٤٥ .
([4]) المصدر السابق نفسه ٧/٤٥ .
([5]) ابن عساكر : تبيين كذب المتري ٢٢١ .

ومن آراء العلماء المعارضين له:

١. رأي لأبي حيّان التوحيدي: حيث ذكر في كتابه الإمتاع والمؤانسة أن الوزير أبا عبد الله العارض قد سأله عن الباقلاني قائلاً: ([1])"فما تقول في ابن الباقلاني؟

قلت:

فمـــا شَـــرُّ الثّلاثـــةِ أمَّ عَمْـــرو   بِصَـــاحِبِك الـــذي لا تَصْـــبَحِينا

يزعم أنه ينصر السّنة، و يُفحم المعتزلة، وينشر الرواية، وهو في أضعاف ذلك على مذهب الخُرَّميّة، وطرائق الملحدة.

قال: والله إن هذا لمن المصائب الكبار والمحن الغلاظ، والأمراض التي ليس لها علاج".

وقد ردّ سيد أحمد صقر زعمه في مقدمة تحقيقه لكتاب إعجاز القرآن للباقلاني حيث قال: ([2])"ولست أدري كيف يكون الباقلاني على مذهب هؤلاء الخرّمية، ويَخْفى أمرُه على أعدائه المتربصين به، وعلى أوليائه الملتفّين حوله، ولا يظهر إلاّ لأبي حيّان وحده ! فيتفردّ بتسجيله عليه ! ثم لا ينقله عنه ناقل، ولا ينبزه به نابز ! إنّ في ذلك لآية على إفكه، ودليلاً على اختلافه عليه، وعداوته له".

٢. رأي لابن حزم الظاهري: حيث نسب إليه في كتابه:"الفصل في الملل والأهواء والنحل". آراء وأقوال لم تصدر عنه، ولا يؤكدها شاهد تاريخي، ونجده قد أجاز لنفسه أن يكفرّه ويخرجه عن دين الإسلام في أكثر من موضع من كتابه هذا، منها مثلاً ما زعمه ابن حزم من أن الباقلاني قد اعتقد أنه ([3])"جائز أن يكون في الناس من هو أفضل من رسول الله ــ صلى الله عليه وسلّم ــ من حيث بُعثَ بالنبوة إلى أن مات. قال أبو محمد: وهذا كفر مجرّد، ورِدّة صحيحة، وخروج عن دين الإسلام بلا مِرْيَة، وتكذيب لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلّم ــ في إخباره".

([1]) أبو حيّان التوحيدي : الإمتاع والمؤانسة ١٤٣/١ .
([2]) الباقلاني : إعجاز القرآن . مقدمة التحقيق ٥٥ .
([3]) ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ١٨٦/٤ .

ثم هل يُعْقل أن يكون القاضي الباقلاني الذي اشتهر بورعه وتقواه، قد قال في التحدي والمعجزة هذا الذي ينسبه إليه ابن حزم وكتابه"إعجاز القرآن" بين أيدينا يشهد له بذلك؟!

يقول ابن حزم في ذلك: ([1])"وقال هذا الباقلاني: لا فرق بين النبي والساحر الكذاب المتنبئ فيما يأتيان به إلاّ التحدي فقط، وهو قول النبي لمن بحضرته: هاتِ من يعمل كعملي، وهذا إبطال للنبّوة مجرّد".

وهو لا يكتفي بهذا فنراه يدعي على الرجل في موضع آخر قائلاً:([2])"وقال الباقلاني في كتابه المعروف بالانتصار في القرآن في باب مترجم"باب الدلالة على أن القرآن معجزة للنبي ــ صلى الله عليه وسلّم ــ" وذكر سؤال الملحدين عن الدليل على صحة ما ادعاه المسلمون من أن القرآن معجز، فقال الباقلاني: يقال لهم: أما معنى وصف القرآن وغَيرِه من آيات الرسول ــ صلى الله عليه وسلّم ــ بأنه معجز فإنما معناه أنه مما لا يقدر العباد عليه، وإن لم يكونوا عاجزين على الحقيقة، وإنما صار وصف القرآن وغيره من آيات الرسل ــ عليهم السّلام ــ كعصا موسى، وخروج الناقة من الصخرة، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، بأنه معجز، وإن لم يتعلّق به عجز عاجز على وجه التشبيه بما يعجز عنه العاجز من الأمور التي يصحّ عجزهم عنها، وقدرهم عليها، لأنهم لّما لم يقدروا على معارضات آيات الرسل عَبَّرَ عن عدم قدرهم على ذلك بالعجز عنه تشبيهاً بالمعجوز عنه..........قال الباقلاني: ومما يدل على أن العرب لا يجوز أن تعجز عن مثل القرآن أنه قد صحّ وثبت أن العجز لا يكون عجزاً إلا عن موجود، فلو كانوا على هذا الأصل عاجزين عن مثل القرآن، وعصا موسى، وإحياء الموتى، وخلق الأجسام والأسماع والأبصار، وكشف البؤس والعاهات، لوجب أن يكون ذلك المثل موجوداً منهم، كما كانوا قادرين على ذلك لوجب أن يكون ذلك منهم، ولما لم يكن ذلك كذلك ثبت أنه لا يجوز عجز العباد على الحقيقة عن مثل القرآن مع عدمه منهم، وكونه غيرَ موجود لهم، ولا عن قلب عصا موسى حّية؟! ولا عن مثل ذلك. قال أبو محمد: أينتظر كفر بعد هذا الكفر في تصريحه أن العباد والعرب لا يجوز أن يعجزوا عن مثل القرآن، ولا عن قلب العصا حّية؟! ولا يغتر ضعيف بقوله: إنهم غير قادرين على ذلك، فإنما هو على قوله المعروف من أن الله لا يقدر على غير ما فعل وظهر منه فقط".

([1]) ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ٨٤/٥ .
([2]) المصدر السابق نفسه ٩٣/٥ .

فنراه قد نسب إليه القول بالصرفة، وهذا بعيد عنه حيث أنكرها في كتابه إعجاز القرآن قائلاً: ([1])"......فلّما لم يوجد في كلام مَن قبلَه مثله، علم أن ما ادعاه القائل"بالصرفة" ظاهر البطلان".

وأي شيء يشفع لابن حزم بأن يقذف الباقلاني، لمجرد كونه أشعرياً، فيكفّره، ويهدر دمَه، ويدعو إلى البراءة منه في الدنيا والآخرة، فهو يقول: ([2])"وهذا كلّه كفر مجرَّد، وشرك محض، وردة عن الإسلام، قاطعة للولاية، مبيحة دمَ من دان بها ومالَه، موجبة للبراءة منه في الدنيا ويوم يقوم الأشهاد".

وكلّ هذه الادعاءات التي يدعيها على الرجل جاءت دون دليل، بل نراه يدعي على الباقلاني هذا، وهو حُكْم يقال فيه هو، ونرد عليه به حيث يقول: ([3])"والعجب أن يأتي مثل هذه الدعاوي السخيفة دون دليل أصلاً، لكن حماقات وضلالات يطلقها هذا الجاهل وأمثاله من الفسّاق في دين الله تعالى".

وفـاته

تُوُفِّيَ الباقلاني في يوم السبت لسبع بقين من ذي القعدة سنة ثلاث وأربعمئة، دون خلاف. وقد ذَكَر ذلك الخطيب البغدادي([4])، وابن عساكر([5])، والقاضي عياض([6])، وغيرهم.

وقد ([7])"صلى عليه ابنه الحَسَن، ودفنه في داره بدرب المجوس من نهر طابق، ثم انتُقل بعد ذلك فَدُفِنَ في مقبرة باب حَرْب". وأضاف ابن عساكر: ([8])"ودفن في تربة بقرب قبر الإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل ـــ رضي الله عنه وأرضاه ـــ ومنقوش على علم عند رأس تربته ما هذه نسخته:"هذا قبر القاضي الإمام السعيد فخر الأمة، ولسان المّلة، وسيف السّنة عماد الدين ناصر

([1]) الباقلاني : إعجاز القرآن ٣٠.
([2]) ابن حزم : الفصل ٥/٤ .
([3]) المصدر السابق نفسه ١١٠/٥ .
([4]) انظر : تاريخ بغداد ٤٥٨/٢ .
([5]) انظر : تبيين كذب المفتري ٢٢٣ .
([6]) انظر : ترتيب المدارك ٥٠/٧ .
([7]) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ٤٥٨/٢ .
([8]) ابن عساكر : تبيين كذب المفتري ٢٢٣ .

الإسلام أبي بكر محمد بن الطيّب البصري ــ قدّس الله روحه، وألحقه بنبيّه محمد صلوات الله عليه وسلامه ــ ويزار ويستسقى ويتبرك به".

وأورد القاضي عياض حادثة حصلت لأبي الفضل عبدالله بن علي المقرئ الذي قال: (١)"سرت أنا وأبو علي بن شاذان، وأبو القاسم عبدالله بن أحمد بن عثمان الصيرفي، إلى قبر القاضي أبي بكر ــ بعد موته بشهر ــ لنترحم عليه، فرفعت مصحفاً كان على القبر، وقلت: اللهم بيّن لي في هذا المصحف حال القاضي أبي بكر، وما صار إليه، ثم فتحت المصحف فإذا فيه ﴿قال يا قومِ أرَأيْتُم إنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِن رَبّي وأتَانِي رَحْمَةً مِن عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُم﴾ [هود ٢٨]".

وقال ابن عساكر: (٢)"حضر الشيخ أبو الفضل التميمي يوم وفاته العزاء حافياً مع إخوته وأصحابه، وأمر أن ينادي بين يدي جنازته: هذا ناصر السنة والدين، هذا إمام المسلمين، هذا الذي كان يذب عن الشريعة ألسنة المخالفين، هذا الذي صنّف سبعين ألف ورقة رداً على الملحدين. وقعد للعزاء مع أصحابه ثلاثة أيام فلم يبرح، وكان يزور تربته كل يوم جمعة في الدار".

وقد ذكر ابن العماد رؤيا للطائي تشير إلى مكانته العالية عند الله ــ سبحانه وتعالى ــ بعد مماته، حيث قال: (٣)"قال الطائي: رأيته في النوم بعد موته وعليه ثياب حسنة في رياض خضرة نضرة، وسمعته يقرأ ﴿في عِيشَةٍ راضِيَةٍ، في جَنَّةٍ عَالِيَة﴾ [الحاقة ٢١، ٢٢]، ورأيت قبل ذلك حُسْنَ حالِهم، فقلت: من أين جئتم؟ فقالوا: من الجنة، من زيارة القاضي أبي بكر".

وقد رثاه بعض أهل العصر بقوله:

(٤)"انظرْ إلى جَبَلٍ تَمْشِي الرجـــالُ بِــهِ	وانظرْ إلى القبرِ ما يَحْــوِي مِــنَ الصَّــلَفِ
وانظـــرْ إلى صَـــارِمِ الإســـلامِ مُنْغَمِـــداً	وانظـــرْ إلى دُرَّةِ الإســـلامِ في الصَّـــدَفِ"

رحمه الله

---

(١) القاضي عياض : ترتيب المدارك ٥٠/٧ .
(٢) ابن عساكر: تبيين كذب المفتري ٢٢١ .
(٣) ابن العماد : شذرات الذهب ٣١١/٣ .
(٤) الصفدي : الوافي بالوفيات ١٧٧/٣ .

أما ترجمة ثانيهما فهي:

اسمه: عَبْدُ القاهِرِ بنِ عبدِ الرَّحمنِ

كذا ورد الاسم عند القفطي([1])، وابن العماد([2])، والذهبي([3])، والسُّبْكِي([4])، ومثل ذلك عند آخرين([5]).

وزاد الزِّرِكْلي، فذكر اسم جدّه، وهو مُحمّد([6]).

وكنيته: أبو بكر أيضاً، ولم يختلف من ترجموا له في ذلك([7]).

ونسبه: الجُرْجاني ([8])"بضم الجيم، وسكون الراء المُهْملة، والجيم والنون بعد الألف، هذه النسبة إلى بلدة جُرْجان".

ومن أشهر ألقابه التي لُقّب بها: الإمام النحوي المشهور. كذا ورد اللقب عند ابن الصلاح([9])، والموسوي([10])، وابن شاكر الكُتُبي([11])، والسيوطي([12])، وطاش كبري زاده([13]).

([1]) انظر : إنباه الرواة على أنباء النحاة ١٨٨ .
([2]) انظر : شذرات الذهب ٤/٣٤ .
([3]) انظر : العبر ٢/٣٣٠ ، وسير أعلام النبلاء ١٨/ ٤٣٣ .
([4]) انظر : طبقات الشافعية الكبرى ٣/١٤٨ .
([5]) هم ، محمد باقر الموسوي : روضات الجنّات ٥/٩٠
وطاش كبري زاده : مفتاح السعادة ومصباح السيادة ١/١٧٨ .
وابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٥/١٠٨ .
والباخَرْزي : دمية القصر ٢/١٢ . وآخرون ممن ترجموا له .
([6]) انظر الأعلام ، ولم يشر الزركلي إلى المصدر الذي استقى منه اسم جدّه .
([7]) انظر بالإضافة إلى ما تقدم ذكره من مصادر : الأسنوي : طبقات الشافعية ١/٥٤ ، وابن شاكر الكبتي : فوات الوفيات ٣٧٠ ، وابن الصّلاح : طبقات الفقهاء الشافعية ١/٧٨٢ ، والداودي : طبقات المفسرين ١/٣٣٧. والسيوطي : بغية الوعاة ٢/١٠٦ .
([8]) السِّمعاني : الأنساب ١/٤٠ .
([9]) انظر طبقات الفقهاء الشافعية ٧٨٢ .
([10]) انظر : روضات الجنّات ٥/٩٠ .
([11]) انظر : فوات الوفيات ٣٧٠ .
([12]) انظر : بغية الوعاة ٢/١٠٦ .
([13]) انظر : مفتاح السعادة ١/٢١٤ .

واكتفى كلٌّ من السُبْكيّ([1])، والداودي([2])، والأسنوي([3])، وابن العماد([4]) بلقب النحوي.

وانفرد كلٌّ من الذهبي([5])، وابن تَغْري بَرْدي([6]) بلقب شيخ العربية.

مولده ونشأته

ولم تذكر، أيضا، كتب التراجم السنة التي وُلِدَ فيها الجرجاني، ولكنَّ المترجمين أجمعوا على أنه عاش بجرجان، ولم يخرجْ عنها([7]).

غير أن القِفْطي انفرد بذكر أصله قائلاً: ([8])"فارسّي الأصل، جرجاني الدار".

ونحن أيضاً، لا نعرف عن أسرته شيئاً، فحالها تشبه حال أسرة الباقلاني في فقرها، ([9])"فهي لم تجد فضلة من المال تنفقها على ابنها، كي يستطيع أن يتنقل في البلاد ليأخذ العلم عن أعلامه".

تفكيره واعتقاده وملامح شخصيته

كان الجرجاني شافعياً أشعرياً، وقد ذكر هذا اليافعي([10])، وابن شاكر الكُتُبي([11])، والأسنوي([12])، والسبكي([13])، والذهبي حيث قال: ([14])"كان شافعياً عالماً أشعرياً، ذا نسك ودين".

([1]) انظر : طبقات الشافعية الكبرى ١٤٨/٣ .
([2]) انظر : طبقات المفسرين ٣٣٧/١ .
([3]) انظر: طبقات الشافعية ٥٤/١ .
([4]) انظر : شذرات الذهب ٣٣/٤ .
([5]) انظر : سير أعلام النبلاء ٤٣٣/١٨ .
([6]) انظر : النجوم الزاهرة ١٠٨/٥ .
([7]) انظر هنا الخبر عند ابن الأنباري : نزهة الألباء ٢٦٤ ، والسيوطي : بغية الوعاة ١٠٦/٢ ، والموسوي : روضات الجنات ٩٠/٥ ، وطاش كبري زادة : مفتاح السعادة ٢١٤/١ .
([8]) القفطي : إنباه الرواة على أنباه النحاة ١٨٨ .
([9]) أحمد أحمد بدوي : عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية ٥ .
([10]) انظر : مرآة الجنان ٧٨/٣ . حيث قال :"الشافعي الأشعري" .
([11]) انظر : فوات الوفيات ٣٧٠ حيث قال :" كان شافعي المذهب ، أشعري الأصول ، مع دين وسكون ." .
([12]) انظر : طبقات الشافعية ٢٧٥/٢ . حيث قال :" كان شافعياً متكلماً على طريقة الأشعري " .
([13]) انظر : طبقات الشافعية الكبرى ١٤٨/٣ . حيث قال :" المتكلم على مذهب الأشعري الفقيه على مذهب الشافعي " .
([14]) الذهبي : سير أعلام النبلاء ٤٣٣/١٨ . وانظر أيضاً كتابه العبر ٣٣٠/٢ . والموسوي : روضات الجنات ٩٠/٥ . وابن العماد : شذرات الذهب ٣٣/٤ . والسيوطي : بغية الوعاة ١٠٦/٢ .

ويُجْمِعُ مَنْ ترجموا له على ورعه وتقواه وزهده في الدنيا وأهلها، يقول السِّلَفي: ([1])"كان وَرِعاً قانِعاً، دخل عليه لص، فأخذ ما وجد، وهو ينظر، وهو في الصلاة ما قطعها".

ولذلك نجد السبكي يقول فيه: ([2])"صار الإمام المشهور المقصود من جميع الجهات مع الدين المتين والورع والسكون".

وكان زهده في الدنيا بسببٍ من ورعه من جهة، وبسببٍ من ذمّه للزمان الذي كان يعيش فيه من جهة أخرى. فقد كان كثير الشكاية منه ومن أهله، كما يبدو ذلك من شعره، حيث يقول:

([3])" أيُّ وَقْتٍ هَذا الـــذي نَحْــنُ فيـــهِ   قَـــد دَجـــا بالقِيـــاسِ والتَّشْـــبيهِ
كُلَّمـــا ســـارت العقـــول لكـــي تقـــ   طـــع تِيهـــاً تَوغَّلَـــت فِـــي تِيـــهِ"

ثم نراه كارهاً للأساليب التي يتبعها غيره في التملّق للوصول لذوي السلطة والشأن، حيث يقول:

([4])"هـــذا زمـــانٌ لـــيسَ فيـــه   ســـوَى النَّذالـــةِ والجَهالَـــةْ
لَـــمْ يَـــرْقَ فيـــهِ صَـــاعِدٌ   إلاّ وَسُـــلَّمُهُ النَّذالَـــةْ"

فقد كانت عزة نفسه تمنعه من النفاق لتحقيق الكسب المادي، كما أن صدقَ إيمانه يجعله يَتَرَفَّعُ عن دنايا الدنيا ومتاعها الزائل، لذلك يقول في يأسه من الناس وذمّهم لِتَزَلُّفِهِم:

([5])"خَلَـــعَ النـــاسُ إهابـــاً   وتَبَـــدَّوا في إهـــابِ

([1]) الذهبي : سير أعلام النبلاء ٤٣٣/١٨ . كما ورد الخبر عند الداوودي : طبقات المفسرين ٣٣٦/١ ، وابن العماد : شذرات الذهب ٣٣/٤ ، والأسنوي : طبقات الشافعية ٢٧٥/٢ ، والسبكي : طبقات الشافعية الكبرى ١٤٨/٣ .
([2]) السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ١٤٨/٣، وانظر الخبر أيضاً عند الداوودي : طبقات المفسرين ٣٣٧/١ .
([3]) الباخرزي : دمية القصر وعُصْرَةُ أهل العصر ١٢/٢ ، وانظر أيضاً القفطي : إنباه الرواة ١٩٠ .
([4]) الباخرزي : دُمية القصر ١٣/٢ .
([5]) المرجع السابق نفسه ١٤/٢ .

وَأرى نَفْسِـــــي تَأبَـــــــى	غيــــــرَ مـــا كـــانَ ثِيَـــابي
إنَّ إتْرابـــــاً مِـــــنَ المـــا	لِ بلَثْـــــــمٍ للتـــُـــرابِ
لـــيسَ بالإقبـــالِ مـــا نيـــــ	ـلَ بتقبيـــــــلِ الكــــــلابِ
إن بـــــاغِي الـــرِّبحِ والخُســـــ	ـرانِ في بـــــاب وبــــــابِ
تاجـــــرٌ غــــير بصيــــرٍ	بمَقاديـــــرِ الحســـــابِ"

ولذلك فالقفطي يراه مُقَصِّراً في تصنيفه، ويردُّ الأمر إلى عدم راحته لأهل زمانه رعاة ورعيّة، حيث يقول: (١)"وأشعاره كثيرة في ذم الزمان وأهله. وكان هذا الأمر هو السببَ في تقصيره إذا صَنَّفَ، إذ لم يجد راحةً ممن جمع لهم وألّف".

فلا عجب بعد ذلك أن يصفه بضيق العَطَن، منفرداً بهذه الصفة التي وصفه إياها عن دون من ترجم له، حيث يقول: (٢)"وكان ــ رحمه الله ــ ضّيق العطن لا يستوفي الكلام على ما يذكره مع قدرته على ذلك".

ولكنَّ المترجمين شهدوا له بالعلم والرياسة في علم النحو. يقول السلفي: (٣)"وسمعت أبا محمد الأَبيوَرْدِي يقول: ما مقلت عيني لغوياً، وأما في النحو فعبد القاهر".

وهذا الذهبي يقول: (٤)"كان آية في النحو"، ويقول ابن تغري بَرْدي: (٥)"كان إماماً بارعاً مُفَتَنّاً. انتهت إليه رياسة النحاة في زمانه".

وليس هذا فحسب فقد شهدوا له بالإمامة في العربية والبيان، يقول اليافعي: (٦)"وكلامه في علم المعاني والبيان يدل على جلالته وتحقيقه وديانته وتوفيقه".

---

(١) القفطي : إنباه الرواة ١٩٠/٢ .
(٢) المصدر السابق نفسه ١٨٩/٢ .
(٣) السُّبكي : طبقات الشافعية الكبرى ١٤٩/٣ ، وانظر الخبر نفسه عند الداوودي : طبقات المفسرين ٣٣٦/١. حيث قال: "وسمعت أبا محمد الأبيوردي يقول: ما مقلت عيني لغوياً مثله، وأما في النحو فعبد القاهر".
(٤) الذهبي : سير أعلام النبلاء ٤٣٣/١٨ .
(٥) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ١٠٨/٥ .
(٦) اليافعي : مرآة الجنان ١٨/٣ .

ويصرّح بها السيوطي قائلاً: ([1])"وكان من كبار أئمة العربية والبيان". وكذا كان رأي كلٍّ من الموسوي([2]) وطاش كبري زاده([3])، حيث أوردا الجملة ذاتها في وصف علمه ومكانته العلمية.

ولا بد لرجل بَرَعَ في علم النحو، وذاع صيته في علم البيان أن يكون صاحب عقليّة فذّة يحكمها ذكاء يقظ، وهذّبها ثقافة واسعة، يقول القفطي: ([4])"إنّ كلامه وغوصه على جواهر هذا النوع([5]) يدل على تبحرّه وكثرة اطلاعه".

شاعريته

إن العقلية الرياضيّة، والعبقرية الفذّة، اللتين تُرْجمتا معالجةً منطقّية لمسائل النحو والبيان، تشي بقدرات عالم تسيطر عليه منهجية علميّة، لم تمنع الجرجاني من التعبير عمّا يجول في خاطره شعراً صادقاً في المدح أحياناً، وفي الذم والهجاء أحايين، بحس مرهف، وشفافية أدبية.

فمن شعره في المدح، شعرٌ مدح به نظام الملك الحسن بن إسحاق، حيث قال:

([6])"لَـــوْ جـــاودَ الغيـــثُ غَـــداً ... بـــالجودِ منـــــهُ أجْـــدَرا
لَـــو مَـــسَّ عُـــوداً يابِســـاً ... أوْرَقَ ثُـــمَّ أثْمَـــرا"

وكأنه كان يرى في المدح الذي يحكمه الكسب الدنيوي نفاقاً، فيسارع في تحذير الممدوح من غضب أصيل جائع، أو طمع خبيث غير قانع. فنراه يقول:

([7])"لا تـــأمَنِ النَّفْثَـــةَ مِـــن شـــاعرٍ ... مَـــا دامَ حَيـــاًّ ســـالماً ناطقـــاً
فَـــإنَّ مَـــن يمدَحُكُـــم كاذبـــاً ... يُحْسِـــنُ أنْ يهجُـــوَكُم صـــادقاً"

([1]) السيوطي : بغية الوعاة ١٠٦/٢ .
([2]) انظر : روضات الجنات ٩/٥
([3]) انظر : مفتاح السعادة ١٧٨/١ .
([4]) القفطي : إنباه الرواة ١٨٩/٢ . لذلك نراه في موضع آخر من كتابه يقول فيه " عالم بالنحو والبلاغة" .
([5]) يقصد علم البيان .
([6]) القفطي : إنباه الرواة ١٨٩/٢ .
([7]) الكتبي : فوات الوفيات ٣٧٠ .

ولكنَّ شعره في الهجاء أحياناً تقنّع بثوب الحكمة والموعظة للغير، فنراه يقول:

([1])"تَذَلَّلْ لِمَـــنْ إذا تَـــذَلَّلْتَ لَـــــهْ	يَـــرى ذاكَ للفضـــلِ لا للبَـــلَـــــهْ
وَجَانِـــبْ صَـــداقَةَ مَـــنْ لا يَـــزالُ	عَلـــى الأصـــدقاءِ يَـــرى الفضـــلَ لـــهْ"

ونراه أحياناً أخرى في هجائه يميل إلى المُزاح وخفة الظلّ، ففي أسفه على زمانه الذي افتقر إلى اهتمام أهله بالعلم، وتقديرهم العلماء، يقول:

([2])"كَبِّـــرْ عَلـــى العلـــمِ يـــا خَليلـــي	ومِـــلْ إلى الجهـــلِ ميـــلَ هـــائمْ
وعِـــشْ حِمـــاراً تَعِـــشْ ســـعيداً	فالسَّـــــعْدُ في طـــالِعِ البَهـــائِمْ"

ولكنَّ هجاءَه كان في معظمه هجاءً لاذعاً صريحاً، حيث يقول في الممدوحين بغير ما فيهم:

([3])"لا يُوحِشَـــنَّكَ أنَّهُـــم مـــا ارتـــاحوا	مِـــمّا جـــلاهُ عَلَـــيْهِم المـــدّاحُ
فَهُـــمْ كَقَـــوْمٍ علّقـــت بإزائِهِـــم	بِـــيضُ المَرائـــي والوجـــوهُ قِبـــاحُ"

وقد شهد له الباخرزي بابتكاره وقدرته على خلق المعاني الجديدة التي لم يسبقه إليها أحد، فنراه يقول في هذين البيتين: ([4])"هذا معنى لم ينجب بمثله فكر، وعِندي والضمان على الدلالة أنه بِكر".

([1]) الموسوي : روضات الجنّات ٥/ ٩٠ .
([2]) الكتبي : فوات الوفيات ٣٧٠ ، والسبكي : طبقات الشافعية الكبرى ٣/ ١٤٩ ، والسيوطي : بغية الوعاة ٢/ ١٠٦ ، وابن العماد : شذرات الذهب ٤/ ٣٤ ، والداوودي : طبقات المفسرين ١/ ٣٣٧ .
([3]) الباخرزي : دمية القصر ٢/ ١٣ .
([4]) المرجع السابق نفسه ٢/ ١٣ .

شيوخه

أجمع من ترجم لعبد القاهر الجرجاني أن له شيخاً واحداً هو أبو الحسين، محمد بن الحسن الفارسي (٤٢١ هـ)، ابن أخت الشيخ أبي علي الفارسي، حيث أخذ عنه النحو بجرجان. أورد ذلك ابن الأنباري([1]) والذهبي([2]) والسبكي([3]) وابن العماد([4]).

وقد ذكر ابن الأنباري السبب في ذلك قائلاً: ([5])"أخذ عن أبي الحسين محمد بن الحسن بن محمد بن عبد الوارث، وكان يحكي عنه كثيراً، لأنه لم يلقَ شيخاً مشهوراً في علم العربية غيره، لأنه لم يخرج من جرجان لطلب العلم، وإنما طرأ عليه أبو الحسين، فقرأ عليه".

ولكنّ الموسوي في"روضات الجنّات"، وبعد أن ذكر أخْذَهُ عن أبي الحسين الفارسي وعدم أخذه عن غيره، نقلاً عن السيوطي، يعودُ فيجعَلُ لعبد القاهر الجرجاني شيخين آخرين في النحو، حيث يقول: ([6])"قد اطلع على شيخين آخرين له في قراءة النحو وغيره، أحدهما هو ابن جني المشهور.......، والثاني هو الصاحب بن عبّاد الوزير".

وأظنُّ هنا أن الموسوي قد أخطأ، فالراجح عندي أن الجرجاني قد أفاد من علمهما بقراءته كتبهما فقط، ولي في ذلك حجج ثلاث:

أولها: أن القفطي قال عنه إنه ([7])"قرأ ونظر في تصانيف النحاة والأدباء".

وثانيها: إجماع من ترجم له، عدا الموسوي، على أنه لم يكن له أستاذ سوى أبي الحسين محمد ابن الحسن الفارسي.

([1]) انظر : نزهة الألباء ٢٦٥ .
([2]) انظر : سير أعلام النبلاء ٤٣٣/١٨ .
([3]) انظر : طبقات الشافعية الكبرى ١٤٨/٣ .
([4]) انظر : شذرات الذهب ٣٣/٤ . وأورد الخبر أيضاً الداوودي : طبقات المفسرين ٣٣٧/١ . والموسوي : روضات الجنات ٩٠/٥ . والسيوطي : بغية الوعاة ١٠٦/٢ . وغيرهم .
([5]) ابن الأنباري : نزهة الألباء ٢٦٤ . وذكر السبب أيضاً القفطي : إنباه الرواة ١٨٨/٢ . والسيوطي : بغية الوعاة ١٠٦/٢ ، والموسوي : روضات الجنات ٩٠/٥ ، وطاش كبري زاده : مفتاح السعادة ١٧٨/١ .
([6]) الموسوي : روضات الجنّات ٩٠/٥ .
([7]) القفطي : إنباه الرواة ١٨٨/٢ .

وثالثها: ما ورد في ترجمة أبي علي الفارسي، وابن أخته: فلأبي علي الفارسي تلميذان هما ابن جني ومحمد بن الحسن الفارسي، وأن أبا علي الفارسي قد بعث ابن أخته إلى الصاحب بن عباد الذي ارتضاه وأكرم مثواه([1]). وهذا يؤكد أن ابن جني والصاحب بن عبّاد هما صديقان لشيخ الجرجاني وليسا شيخين له.

ونظرة في سنة وفاة كل منهما تكون بمثابة حجة رابعة، حيث توفي ابن جني سنة (٣٩٢ هـ)، وتوفي الصاحب بن عبّاد سنة (٣٨٥ هـ).

تلاميذه

على الرغم من أن الرجل قد أخذ عن عَلَمٍ أغناه بعلمه وسعة اطلاعه عن الأخذ عن غيره، إلاّ أنه تتلمذ عليه جماعة من العلماء، ذكرت لنا كتب التراجم أشهرهم. اذكر منهم:

١. الفصيحي النحوي، علي بن أبي زيد محمد بن علي، أبو الحسن الأستراباذي (٥١٦ هـ) وقد سميَّ الفصيحي لكثرة دراسته لكتاب الفصيح لثعلب، وقد أخذ عن الجرجاني النحو.

يقول القفطي: ([2])"ومن تلاميذه المذكورين الواردين إلى العراق والمتصدرين ببغداد علي بن زيد الفصيحي ــ رحمه الله ــ وقد تخرّج به جماعة كثيرة، واستفادوا منه ما استفاده من عبد القاهر".

٢. الخطيب التبريزي، يحيى بن علي بن محمد بن الحسن بن محمد بن موسى الشيباني، أبو زكريّا (٥٠٢ هـ).

يقول طاش كبري زاده: ([3])"كان أحد الأئمة في النحو واللغة والأدب، حجة صدوقاً ثبتاً أخذ عن عبد القاهر الجرجاني".

([1]) ولمزيد من التفاصيل حول ذلك انظر ترجمتهما في ياقوت الحموي : معجم الأدباء ١٨/١٨٦ .وطاش كبري زاده : مفتاح السعادة ١/١٧٠ و ١/١٧٧ .

([2]) القفطي : إنباه الرواة ٢/١٨٩ . وقد ذكر تتلمذه على عبد القاهر كل منْ ابن الأنباري : نزهة الألبّاء ٢٧٤ ، وابن العماد : شذرات الذهب ٤/٣٤ ، والموسوي : روضات الجنات ٥/٢٤٩ .وغيرهم.

([3]) طاش كبري زاده : مفتاح السعادة ١/٢١٨ .

٣. أحمد بن عبد الله المهابادي الضرير النحوي (٤٧١ هـ)، يقول الموسوي: ([1])"وله أيضاً تلامذة فضلاء ماهرون منهم الشيخ أحمد بن عبد الله المهابادي الضرير النحوي، الذي لـه شرح لمع ابن جني كما عن صاحب معجم الأدباء".

آثاره

صنّف الجرجاني التصانيف الجليلة في العربية والنحو والبيان، منها:

١. المغني في شرح الإيضاح لأبي علي الفارسي: نسبه إليه ابن الأنباري في نزهة الألبّاء وأضاف ([2])"وهو نحو من ثلاثين مجلّداً"، كما نسبه إليه ابن الصلاح([3])، والكتبي([4])، والذهبي([5])، والسُّبكي([6]).

٢. المقتصد في شرح الإيضاح وهو كتاب مطبوع([7])، حققه كاظم بحر المرجان وقد نسبه إليه ابن الأنباري قائلاً: ([8])"كتاب المقتصد في شرح الإيضاح نحو من ثلاثةَ مجلدات".

وقد نسبه إليه السبكي([9])، والكتبي([10])، والسيوطي([11]).

ويبدو أن هذا الكتاب لم يظفر بإعجاب القفطي الذي قال فيه: ([12])"وهو مقتصد من مثله على ما سمّاه، لم يأتِ في الإيضاح بشيء له مقدار، ولما تبرّع في التكملة لم يقصّر بنسبته إلى ما عهد منه، فلو شاء لأطال".

([1]) الموسوي : روضات الجنات ٩١/٥ .
([2]) ابن الأنباري : نزهة الألباء ٢٦٥ .
([3]) انظر : طبقات الفقهاء الشافعية ٧٨٢ .
([4]) انظر : فوات الوفيات ٣٧٠ .
([5]) انظر : سير أعلام النبلاء ٤٣٣/١٨ .
([6]) انظر : طبقات الشافعية الكبرى ١٤٩/٣ ،وقد ذكره أيضاً اليافعي : مرآة الجنان ٧٨/٣ ، السيوطي : بغية الوعاة ١٠٦/٢ ، وابن العماد : شذرات الذهب ٣٣/٤ ، وغيرهم .
([7]) طبع في دار الرشيد للنسر في العراق سنة ١٩٨٢ .
([8]) ابن الأنباري : نزهة الألبّاء ٢٦٥ .
([9]) انظر : طبقات الشافعية الكبرى ١٤٩/٣ .
([10]) انظر : فوات الوفيات ٣٧٠ .
([11]) انظر : بغية الوعاة ١٠٦/٢ ، وانظر أيضاً الداوودي : طبقات المفسرين ٣٣٧/١ ، والموسوي : روضات الجنات ٩٠/٥ وغيرهم .
([12]) القفطي : إنباه الرواة ١٨٨/٢ .

٣. الإيجاز: وهو مختصر الإيضاح، ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون، حيث قال: ([1])"وله مختصر الإيضاح المسمّى بالإعجاز، أوّله: الحمد لله الذي تظاهرت علينا آلاؤه".

٤. العوامل المئة: في النحو. وهو كتاب مطبوع([2])، حققه البدراوي زهران.

وقد نسبه إليه الكتبي([3])، والسبكي([4])، والذهبي([5]).

يقول حاجي خليفة: ([6])"العوامل المئة في النحو للشيخ عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني المتوفى سنة (٤٧١ هـ) وهو مشهور متداول".

٥. الجمل: كتاب في النحو مطبوع([7])، وقد حقّق مراراً. وقد ذكره ابن الأنباري([8])، والكتبي([9])، والسُّبكي([10])، والقفطي حيث قال: ([11])"وله شرح كتاب العوامل، سمّاه الجمل".

وأضاف الداوودي: ([12])"والجمل: المختصر المشهور".

ويقول حاجي خليفة في وصف هذا الكتاب: ([13])"الجمل في النحو: للشيخ عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، وهو مختصر يقال له الجرجانيّة أيضاً، على خمسة فصول: الأول في المقدمات، الثاني في عوامل الأفعال، الثالث في عوامل الحروف، الرابع في عوامل الأسماء، الخامس في أشياء مفردة. أولّه: الحمد لله حمد الشاكرين".

([1]) حاجي خليفة : كشف الظنون ٢١٤/١ .
([2]) طبع مع كتاب العوامل المئة لخالد الأزهري سنة ١٩٨٣ ، وغيرها .
([3]) انظر : فوات الوفيات ٣٧٠ .
([4]) انظر : طبقات الشافعية الكبرى ١٤٩/٣ .
([5]) انظر : سير أعلام النبلاء ٤٣٣/١٨ ، وانظر أيضاً الموسوي : روضات الجنات ٩٠/٥ ، والداوودي : طبقات المفسرين ٣٣٧/١ ، والسيوطي : بغية الوعاة ١٠٦/٢ ، وغيرهم .
([6]) حاجي خليفة : كشف الظنون ١٨٠/٢ .
([7]) طبع في دار الحكمة بدمشق سنة ١٩٧٢م ، بتحقيق : علي حيدر وبدار الكتب العلمية ببيروت سنة ١٩٩٠م تحقيق يسرى عبد الغني عبدالله .
([8]) انظر : نزهة الألبّاء ٢٦٥ .
([9]) انظر : فوات الوفيات ٣٧٠ .
([10]) انظر : طبقات الشافعية الكبرى ١٤٩/٣ ، وانظر أيضاً الذهبي : سير أعلام النبلاء ٤٣٣/١٨ ، والسيوطي : بغية الوعاة ١٠٦/٢ ، وطاش كبري زادة : مفتاح السعادة ١٧٨/١ .وغيرهم .
([11]) القفطي : إنباه الرواة ١٨٩/٢ .
([12]) الداوودي طبقات المفسرين ٣٣٧/١ .
([13]) حاجي خليفة : كشف الظنون ١ /٤٧٢ .

٦. التلخيص: وهو كتاب في شرح كتاب الجمل، وقد ذكره ابن الأنباري([١])، والسُّبكي([٢])، والداوودي([٣])، وابن العماد، دون أن يذكر اسمه قائلاً: ([٤])"صنّف كتباً كثيرة، فمن أشهرها: كتاب الجمل وشرحه".

ويصف لنا القفطي أسلوبه في تأليف هذا الكتاب قائلاً: ([٥])"ثم صنّف شرحه، فجرى على عادته في الإيجاز".

٧. العمدة في التصريف: ذكره الذّهبي([٦])، والكُتَبي([٧])، والسُّبكي([٨])، والسُّيوطي([٩]).

٨. شرح الفاتحة: ذكره السُّبكي([١٠])، والكُتَبي([١١])، وابنُ العماد([١٢])، وأضاف الأخيران أنه في مجلّد.

ويقول أحمد مطلوب في هذا الكتاب: ([١٣])"وقد يكون هذا الشرح تطبيقاً لنظريته في النظم أو لمنهجه في التفسير".

٩. المفتاح: ذكره الذهبي([١٤])، والكتبي([١٥])، والسُّبكي([١٦])، وابن العماد([١٧]). وهو كتاب مطبوع([١٨]).

([١]) أبو البركات الأنباري : نزهة الأنباء ٢٦٥ .
([٢]) طبقات الشافعية الكبرى ١٤٩/٣ .
([٣]) طبقات المفسرين ٣٣٧/١ .
([٤]) ابن العماد : شذرات الذهب ٣٣/٤ .
([٥]) القفطي : إنباه الرواة ١٨٩/٢ .
([٦]) انظر : سير أعلام النبلاء ٤٣٣/١٨ .
([٧]) انظر : فوات الوفيات ٣٧٠ .
([٨]) انظر الطبقات الشافعية الكبرى ١٤٩/٣ .
([٩]) انظر : بغية الوعاة ١٠٦/٢ .انظر أيضاً الموسوي : روضات الجنات ٩٠/٥ ، وطاش كبري زادة : مفتاح السعادة ١٧٨/١ ، وابن العماد : شذرات الذهب ٣٣/٤ ، وحاجي خليفة : كشف الظنون ١٧٢/٢ .
([١٠]) انظر : طبقات الشافعية الكبرى ١٤٩/٣ .
([١١]) انظر : فوات الوفيات ٣٧٠ .
([١٢]) انظر : شذرات الذهب ٣٣/٤ .
([١٣]) أحمد مطلوب : عبد القاهر الجرجاني ، بلاغته ونقده ٢٥ .
([١٤]) انظر : سير أعلام النبلاء ٤٣٣/١٨ .
([١٥]) انظر : فوات الوفيات ٣٧٠ .
([١٦]) انظر : طبقات الشافعية الكبرى ١٤٩/٣ .
([١٧]) انظر : شذرات الذهب ٣٣/٤ .
([١٨]) طبع في مؤسسة الرسالة سنة ١٩٨٧ .

١٠. إعجاز القرآن الكبير: ذكره ابن الأنباري([1])، وابن الصَلاح([2])، والكتبي([3])، وأضاف الذهبي: ([4])"وله إعجاز القرآن ضخم".

ويقول القفطي في وصف هذا الكتاب: ([5])"وله إعجاز القرآن، دلّ على معرفته بأصول البلاغات ومجاز الإيجاز".

وقد سمّاه حاجي خليفة: المعتضد، حيث قال: ([6])"إعجاز القرآن لأبي عبد الرحمن محمد بن زيد الواسطي، وشرحه الشيخ عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني شرحين: كبيراً وسمّاه المعتضد، وصغيراً" وقد ذكر الزركلي أنه مطبوع([7]).

١١. إعجاز القرآن الصغير: ذكره السبكي([8])، والسيوطي([9])، والموسوي([10])، والداوودي([11]).

١٢. الرسالة الشافية: وقد طبعت ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، بتحقيق محمد زغلول سلاّم ومحمد خلف الله[12].

يقول المحققان في تحليل هذه الرسالة: ([13])"تناول عبد القاهر في هذه الرسالة بعض نواحٍ من فكرة الإعجاز، أخصها إثبات الإعجاز عن طريق عجز العرب عن معارضة القرآن..... ثم يناقش في نهاية رسالته فكرة الصرفة، ويُفنِّد رأي القائلين بها..... وظاهر من نظام هذه الرسالة أن عبد القاهر كتبها ليثبت حقيقة الإعجاز لا ليبيّن أسراره".

([1]) انظر : نزهة الألباء ٢٦٥ .
([2]) انظر : طبقات الفقهاء الشافعية ٧٨٢ .
([3]) انظر : فوات الوفيات ٣٧٠ .
([4]) انظر : سير أعلام النبلاء ٤٣٣/١٨ .
([5]) القفطي إنباه الرواة ١٨٩/٢ .
([6]) حاجي خليفة : كشف الظنون ١٥١/١ .
([7]) انظر : الأعلام ٤٩/٤ .
([8]) انظر :طبقات الشافعية الكبرى ١٤٩/٣ .
([9]) انظر :بغية الوعاة ١٠٦/٢ .
([10]) انظر : روضات الجنات ٩٠/٥ .
([11]) انظر : طبقات المفسرين ٣٣٧/١ .
([12]) طبع في دار المعارف في مصر سنة ١٩٦٨ .
([13]) عبد القاهر الجرجاني : الرسالة الشافية (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) مقدمة التحقيق ١٧ .

١٣. أسرار البلاغة، وهو كتاب مطبوع([1])، بتحقيق محمد رشيد رضا، وقد نسبه إليه طاش كبري زادة([2])، وحاجي خليفة([3]).

١٤. دلائل الإعجاز: وهو كتاب مطبوع([4]) حقّقه محمود محمد شاكر.

وقد قَرَّظَ طاش كبري زاده هذا الكتاب، والكتاب الذي قبله قائلاً: ([5])"ومن جملة مصنفاته: دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، في علمي المعاني والبيان، وهما الآية الكبري واليد البيضاء في العلمين المذكورين، وإليهما ينتهي علم من تأخذ في ذينك العلمين".

آراء العلماء فيه

لم تقع يدي على علماء معارضين للجرجاني ذامين له، وكلّ الذين قد قرأت لهم كانوا من العلماء المجلّين له، المقدرين لعلمه.

فهذا الباخرزي (٤٦٧ هـ)، مثلاً، يقول فيه: ([6])"اتفقت على إمامته الألسنة وتجمّلت بمكانه وزمانه الأمكنة والأزمنة، وأثنى عليه طيب العناصر، وثُنِيَت به عقود الخناصر، فهو فرد في علمه الغزير، لا بل هو العَلَمُ الفردُ في الأئمة المشاهير".

ويصفه ابن الصلاح (٦٤٣ هـ) بعدة صفات حيث يقول: ([7])"المتكلّم، الفقيه، الورع، المصنَّف"، واصفاً بذلك علمه و دينه بصفات عامة، ينقصها التخصيص.

ويحدد الموسوي العلم الذي سطع فيه نجم الجرجاني فيقول: ([8])"الإمام عبد القاهر كان فاضلاً عارفاً بعلم البيان، له كتاب في إعجاز القرآن في غاية الحسن".

([1]) طبع في دار المعرفة بلبنان .
([2]) انظر : مفتاح السعادة ٢١٤/١ .
([3]) انظر كشف الظنون ١٢٤/١ .
([4]) طبع في مطبعة الخانجي بالقاهرة سنة ١٩٩٢ م .
([5]) طاش كبري زاده : مفتاح السعادة ١٧٨/١ .
([6]) الباخرزي : دُمية القصر ١٢/٢
([7]) ابن الصلاح : طبقات الفقهاء الشافعيّة ٧٨٢ .
([8]) الموسوي : روضات الجنات ٩١/٥ .

ثم إنّ الإمام فخر الدين الرازي (٦٠٦ هـ) يُفَصِّلُ في إيضاح فضل عبد القاهر في علم البيان، حيث يقول: ([1])"علم البيان الذي لولاه لم تَرَ لساناً يحرّك الوشي، ويصوغ الحلي، ويلفظ الدر، وينفث السحر...... فالناس كانوا مقصّرين في ضبط معاقده وفصوله، متخبطين في إتقان فروعه وأصوله، معتقدين فيه اعتقادات حائدة عن منهج الصواب والسّداد، زائغة عن طريق الحق والرشاد، ظانين أن كل من عرف أوضاع لغة من اللّغات، وقدر على استعمال بعض العبارات، فهو بالغ في تلك اللغة من البيان إلى ذرى أفلاكها، مالك لمباديها وغاياتها، واستمر الناس بهذا الوسواس إلى أن وفّق الله تعالى الإمام مجد الإسلام عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، تغمّده الله برحمته وأفاض عليه فنون مغفرته، حتى استخرج أصول هذا العلم وقوانينه، ورتب حججه وبراهينه، وبالغ في الكشف عن حقائقه، والفحص عن لطائفه ودقائقه، وصنّف في ذلك كتابين لقّب أحدهما بدلائل الإعجاز، والثاني بأسرار البلاغة، وجمع فيهما من القواعد الغريبة، والدقائق العجيبة، والوجوه العقلية، والشواهد النقلية، واللطائف الأدبية، والمباحث العربية ما لا يوجد في كلام من قبله من المتقدمين، ولم يصل إليها غيره أحد من العلماء الراسخين".

وقد شُهِدَ له بالإمامة في النحو، واعتبر مؤسس علم البيان، لذلك نرى العلوي اليمني (٧٤٩ هـ) يقول فيه: ([2])"وأول من أسس من هذا العلم قواعده، وأوضح براهينه، وأظهر فوائده، ورتّب أفانينه الشيخ العالم النحرير علم المحققين عبد القاهر الجرجاني....... وله من المصنفات فيه كتابان: أحدهما لقبه بدلائل الإعجاز، والآخر لقبه بأسرار البلاغة".

وليست شهادة طاش كبري زادة في العالم وعلمه بأقل مما سبق، فنراه يقول: ([3])"ومن أراد الوقوف في علم البلاغة على العجب العجاب، والتبحر في هذا الباب، فعليه بكتابي دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، كلاهما من مؤلفات الشيخ عبد القاهر الجرجاني، لازال من أن يتداركه اللطف السبحاني. وقيل: إنّ كتابيه في هذه الفنون بحران ينشعب منهما العيون".

([1]) فخرالدين الرازي : نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ٢٨ .
([2]) العلوي اليمني : الطراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، ٤/١ .
([3]) طاش كبري زادة : مفتاح السعادة ، ٢١٤/١ .

وفاته

توفي الشيخ عبد القاهر الجرجاني في جرجان سنة إحدى وسبعين وأربعمئة. يقول القفطي: ([1])"ولم يزل مُقيماً بجرجان يُفِيدُ الراحلين إليه، والوافدين عليه، إلى أن توفي في سنة إحدى وسبعين وأربعمئة".

كذا وردت سنة الوفاة عند كل الذين ترجموا له([2])، غير أن بعض المترجمين قد ذكروا ما قيل من احتمالية أن تكون وفاته في سنة أربع وسبعين وأربعمئة. منهم: الذهبي([3])، والداوودي([4])، والسيوطي([5])، واليافعي، حيث يقول: ([6])"وقيل إنه مات في سنة أربع وسبعين".

وعندي أن في"قيل" تشكيكاً في احتمالية صحة الخبر، خصوصاً أنهم جميعاً قد ذكروا سنة الوفاة الأولى.

رحمه الله

([1]) القفطي : إنباه الرواة ٢/١٨٩ .
([2]) انظر مثلاً ابن العماد : شذرات الذهب ٤/٣٣ ، وابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٥/١٠٨ ، وغيرهما .
([3]) انظر : سير أعلام النبلاء ١٨/٤٣٣ ، والعبر ٢/٣٣٠ .
([4]) انظر : طبقات المفسرين ١/٣٣٧ .
([5]) انظر : بغية الوعاة ٢/١٠٦ .
([6]) اليافعي : مرآة الجنان ٣/٧٨ .

الفصل الثاني

مذهب كل من
الباقلاني والجرجاني
في كتابيهما
إعجاز القران ودلائل الإعجاز
عرضاً وتتبعاً وشرحاً مؤتلفاً ومختلفاً



عَقِبَ هذا التطواف في ظاهرة الإعجاز تمهيداً، والتعريف بالرجلين ترجمةً، حقّت الموازنة بين مذهبيهما في كتابيهما: إعجاز القرآن ودلائل الإعجاز.

فلكلٍّ من الباقلاني والجرجاني مكانته في تاريخ دراسة ظاهرة الإعجاز، فقد شغل إعجاز القرآن حيِّزَ تفكيرهما، وعنيا بالبحث فيه عنايةً جعلتهما ينصرفان إلى دراسته والنظر فيه انصرافاً تامّاً.

ولذلك نجدهما قد قدّما له عصارة فكريهما، وتناولاه تناولاً جادّاً بطريقة تغاير ما كتبه السابقون، وبصورة تختلف عمّا مرّ بنا، فقد ألّفا في الموضوع كتابين مستقلين في الإعجاز، عالجا فيهما قضايا مهمة ضمن عنوانات ومفردات، مؤتلفة ومختلفة بينهما، لكنها استحوذت على عناية كثير ممن كتبوا في ظاهرة الإعجاز القرآني قبلُ وبعدُ.

وأنا الآن أقف عند مفرداتهما في الكتابين، المؤتلفة والمختلفة، بالعرض والتتبع والشرح على سبيل الموازنة في هذا الفصل، مُنوّهة بمنهجي في الدراسة هنا، فليس هدفي إطلاق القول بتفضيل أحدهما على الآخر إجمالاً. ولكنّي سأتتبع المفردة التي اشتركا في معالجتها، فأوازن بينهما، أيهما فاق الآخر في تناوله إيّاها، ثم اترك الحكم جملة للقارئ، منتفعة مما جاء من كلام الآمدي على الطائيين في موازنته.

وأبدأ الآن بالمؤتلف بينهما:

مقدمتا الكتابين

وسؤالي هنا: بِمَ استهلَّ كل واحد منهما مقدمة كتابه من أفكار ممهدة لموضوع البحث؟

والجواب: لقد قدّم كل منهما كتابه بفاتحة، أوضح فيها حال أهل زمانه وعدم اهتمامهم بالعلم، ثم ضرورة البحث في القرآن وإعجازه، بأسلوب يظهر سبب كتابته لكتابه والدافع لذلك والهدف منه، مصرّحَيْنِ بمنهجيهما في عرض محتويات الكتابين.

فهذا الباقلاني بعد أن حَمِدَ الله بما هو أهله على نعمة القرآن الذي كان بشيراً ونذيراً، وهادياً ومرشداً، ودليلاً على وحدانيته، وحجة لرسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ، يقول بضرورة البحث في القرآن، خصوصاً في زمانه، الذي يَسِمُهُ بأنه زمن جهل وصد عن دين الحق. فنراه يقول في هذا:[1] "ومن أهم ما يجب على دين الله كشفه، وأولى ما يلزم بحثه، ما كان لأصل دينهم قواماً ولقاعدة توحيدهم عماداً ونظاماً، وعلى صدق نبيهم، صلى الله عليه وسلّم، برهاناً، ولمعجزته ثَبْتاً وحجة، ولا سيما أن الجهل ممدود الرّواق، شديد النِّفاق، مستولٍ على الآفاق، والعلم إلى عفاء ودروس، وعلى خفاء وطموس ...... فالناس بين رجلين: ذاهب عن الحق، ذاهل عن الرّشد، وآخر مصدود عن نصرته، مكدود في صنعته........ فقد أدى ذلك إلى خوض الملحدين في أصول الدّين، وتشكيكهم أهل الضعف في كل يقين. وقد قل أنصاره، واشتغل عنه أعوانه، وأسلمه أهله. فصار عرضة لمن شاء أن يتعرض فيه".

فالباقلاني هنا متذمر من أهل زمانه عامةً بانصرافهم عن طلب العلم، وانشغالهم بسماع تفاهات أهل البدع الذاهبين عن الحق. ويمتد تذمّره هذا لينصب غضباً على أهل علم اللغة والكلام خاصة، حيث انشغلوا بالتصنيف بالجزء والطفرة، والغريب والبديع عن البحث والتفصيل في وجه إعجاز القرآن.

فنراه يقول في ذلك: [2]"وقد كان يجوز أن يقع ممن عمل الكتب النافعة في معاني القرآن[3]، وتكلّم في فوائده من أهل صنعة العربية وغيرهم من أهل صناعة الكلام، أن يبسطوا القول في الإبانة عن وجه معجزته، والدلالة على مكانه. فهو أحق بكثير مما صنفوا فيه من القول في الجزء والطفرة، ودقيق الكلام في الأعراض، وكثير من بديع الإعراب وغامض النحو، فالحاجة إلى هذا أمس، والاشتغال به أوجب".

وهو بسبب أمانته العلمية لا يغفل عن ذكر جهود العلماء ممن ألفوا في هذا الباب، مُصَرّحاً بقناعته من أن تصانيفهم جاءت غير مكتملة، مفتقرة إلى التهذيب والترتيب، ملتمساً لهم العذر، مع

(1) الباقلاني : إعجاز القرآن ٤ .
(2) المرجع السابق نفسه ٥ .
(3) ربما أراد بهذا التلميح التعريض بالواسطي خصوصاً ، وبمعاصريه عموماً ممن سبقوه في الحديث عن الإعجاز .

ذلك: ([1])"لأن هذا الباب مما لا يمكن إحكامه إلاّ بعد التقدّم في أمور شريفة المحل، عظيمة المقدار، دقيقة المسلك، لطيفة المأخذ".

ومن هنا وجد الباقلاني أن التأليف في إعجاز القرآن والبحث في وجهه أصبح ضرورة ملحّة، فأجاب سائلاً سأله تأليف كتابه هذا، ليذكر فيه: ([2])"جملةً من القول جامعةً، تُسْقط الشبهات، وتزيل الشكوك التي تعرض للجّهال، وتنتهي إلى ما يخطر لهم، ويَعْرِض لأفهامهم من الطعن في وجه المعجزة".

وهو بعد أن يبيّن سبب تأليف كتابه، يفصّل منهاجه فيه، مُنَوِّهاً إلى العنوانات التي يريد مناقشتها، والأفكار التي يوّد عرضها وتفصيلها. دون أن يعيد ما توّصل إليه من سبقه الحديث فيه، فيقول: ([3])"ونحن نبيّن ما سبق فيه البيان من غيرنا، ونشير إليه، ولا نبسط القول، لئلا يكون ما ألفناه مكرّراً ومَقُولاً، بل يكون مستفاداً من جهة هذا الباب خاصّة..... ونصف ما يجب وصفه من القول في تنزيل متصرفات الخطاب، وترتيب وجوه الكلام، وما تختلف فيه طرق البلاغة...... ثم ما اختلفت به مذاهب مستعمليه في فنون ما ينقسم إليه الكلام من شعر ورسائل وخطب...... وإن كانت هذه الوجوه الثلاثة أصولَ ما يَبِينُ فيه التفاصح، وتُقصَد فيه البلاغة..... لِيُعْرَفَ عظيمُ محلِّ القرآن، وليُعلمَ ارتفاعُه عن مواقع هذه الوجوه، وتجاوزه الحد الذي يصح أو يجوز أن يوازن بينه وبينها، أو يشتبه ذلك على متأمل".

ولقد شعر الباقلاني بتقصيره في تحديد وجه الإعجاز في القرآن، وتفصيل القول فيه. لأن هذا القرآن لا يزال ([4])"منطوياً على أسرار إعجازه التي هي آية الله فيه، والذي أدركناه من أسرار بلاغة القرآن، كالذي أدركناه من أسرار الكون والنفس والسماء والأرض، وكل ذلك لا يعدو أن يكون سطوراً أولى من قائمة كتاب كبير، وكل خطوة تنكشف بها آماد آماد، تجعل الإحساس بالعجز أقطع وأبهر".

([1]) الباقلاني إعجاز القرآن ٥ .
([2]) المصدر السابق نفسه ٦ .
([3]) المصدر السابق نفسه ٧ .
([4]) محمد محمد أبو موسى : الإعجاز البلاغي ١٥٨ .

فلذلك نراه يصرّح بعجزه عن بيانه من تفصيل القول في إعجاز القرآن، حيث يقول: ([1])"ولسنا نزعم أنه يمكننا أن نبيّن ما رُمْنا بَيانه، وأوردنا شرحه وتفصيله، لمن كان عن معرفة الأدب ذاهباً، وعن وجه اللسان غافلاً، لأن ذلك مما لا سبيل إليه، وإلا أن يكون الناظر فيما نعرض عليه مما قصدنا إليه من أهل صناعة العربية، قد وقف على جُمَلٍ من محاسن الكلام ومتصرفاته".

أما الجرجاني، فكأنّه قدّم لكتابه بمقدمتين: الأولى منهما هي "المدخل في دلائل الإعجاز " من إملاء عبد القاهر، والثانية عنونها المحقق بـــ: "فاتحة المصنّف في مكانة العلم".

وهو في كلتيهما اشترك مع الباقلاني في معظم أفكاره التي تناولها في الحديث عن حال أهل زمانه من عدم التمسّك بالعلم، ثُمَّ التعريج على موضوع الإعجاز القرآني، والبحث في وجهه عنده، وهو النظم الذي ربطه بالنحو، لذلك نراه قد ([2])"وقف نفسه للدفاع عن النحو، وتبيان خصائصه، وارتباطه بنظم الكلام الذي بنى عليه نظريته، وأوضح فكرته بإيجاز في مدخل كتابه". وأوضح ما لحق به من ضيم، كما لحق بعلم البيان، وبالشعر أيضاً.

فهو في المدخل بعد أن حَمِدَ الله بما هو أهله حمداً سريعاً، خَرَطَ القارئ في موضوع مبحث كتابه مباشرة، حيث مهدّ لمحتوى كتابه قائلاً: ([3])"هذا كلام وجيز يطلع به الناظر على أصول النحو جملةً، وكلّ ما يكون به النظم دَفْعَةً، وينظر منه في مرآة تُرِيَهُ الأشياء المتباعدة الأمكنة قد التقت له حتى رآها في مكان واحد".

ثم شرع في تعريف النظم الذي يقوم عليه إعجاز القرآن، فقال: ([4])"معلوم أنْ ليس النظمُ سوى تعليقِ الكلمِ بعضها ببعض، وجعلِ بعضها بسبب من بعض".

وليوضح هذا التعريف ذكر أقسام الكلم، وطرق تعليق هذه الأقسام الثلاثة ببعضها، والتعليق([5]) "لا يعدو ثلاثة أقسام: تعلق اسم باسم، وتعلّق اسم بفعل، وتعلّق حرف بهما".

---

(١) الباقلاني : إعجاز القرآن ٧ .
(٢) أحمد مطلوب : عبدالقاهر الجرجاني ، بلاغته ونقده ٥٩ .
(٣) الجرجاني : دلائل الإعجاز ٣ من المدخل
(٤) المرجع السابق نفسه ٤ من المدخل
(٥) المرجع السابق نفسه ٤ من المدخل

وحصر حالات تعلّق الاسم بالاسم، ضارباً لذلك أمثلةً وشواهدَ قرآنية وكذلك فعل في تعلّق الاسم بالفعل، وتعلّق الحرف بهما بأشكاله الثلاثة[1]. ([2])"ومختصر كل الأمر أنه لا يكون كلام من جزء واحد، وأنه لا بد من مسند ومسند إليه....... فهذه هي الطرق والوجوه في تعلّق الكلم بعضها ببعض، وهي، كما تراها، معاني النحو وأحكامه".

وكما هو حال الجرجاني دائماً، في براعته بربط أجزاء الكلام، والانتقال بالقارئ من فكرة إلى فكرة ناتجة عنها، ومنسلّة منها. فهو يصل الآن إلى ربط النظم بالإعجاز، فهو وجهه عنده، ويُنوِّهُ، في آنٍ واحد، بسبب تأليفه كتابه، قائلاً: ([3])"وإذا كان ذلك كذلك، فما جوابنا لخصم يقول لنا: إذا كانت هذه الأمور وهذه الوجوه من التعلّق التي هي محصول النظم، موجودةً على حقائقها وعلى الصحة وكما ينبغي من منثور كلام العرب ومنظومه، ورأيناهم قد استعملوها وتصرّفوا فيها، وكملوا بمعرفتها، وكانت حقائق لا تتبدل ولا يختلف بها الحال، إذ لا يكون للاسم حقيقةٌ هي خلاف حقيقته في كلام آخر، فما هذا الذي تجددّ في القرآن من عظيم المزيّة وباهر الفضل، والعجيب من الرّصف، حتى أعجز الخلق قاطبة، وحتى قهر من البلغاء والفصحاء القُوَى والقُدَر؟ .... أيلزمنا أن نجيب هذا الخصم عن سؤاله؟........ فإن كان ذلك يلزمنا، فينبغي لكل ذي دين وعقل أن ينظر في الكتاب الذي وضعناه، ويستقصي التأمل لما أودعناه، فإن عَلِمَ أنه الطريق إلى البيان، والكشف عن الحجة والبرهان، تبع الحق وأخذ به، وإن رأى له طريقاً غيره، أومأ لنا إليه، ودلّنا عليه، وهيهات ذلك !".

وتطغى على الجرجاني شاعريته، فيُعيدُ صياغة ما نثر حول النظم والإعجاز وسبب تأليفه الكتاب شعراً. وهذه أبيات مما قال في ذلك:

([4])" إنّي أقولُ مَقالاً لَسْتُ أُخْفِيهِ ... ولَسْتُ أَرْهَبُ خَصماً، إنْ بدا، فيهِ
ما مِنْ سبيلٍ إلى إثباتِ مُعْجزَةٍ ... في النَّظْمِ، إلاّ بما أصْبَحْتُ أبْديهِ
فما لِنَظْمِ كلامٍ أنتَ ناظِمُهُ ... مَعْنىً سوى حُكْمِ إعرابٍ تُزَجِّيهِ

([1]) انظر الجرجاني : دلائل الإعجاز ٤ حتى ٧ من المدخل .
([2]) الجرجاني : دلائل الإعجاز ٨ من المدخل .
([3]) المرجع السابق نفسه ٩ من المدخل .
([4]) المرجع السابق نفسه ٩ حتى ١١ بتصرّف من المدخل .

نقـــولُ: مِـــنْ أيـــنَ أنْ لا نَظَـــمَ يُـــشْبهُهُ ... ولَيس مـــن مَنْطِـــق في ذاك يَحْكيــــــــهِ؟
وقد عَلِمنا بـــأنَّ الـــنظمَ لـــيس ســـوَى ... حُكْـــم من النحـــو نمـــضي في تَوَخّيــــــهِ
فما الـــذي زادَ في هـــذا الـــذي عَرَفُـــوا ... حتى غَدَا العجزُ يَهمِي سَـــيْلُ وَاديــــــهِ
قولُـــوا، وإلاّ فأَصْـــغُوا لِلبَيـــانِ تَـــرَوْا ... كالصُّبحِ مُنْبَلِجـــاً في عَـــيْنِ رائِيــــــهِ"

ثُمّ نراه في فاتحته يعاود حَمْدَ الله حمد الشاكرين: ويعوذ به من أن يدعي العلم بشيء لا يعلمه، ثم يبيّن فضل العلم، فيجعله ذروة الفضائل وسَنَامَها، ([1])"إذ لا شرف إلاّ وهو السبيل إليه، ولا خيرَ إلاّ وهو الدليل عليه،.... لولاه لما بان الإنسان من سائر الحيوان إلاّ بتخطيط صورته،..... فإنّا لم نَرَ فعلاً زان فاعله وأوجب الفضل له، حتى يكون عن العلم صَدَرُه،..... ولم نَرَ قدرةً قط كَسَبَتْ صاحبها مجداً، وأفادته حمداً، دون أن يكون العلمُ رائدَها فيما تطلب".

وهو هنا يوافق الباقلاني في سخطه على أهل الزمان من تركهم الاشتغال بالعلم وطلبه، لكنه يختلف معه في الأسلوب، حيث يعتمد التلميح الإيجابي، دون التصريح السلبي، بذكر قيمة العلم وفضله، والاستعاذة من ادعاء العلم به في حال الجهل، تاركاً فضح أهل زمانه، هنا، علانيةً وجهاراً.

وإن كان العلم هو تاج الفضائل، فعلم البيان هو ماسة هذا التاج الثمينة، وياقوتته النادرة، لذلك يقول: ([2])"ثم إنكَّ لا ترى عِلْماً هو أرسخ أصلاً، وأبسقَ فرعاً، وأحلى جَنىً، وأعذبَ وِرْداً، وأكرم نتاجاً، وأنور سراجاً، من علم البيان، الذي لولاه لم ترَ لساناً يحوك الوَشى، ويصوغ الحَلى، ويلفظ الدُّر، وينفث السّحر، ويُقري الشهد، ويريك بدائع من الزهر، ويجنيك الحلو اليانع من الثّمر، والذي لولا تحفيه بالعلوم، وعنايته بها، وتصويره إياها، لبقيت كامنة مستورة، ولما استنبتت لها يد الدهر صورة".

([3])"والبيان عند عبد القاهر مصطلح عام يشمل البلاغة كلّها"، وقد لحقه الضيم والخطأ، ([4])"ودخل على الناس من الغلط في معناه ما دخل عليهم فيه فقد سبقت إلى نفوسهم اعتقادات

([1]) الجرجاني: دلائل الإعجاز ٤ من الفاتحة .
([2]) المرجع السابق نفسه ٦ من الفاتحة .
([3]) أحمد مطلوب : عبدالقاهر الجرجاني بلاغته ونقده ١٢١ .
([4]) عبدالقاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ٦ من الفاتحة .

فاسدة وظنون ردية، وركبهم فيه جهل عظيم وخطأ فاحش، ترى كثيراً منهم لا يرى له معنى أكثر مما يرى للإشارة بالرأس والعين، وما يجده للخط والعَقْد، يقول: إنما هو خبر واستخبار وأمر ونهي، ولكل من ذلك لفظ قد وضع له، وجُعلَ دليلاً عليه، فكل من عرف أوضاع لغة من اللغات، عربيةً كانت أو فارسية، وعرف المغزى من كل لفظة، ثم ساعده اللسان على النطق بها، وعلى تأدية أجراسها وحروفها، فهو بيّن في تلك اللغة، .... يسمع الفصاحة والبلاغة والبراعة فلا يعرف لها معنى سوى الإطناب قي القول، وأن يكون المتكلم في ذلك جهير الصوت، جاري اللسان، لا تعترضه لكنة،..... وأن يستعمل اللفظ الغريب، والكلمة الوحشية،..... لا يلحن([1]) فيرفع في موضع النصب، أو يخطئ([2]) فيجيء باللفظة على غير ما هي عليه في الوضع اللغوي".

ولذلك نراه يهب للدفاع عن علم البيان، ويبيّن أن مزية الكلام تعود إليه، ويعترض على من يرى أن الحكم على رفعة بيان الشخص تكون من رفعته في علم اللغة، كما مرَّ بنا في النص السابق، لأنه في حكمه هذا يكون قد جَهلَ أنَّ في علم البيان ([3])"دقائق وأسراراً طريق العلم بها الرويّة والفكَر، ولطائف مستقاها العقل، وخصائص معان ينفرد بها قوم قد هُدوا إليها،.... وأنها السبب في أن عَرَضت المزيّة في الكلام، ووجب أن يفضل بعضه بعضاً، ..... حتى ينتهي الأمر إلى الإعجاز، وإلى أن يخرج من طوق البشر".

وقد ترتّب على جهل الناس بعلم البيان، وعدم قدرهم على تذوّق الدقائق واللطائف فيه، امتدادُ ضيمهم للشعر، وذمهم للنحو، فيقول في هذا الجور: ([4])"ولما لم تعرف هذه الطائفة هذه الدقائق، وهذه الخواص واللطائف، لم تتعرض لها ولم تطلبها، ثم عَنَّ لها بسوء الاتفاق رأيٌ صار مجازاً..... وهو أن ساء اعتقادها في الشعر الذي هو معدنها وعليه المعوّل فيها، وفي علم الإعراب الذي هو لها كالناسب الذي ينميها إلى أصولها،... فجعلت تظهر الزهد في كل واحد من النوعين،..... أما الشعر، فخيل إليها أنه ليس فيه كثير طائل، وأنْ ليس إلاّ مُلْحَة أو فكاهة، أو بكاء مترل أو وصف طلل، أو نعت ناقة أو جمل، أو إسراف قول في مدح أو هجاء، وأنه ليس بشيء تمس الحاجة إليه في صلاح دين أو دنيا. وأما النحو، فظنّته ضرباً من التكلّف، وباباً من

([1]) إشارة إلى القياس في النحو .
([2]) إشارة إلى السماع في اللغة .
([3]) الجرجاني : دلائل الإعجاز ٧ من الفاتحة .
([4]) المرجع السابق نفسه ٨ من الفاتحة .

التعسّف، وشيئاً لا يستند إلى أصل، ولا يعتمد على عقل، وأن ما زاد فيه على معرفة الرفع والنصب وما يتصل بذلك مما تجده في المبادئ، فهو فضل لا يجدي نفعًا".

ولكنه بعد هذا العرض للأذى الذي لحق بعلم البيان وعلم النحو والشعر يُظْهِرَ خطأ من أخطأ في نظرته هذه ببيان منزلة هذه العلوم من إعجاز القرآن، ([1])"فالجهة التي منها قامت الحجة بالقرآن وظهرت، وبانت وقهرت، هي أن كان على حدًّ من الفصاحة تقصر عنه قوى البشر.... وكان مُحالاً أن يُعرف كونه كذلك، إلاّ من عرف الشعر الذي هو ديوان العرب، وعنوان الأدب، والذي لا يشك أنه كان ميدان القوم إذا تجارَوا في الفصاحة والبيان،..... ثم بحث عن العلل التي بها كان التباين في الفضل، وزاد بعض الشعر على بعض، كان الصاد عن ذلك صاداً عن أن تعرف حجة الله تعالى".

وهو أخيراً في ردّه على أن طريق معرفة إعجاز القرآن هي غير ما ذهب إليه من النظم، يقرّر أن ([2])"لا معنى لبقاء المعجزة بالقرآن إلاّ أن الوصف الذي له كان معجزاً قائم فيه أبداً، وأن الطريق إلى العلم به موجود، والوصول إليه ممكن".

وبهذا يكون الجرجاني قد أوجز الحديث في مقدمته عن حال أهل زمانه وزهدهم بالعلم، وخصوصاً في الشعر والبيان والنحو، واتخذ هذا تمهيداً للحديث عن إعجاز القرآن ووجهه عنده وهو النظم الذي يربطه بالنحو. ذاكراً عندئذ سبب كتابته لكتابه هذا.

ويكون قد التقى مع الباقلاني الذي وقف عند حال أهل زمانه وقفة المتضجر، داعياً إلى ضرورة الاهتمام بالبحث في إعجاز القرآن، هذا القرآن الذي تجاوز الحد الذي يجوز عنده موازنته بخطب وأشعار ورسائل بليغة، دون أن يخصص في المقدمة وجهاً للإعجاز، الذي وقف نفسه لتأليف كتابه هذا فيه.

وهكذا تكون مقدمتا الرجلين مصورتين لمحتويات الكتابين، وملقيتين الضوء على ما فيهما من موضوعات.

([1]) الجرجاني : دلائل الإعجاز ٩ من الفاتحة .

([2]) المرجع السابق نفسه ١٠ من الفاتحة .

وقد تصرّف الباقلاني في مقدمته تصرّفاً حسناً، حيث أوضح منهجه الذي يود انتهاجه في كتابه، وبذلك يكون الباقلاني هنا قد فاق الجرجاني الذي افتقرت مقدمته إلى بيان طريقته في إثبات إعجاز القرآن.

الشعر ونقده

فالسؤال الآن: كيف كان موقفهما من الشعر، ونقدهما له؟

والجواب: لقد اشترك كلٌّ منهما في الوقوف على الشعر، ونقده، حيث اتخذاه وسيلةً لإثبات إعجاز القرآن على اختلاف في الموقف والمنهج والمعالجة. فَهَمُّ الباقلاني عندما يوازن الشعر بالقرآن هو الحَطُّ من شأن الشعر ليصل بالاستدلال السلبي إلى إثبات مراده من تفوّق النظم القرآني على كل نظم. بينما يَعْمَدُ الجرجاني إلى إثبات الفكرة نفسها بالاستدلال الإيجابي، فيتخذ الشعر أداة مدحضة للشكوك، وحجة قوية لإثبات إعجاز القرآن.

فهذا الباقلاني قد عقد فصلاً في كتابه، نفى فيه أن يكون القرآن شعراً، وهو (١)"لم يتعرض لهذا إلاّ دفعاً لمقالات ضعيفة وجاهلة بالشعر والقرآن، زعمت أن في القرآن شعراً". فنراه يقول في ذلك: (٢)"وذكر لي عن بعض جهّالهم أنه جعل يعدله (٣) ببعض الأشعار، ويوازن بينه وبين غيره من الكلام، ولا يرضى بذلك حتى يفضله عليه !".

فكانت هذه المقالات الحافز الذي أهاجه، وجعلته يَسِمُ من عارض القرآن بالشعر بالضلالة والحمق حيث يقول: (٤)"إن الذي عارض القرآن بشعر امرئ القيس لأضلُّ من حمار باهلة، وأحمق من هبنَّقة".

---

(١) محمد محمد أبو موسى : الإعجاز البلاغي ١٩٣ .
(٢) الباقلاني : إعجاز القرآن ٥ ، وانظر أيضاً المرجع السابق ٥٠ حيث يقول :"ومن الملحدة من يزعم أن فيه شعراً".
(٣) يعني القرآن .
(٤) الباقلاني : إعجاز القرآن ٢١١ .

ويستمر في رفضه الموازنة، فيقول في موضوع آخر: ([1])"أما أن يظنَّ ظانٌّ، أو يَتَوَهَّمَ متوهم أن جنس الشعر مُعارضٌ لنظم القرآن ﴿فكَأنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيرُ أو تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ في مَكانٍ سحيقٍ﴾ [الحج ٣١]".

ففي هذا الفصل الذي نفى فيه الشعر من القرآن، وعن النبّي ـــ صلى الله عليه وسلّم ـــ استشهد أولاً بقوله تعالى ﴿وما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ، وما يَنْبَغِي لَهُ، إنْ هُوَ إلاّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبينٌ﴾ [يس ٦٩] ، وقوله ـــ جَلَّ وعَلا ـــ ﴿والشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوونَ، ألَمْ تَرَ أنَّهُمُ في كُلِّ وادٍ يَهيمُونَ﴾ [الشعراء ٢٢٤، ٢٢٥]، وقوله ﴿ومَا هُوَ بقولِ شاعرٍ﴾ [الحاقة ٤١].

واعتماد الباقلاني هذه الآيات القرآنية شواهد على نفي الشعر من القرآن اعتماد ضعيف، يشي بعدم فهمه لمغزى الآيات، فالمشركون حين شبّهوا القرآن بالشعر حين سماعهم له قد نظروا فيه ([2])"إلى ما ألفوا من وقعه على وجداهم وسيطرته على أفئدهم،..... وإذا كانت صفة الشعر هي أقرب ما تعلقوا به، حرص القرآن على أن ينفي عن المصطفى هذه الشاعرية، لا ذماً للشعر كما ذهب الباقلاني.... ولكن لأن الشعرَ مظنَّةُ الالتباس بالمعجزة القرآنية، نفاذاً إلى الوجدان العربي، وسلطاناً على عقولهم وأفئدهم وضمائرهم".

فنصّ الآيات القرآنية الكريمة التي استشهد بها الباقلاني لا تظهر أيَّ موقف عدائي للشعر، وإنما فيها تحديد لصفة القرآن، وتوضيح لرسالته.

وكذلك هو موقف القرآن من الشعراء، فالآيات الكريمة من سورة الشعراء التي اعتمدها الباقلاني شاهداً على ذم القرآن للشعراء، ليس مفادها مطلق الذم للشعراء عامة، ولكنها تخص بالذم فئةً من الشعراء الموسومِ شعرهُم بالباطل والكذب والهجاء وتمزيق الأعراض والقدح في الأنساب، والنسيب والغزل، ومدح من لا يستحق المدح)([3]).

كما أن الاستثناء يأتي واضحاً في الآيات للشعراء المؤمنين الذين يتقون الله فيما يقولون. فيكون حال الشعر خاصة كحال الكلام عامة، ([4])"فحسَنه كحسن الكلام، وقبيحه كقبيح الكلام".

([1]) الباقلاني : إعجاز القرآن ٢١٦ .
([2]) عائشة عبد الرحمن : الإعجاز البياني للقرآن ٤٦ .
([3]) انظر كيف فسّر الزمخشري هذه الآيات في الكشاف ٣/٣٤٨ .
([4]) الزمخشري : الكشاف ٣/٣٤٩ .

ولكن الباقلاني لا يكتفي بنفي الشعر من القرآن باستشهاده بآيات قرآنية فسّرها على غير محملها الصحيح، بل إنه يمضي في تحليل النظرة الشعرية من قبَلِ الكفار للقرآن بِحَمْله على وجوه ثلاثة فنراه يقول: ([1])"وهذا يدل على أن ما حكاه عن الكفار مِن قولهم: إنه شاعر، وإنَّ هذا شعرٌ — لا بدّ أن يكون محمولاً على أنهم نسبوه إلى أنه يُشْعِرُ بما لا يُشعر به غيره من الصنعة اللطيفة في نظم الكلام، لا أنهم نسبوه في القرآن إلى أن الذي أتاهم به هو من قبيل الشعر الذي يتعارفونه على الأعاريض المحصورة المألوفة. أو يكون محمولاً على ما كان يطلق الفلاسفة على حكمائهم وأهل الفطنة منهم في وصفهم إياهم بالشعر، لدقة نظرهم في وجوه الكلام، وطرق لهم في المنطق،..... أو يكون محمولاً على أن أطلقه بعض الضعفاء منهم في معرفة أوزان الشعر وهذا أبعد الاحتمالات".

ونلاحظ هنا أن الباقلاني في تحليليه الأولين لهذه النظرة الشعرية للقرآن قد أصاب، فالكفّار عندما وَسَموهُ بذلك ([2])"إنما أرادوا أن للقرآن مِثْلَ وقع الشعر على الوجدان والعقل، وذهبوا إلى وصف سحر بيانه، بما ألفوا من وصف روائع شعرهم".

فنراه يؤكد هذا قائلاً: ([3])"فإن حمل على الوجهين الأولين كان ما أطلقوه صحيحاً، وذلك أن الشاعر يفطن لما لا يفطن له غيره، وإذا قدر على صنعة الشعر كان على ما دونه — في رأيهم وعندهم — أقدرْ، فنسبوه إلى ذلك لهذا السبب".

ولكنه عندما جاء بالرأي السديد ناقض نفسه فيما جاء به من دليل نقلي في بداية نفيه الشعر من القرآن، لكن إصراره على هذا النفي يؤكد قناعته الأولى في زعم الكفار وجود الشعر في القرآن، لذلك نراه يَعْرِضُ آراءهم وشواهدهم فيما يَدَّعون، ثم ينبري لدحض مقولتهم هذه مستعيناً برأي الجاحظ في هذا النفي.

فهو يقول: ([4])"فإن زعم زاعم أنه قد وجد في القرآن شعراً كثيراً، فمن ذلك ما يزعمون أنه بيت تام أو أبيات تامّة، ومنه ما يزعمون أنه مصراع، كقول القائل:

قَدْ قُلْتُ لَمَّا حاوَلوا سَلْوَتي: ﴿هَيْهاتَ هَيْهاتَ لِما تُوعَدون﴾ [المؤمنون ٣٦]

([1]) الباقلاني : إعجاز القرآن ٥١ .
([2]) عائشة عبد الرحمن : الإعجاز البياني للقرآن ٤٢ .
([3]) الباقلاني : إعجاز القرآن ٥١ .
([4]) المرجع السابق نفسه ٣٥ .

ومما يزعمون أنه بيت، قوله: ﴿وَجِفانٍ كالجَوَابِ وقُدورٍ رَاسِيات﴾ [سبأ ١٣]

قالوا: هو من الرَّمَل.... وقوله: ﴿مَنْ تَزَكّى فإنَّما يَتَزَكّى لِنَفْسِهِ﴾ [فاطر ١٨]

كقول الشاعر من بحر الخفيف:

كُــــــلُّ يَـــــــوْمٍ بِشَمْــــــــسِهِ وَغَـــــــد مثـــــــلُ أمْـــــــسِـــهِ

.... وكقوله: ﴿وَدانِيةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها وَذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْليلاً﴾ [الإنسان ١٤]

ويشبعون حركة الميم، فيزعمون أنه من الرَّجَز. وذكر عن أبي نَواس أنه ضمّن ذلك شعراً، وهو قوله:

وفِتْيَـــــةٍ في مجلـــــسٍ وجـــــوهُهم رَيْحـــانُهم قَـــد عَـــدَمُوا التَّنقِيـــــلا
دانيـــــةً عَلَـــــيْهم ظِلالُهـــــــــا وذُلِّلَـــــت قُطوفُهـــا تذليـــــــــلا

ونحو ذلك في القرآن كثير، كقوله: ﴿والذّارِياتِ ذَرْواً، فَالحامِلاتِ وِقْراً، فَالجارِياتِ يُسْراً﴾ [الذاريات ١-٣] وهو عندهم شعر من بحر البسيط".

ويجيب الباقلاني عن هذه الدعوى، متأثراً بما قاله الجاحظ([1])، الذي ناقش من طعن في قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدا أبي لَهَبٍ وَتَب﴾ [المسد ١] وادعى أنه من قبيل الشعر، لأنه على وزن مستفعلن مفاعلن، حيث قال: ([2])"اعلم أنك لو اعترضت أحاديث الناس وخطبهم ورسائلهم. لوجدت فيها مثل مستفعلن مستفعلن كثيراً، ومستفعلن مفاعلن. وليس أحد في الأرض يجعل ذلك المقدار شعراً. ولو أن رجلاً من الباعة صاح: مَن يشتري باذنجان؟ لقد كان تكلّم بكلام في وزن مستفعلن مفعولات. وكيف يكون ذلك شعراً وصاحبه لم يقصدْ إلى الشعر؟ ومثلُ هذا المقدار من الوزن قد

([1]) التفت سيد أحمد صقر محقق كتاب الباقلاني إلى تأثر الباقلاني بالجاحظ في نفي أن تكون بعض الآيات القرآنية على وزن الشعر ، انظر ٥٤/٣ من إعجاز القرآن ، وكذلك بنت الشاطئ التي رأت أن الباقلاني لم يزد على ما قاله الجاحظ في هذا الأمر ، وقد اعترضت على مقالة الجاحظ التي لم تراعِ مقام الحديث حيث قالت : "لكن يوهنه عندي ، هذا التنظير بكلام العامة والسوقة ، من الحاشية والغلمان الباذنجان فما هانت القضية إلى المدى الذي يُساق فيه مثل هذا في الاحتجاج لنفي الشعر في البيان الأعلى" ، انظر الإعجاز البياني للقرآن ٤٤ .
([2]) الجاحظ : البيان والتبيين ٢٨٩/١ .

يتهيأ في جميع الكلام. وإذا جاء المقدار الذي يُعلَمُ أنه من نتاج الشعر و المعرفة بالأوزان والقصد إليها، كان ذلك شعراً...... وسمعت غلاماً لصديق لي، وكان قد سقى بطنُه، وهو يقول لغلمان مولاه: اذهبوا بي إلى الطبيب وقولوا قد اكتوى. وهذا كلام يخرج وزنه على خروج: فاعلاتن مفاعلن، فاعلاتن مفاعلن مرتين. وقد علمت أن هذا الغلام لم يخطر على باله أن يقول بيت شعر أبداً. ومثل هذا كثير، ولو تتبعته في كلام حاشيتك وغلمانك لوجدته".

وسنرى الآن كيف قيّد الباقلاني الشعر بالكمِّ والحجم، وبقيد القصد والنية، وقد استشف هذين القيدين من كلام الجاحظ السابق وأضاف قيداً ثالثاً وهو نوع الوزن وشكله، ثم اتخذ هذه القيود سبباً لنفي الشعر من القرآن، وزاد عليها حجة عدم القدرة على المعارضة حيث يقول: (١)"والجواب عن هذه الدعوى التي ادعوْها من وجوه:

أولها: أن الفصحاء منهم حين أورد عليهم القرآن، لو كانوا يعتقدونه شعراً، ولم يروه خارجاً عن أساليب كلامهم، لبادروا إلى معارضته، لأن الشعر مسخرٌ لهم مسهَّل عليهمْ....... إذا كان كذلك، عُلِمَ أن الذي أجاب به العلماء عن هذا السؤال سديد، وهو أنهم قالوا: إن البيت الواحد، وما كان على وزنه لا يكون شعراً، وأقل الشعر بيتان فصاعداً، وإلى ذلك ذهب أكثر أهل صناعة العربية من أهل الإسلام...... ثم منهم من قال: إن الرجز ليس بشعر أصلاً،........ وكذلك ما كان يقاربه في قلة الأجزاء...... ثم يقولون: إن الشعر إنما يطلق، متى قصد القاصد إليه، على الطريق الذي يعتمد ويسلك، ولا يصح أن يتفق مثله إلاّ من الشعراء، دون ما يستوي فيه العامي والجاهل، والعالم بالشعر واللسان وتصرّفه وما يتفق من كل واحد، فليس يكتب اسم الشعر ولا صاحبه اسم شاعر، لأنه لو صحَّ أن يسمى كل من اعترض في كلامه ألفاظ تتَّزن بوزن الشعر، أو تنتظم انتظام بعض الأعاريض، كان الناس كلهم شعراء".

ولكن هذه القيود التي قيّد بها الباقلاني الشعر، ليست مقبولة في مجملها. فشرط الكم والمقدار لم يكن مطروقاً قبل نزول القرآن الكريم، وإنما اشترطه النقاد (٢)"حينما ظهرت فكرة أن في القرآن شعراً، ومحاولة لنفيه منه، وهاهم أولاء يقولون: أشعر بيت قالته العرب قول القائل:........ ويذكرون بيتاً واحداً، وهكذا يجعلون البيت الواحد شعراً".

---

(١) الباقلاني : إعجاز القرآن ٥٤ .
(٢) عبدالرؤوف مخلوف : الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن ٢٦٣ .

وأما عن قيد نوع الوزن وشكله، فمن منّا ينكر أن الرّجز بحرٌ من بحور الشعر عند العرب؟

ويبقى قيد القصد والنّية الذي لا يمكن لأي ناقد أن يَجْزِمَ الرأي فيه ويَحْسِمَ الموقف، فليس له أن يقول: إن فلاناً لم يكن يَقْصِدُ الشعر في قوله هذا ! وبقي أن أقول: إن القرآن حين نفى الشعر عن نفسه كان يعمد إلى الجوهر هدفاً وغرضاً، دون المظهر وزناً وصورةً.

([1])"ومن الأشياء التي هي عنده أوفى من غيره، تفصيله القول في مذاهب الاختيار في الشعر، وتعليل كل مذهب بالبواعث التي دعت إليه ثم اختياره ما اختار منها، وتعليله هذا الاختيار بعلل دقيقة ترجع إلى طبع اللغة، وطبع البيان".

فقد فصّل الباقلاني سبعة مذاهب في اختيار أفضل الشعر وهي: ([2])

١. من أهل الصنعة من يختار المتين والقول الرصين.

٢. ومنهم من يختار الكلام الذي يرون ماؤه، وتَرُوع بهجته ورُوَاؤه، ويسلس مأخذه، ويسلم وجهه ومنفذه، ويكون قريب المتناول غير عويص اللفظ، ولا غامض المعنى.

٣. كما قد يختار قوم ما يغمض معناه، ويغرب لفظه، ولا يختار ما سَهُلَ على اللّسان، وسبق إلى البيان.

٤. وروى أن عمر بن الخطّاب ـــ رضي الله عنه ـــ وصف زهيراً فقال: كان لا يمدح الرجل إلاّ بما فيه..... كأنه فضله لصدق معناه.

٥. ومنهم من يختار الغلو في قول الشعر والإفراط فيه، حتى ربما قالوا: أحسن الشعر أكذبه.

٦. وأكثرهم على مدح المتوسّط بين المذهبين: في الغلو والاقتصاد، وفي المتانة والسّلاسة.

٧. ومنهم من رأى أن أحسن الشعر ما كان أكثر صنعةً([3])، وألطف تعملاً وأن يتخيّر الألفاظ الرشيقة للمعاني البديعة، والقوافي الواقعة كمذهب البحتري.

([1]) محمد محمد أبو موسى ، الإعجاز البلاغي ١٧٥ .
([2]) الباقلاني : إعجاز القرآن ١١٤، ١١٥ بتصرّف .
([3]) يقول محمد محمد أبو موسى في مصطلح الصنعة عند الباقلاني :"وليس المراد بالصنعة معناها والذي يقارب معنى التكلّف في الصياغة ، واقتياد المعاني على غير وجهها ، وإنما المراد بالصنعة في أكثر إطلاقات الباقلاني الإتقان والإحكام والفطنة في المراجعة والصّقل ، وكأنها تقابل البديهة والارتجال" ، انظر الإعجاز البلاغي ٢٧٠

ثم هو بعد عرضه لهذه المذاهب السبعة، يذكر ما يرتضيه هو من مذهب في اختيار الشعر، فيقول: ([1])"والأعدل في الاختيار ما سلكه أبو تمّام من الجنس الذي جمعه في كتاب الحماسة، وما اختاره من الوحشيات، وذلك أنه تَنكَّب المستنكر الوحشي، والمتبذل العامي وأتى بالواسطة.

وهذه طريقة من يُنصِفُ في الاختيار، ولا يعدِلُ به غرضٌ يخصُّ، لأن الذين اختاروا الغريب، فإنّما اختاروه لغرض لهم في تفسير ما يشتبه على غيرهم، وإظهار التقدّم في معرفته، وعجز غيرهم عنه، ولم يكن قصدهم جيدّ الأشعار لشيء يرجع إليها في أنفسها".

وقد احتج الباقلاني لصحة اختياره بخصائص اللغة العربية التي فضّلت على غيرها لاعتدالها في الوضع، ورَبَطَ ذلك بطبيعة النفس الإنسانية الراغبة بالسلس المألوف. فنراه يقول: ([2])"ويُبيِّنُ هذا أن الكلام موضوع للإبانة عن الأغراض التي في النفوس، وإذا كانت كذلك، وجب أن يتخيّر من اللفظ ما كان أقرب إلى الدلالة على المراد، وأوضح في الإبانة عن المعنى المطلوب ، ولم يكن مستكره المطلع على الأذن، ولا مستنكر المورد على النفس...... ويجب أن يتنكبّ ما كان عامي اللفظ، مبتذل العبارة، ركيك المعنى، سفسافي الوضع..... وإنما فضلّت العربية على غيرها، لاعتدالها في الوضع. لذلك وُضِعَ أصلها على أن أكثرها هو بالحروف المعتدلة، فقد أهملوا الألفاظ المستكرهة في نظمها، وأسقطوها من كلامهم، وجعلوا عامة لسانهم على الأعدل".

وهكذا ومن خلال هذا الاختيار يَطُلُّ علينا الباقلاني الناقد المتمكن من الشعر، فنراه يقدّم لنا في كتابه نموذجين من نماذج النقد الأدبي، وهما نقده لمعلقة امرئ القيس وقصيدة البحتري، ([3])"وإنما اختار هاتين القصيدتين على ما لهما في نفوس النقّاد من مكانة ليتناولهما بالنقد، حتى إذا أسقطهما، وهما من روائع الشعر، كان ما عداهما منه أجدر أن يُسْقَطَ، وإذا سقط الشِّعر وهو مجتلى البلاغة عند العرب وعنوان فصاحتها، ومظهر تأتيها للبيان، ثبت الإعجاز للقرآن بطريق الاستدلال العكسي".

([1]) الباقلاني : إعجاز القرآن ١١٧ .
([2]) المرجع السابق نفسه ١١٨ .
([3]) عبد الرؤوف مخلوف : الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن ٣٧٣ .

فهو يقول([1]) "إذا أردنا تحقيق ما ضمناه لك([2])، فَمِنْ سبيلنا أن نَعْمَدَ إلى قصيدة متفّق على كِبَرِ محّلها، وصحة نظمها، وجودة بلاغتها ورشاقة معانيها، وإجماعهم على إبداع صاحبهم فيها...... فَنَقِفُكَ على مواضع خللها، وعلى تفاوت نظمها، وعلى اختلاف فصولها، وعلى كثرة فضولها، وعلى شدة تعسّفها، وبعض تكلّفها، وما تجمع من كلام رفيع، يقرن بينه وبين كلام وضيع، وبين لفظ سوقي يُقرن بلفظ ملوكي".

وهو يبدأ بمعلقة امرئ القيس، دون أن يُغْفِلَ ذكر قيمة امرئ القيس الشعرية، فيعترف له، بدايةً، بجودة شعره وفصاحته، وابتداعه في طرق الشعر أموراً فقد أُتُّبِعَ فيها كذكر الديار والوقوف عليها، وصوره وتشبيهاته وبديعه، وصناعته وطبعه، ومكانته ورقته.

ثم هو بعد أن أوفى الرجل حقه يبدأ في ([3])"هتك الستر عن معلقة امرئ القيس، ليكشف للناس عيبها وخللها، لا ليستخرج منها خصائص بيانهم، وكيف كانت هذه الخصائص مفارقة لخصائص بيان القرآن".

وأقف بك الآن عند نقد الباقلاني لبيتين مِنْ المعلقة، لتتخذه نموذجاً لتجنيه وتحامله على الشعر الجاهلي، وعلى رمز من رموز هذا الشعر.

فهو بعد أن يورد بيتي امرئ القيس في مطلع قصيدته:

قِفَا نَبْكِ مِـــن ذِكْـــرَى حَبِيــبٍ وَمَنْــزِلِ ... بِسِقْطِ اللِّــوَى بَــينَ الــدَّخُولِ فَحَوْمَــلِ
فَتُوضِـــحَ فَـــالمِقْرَاةِ لم يِعْـــفُ رَسْـــمُها ... لِمَا نَــسَجَتْها مِــنْ جَنُــوبٍ وَشَمْـــألِ

يقول: ([4])"الذين يتعصبون له، ويَدَّعون محاسن الشعر، يقولون: هذا من البديع ؛ لأنه وقف واستوقف، وبكى واستبكى، وذكر العهد والمترل والحبيب، وتوجّع واستوجع، كله في بيت..... أنت تعلم أن ليس في البيتين شيء قد سبق في ميدانه شاعراً، ولا تَقَدَّم صانعاً. وفي لفظه ومعناه خلل: فأول ذلك: أنه استوقف مَنْ يبكي لذكر الحبيب وذكراه لا تقتضي بكاء الخَلِيّ، وإنما يصح

([1]) الباقلاني : إعجاز القرآن ١٥٦ .
([2]) من أن نظم القرآن يعلو كل نظم .
([3]) مالك بن بني : الظاهرة القرآنية . من تقديم محمود محمد شاكر ٤٦ .
([4]) الباقلاني : إعجاز القرآن ١٦٠ .

طلب الإسعاد في مثل هذا، على أن يبكي لبكائه، ويرقّ لصديقه في شدة بُرَحائه، فأما أن يبكي على حبيب صديقه، وعشيق رفيقه، فأمر محال.

فإن كان المطلوب وقوفه وبكاءَه أيضاً عاشقاً، صح الكلام من وجه، وفسد المعنى من وجه آخر ! لأنه من السّخف أن لا يغار على حبيبه......ثم في البيتين ما لا يفيد من ذكر هذه المواضع، وتسمية هذه الأماكن([1])، من الدّخول وحومل وتوضح والمقراة وسقط اللّوى، وقد كان يكفيه أن يذكر في التعريف بعض هذا. وهذا التطويل إذا لم يُفدْ كان ضَرْباً من العيِّ".

وأنا لا أوافق الباقلاني في نقده هذا للبيتين، فهو بعيد عن أحوال العشّاق الذين يُمَنُّونَ النفس بالآمال الكاذبة ليتصبروا على فراق الحبيب، فقلب العاشق هو الذي يخاطب وجدانه دون عقله، ونقد الباقلاني واقعي يحكمه العقل، فهو يرى الشيء على ما هو عليه، لا كما يريده العاشق.

فهذا الباحث محمد محمد أبو موسى يعقّب على نقده لهذين البيتين قائلاً: ([2])"وهذا الذي أورده الباقلاني لا يرد، لأن الوقوف على الديار حال من الأحوال التي يغلب على الشّاعر فيها وجده وشجنه، وتحول فيها عن أحوالها، فيسأل ويستنطق من لا يجيب ولا ينطق، ويبث أشجانه وأشواقه...... وهذه البدايات في القصائد مشحونة بالوجد واللوعة، وهي أحسن ما يُسْتَفْتَحُ به الشعر.... ولم يكن إكذاب الشاعر نفسه أمراً يكون عند ذكر الأطلال فحسب بل عند كل موقف غالب ترى الشاعر فيه يرفض الواقع، ويقيم شعره على نفيه وعلى القطع في ذلك والبت فيه.

وقد نقد الباقلاني البيت الثاني لامرئ القيس بكثرة ذكر الأمكنة...... وهذا لا يرد، لأن الشاعر لا يذكر إلاّ الأمكنة التي تتراءى فيها الذكريات والأحوال الشاجية، وفي تعدادها ما يكشف عن قوة علقتها بنفسه، وارتباطها بشجنه".

([1]) علق الباقلاني في موضع آخر على تحديد امرئ القيس للأمكنة قائلاً: "لم يقنعْ بذكر حدّ، حتى حدّه بأربعة حدود، كأنه يريد بيع المنزل فيخشى ــ إن أخلَّ بحدٍّ ــ أن يكون بيعه فاسداً أو شرطه باطلاً !" ، انظر : إعجاز القرآن ٢٢١ .

([2]) محمد محمد أبو موسى : الإعجاز البلاغي ٢٨٦ ، ٢٨٧ بتصرف .

ثم إن هذا الاسترجاع لذكريات المحبوب يكون فاقداً للإحساس الحقيقي بالزّمان والمكان، لذلك تظهر فاء العطف لتفيد التعقيب النفسي للأمكنة، تاركة حقيقة الفروق في المسافات بينهما، برسم تصويري معبّر يوحي لنا بسينمائية النص.

وهكذا يتضح ([1])"ما في هذا النقد من تهافت حين يتمسك الباقلاني بحرفية العبارة وبظاهر اللفظ، من غير أن يعلم أن الشعر ليس قضايا منطقية، ولا هو حقائق علمية..... والوجه في الأبيات أنَّ امرأ القيس إنما جرى على ما جرى عليه الشعراء والناس من الاستعانة بالرّفاق على التخفف من الوجد والحزن عن طريق المشاركة الوجدانية التي يجدونها في بكاء الصحاب والأعوان، وهذه ظاهرة اجتماعية مقررّة".

ثم نرى الباقلاني بعد أن ينتهي من نقده لمعلقة امرئ القيس ([2])"وهو كبيرهم الذي يقرّون بتقدّمه، وشيخهم الذي يعترفون بفضله، وقائدهم الذي يأتمون به، وإمامهم الذي يرجعون إليه"، يعمد إلى نقد قصيدة للبحتري عدّها أجود شعره، هذا الشاعر المتقدّم في صنعته على مَنْ هم في طبقته.

فهو يقول في نقد مطلع القصيدة: ([3])"قوله:

أهْـــــلاً بِــــــذَلِكُمُ الخَيَـــــالِ المُقبِـــــلِ ‌‌ ‌ فَعَـــــلَ الــــذي نَهْـــواهُ أو لَــــمْ يَفعَـــلِ

.... البيت الأول، في قوله: "ذلكم الخيال"، ثقل روح، وتطويل وحشو، وغيره أصلح له. وأخف منه قول الصنوبري:

أهْـــــلاً بِــــــذاكَ الـــــزَّوْرِ مِــــــنْ زَوْرِ ‌ ‌ شَــــمْسٌ بَـــدَتْ في فلــــكِ الــــدَّوْرِ

وعذوبة الشعر تذهب بزيادة حرف أو نقصان حرف، فيصير إلى الكزازة، وتعود ملاحته بذلك ملوحةً، وفصاحته عيّاً، وبراعته تكلّفاً، وسلاسته تعسفاً، وملاسته تلوياً وتعقّداً. فهذا فصل.

([1]) عبد الرؤوف مخلوف : الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن ٣٧٦ .
([2]) الباقلاني : إعجاز القرآن ٢١٥ .
([3]) المرجع السابق نفسه ٢٢٠ .

وفيه شيء آخر، وهو: أن هذا الخطاب إنما يستقيم مهما خوطب به الخيال، حال إقباله، فأما أن يَحكيَ الحال التي كانت وسلفت على هذه العيادة ففيه عُهدَةٌ، وفي تركيب الكلام عن هذا المعنى عُقدة، وهو لبراعته وحذقه في هذه الصنعة، يعلق نحو هذا الكلام، ولا ينظر في عواقبه ؛ لأن ملاحة قوله تغطي على عيون الناظرين فيه نحو هذه الأمور.

ثم قوله: "فعل الذي هواه أو لم يفعل" ليست بكلمة رشيقة، ولا لفظة ظريفة، وإن كانت كسائر الكلام".

ولقد استهجن النقاد تفضيله بيت الصنوبري على بيت البحتري([1]). كما أن الباقلاني ما زال في نقده هذا بعيداً عن نفس العاشق الملتاعة المتعلّلة بالوهم الكاذب، والأمل الخادع، التي تستحضر خيال المحبوب، بل لا تبرحه أبداً، ([2])"ولا أرى للباقلاني في هذا النقد الأخير وجهاً، لأن أكثر الشعر قائمٌ على حكاية الحال التي كانت وسلفت، وإنما يستحضر الشاعر صوره بكل ما يحيط من أحوال ومشاعر، ومن غير الإنصاف أن نقول له: لا يجوز أن نقول للخيال أهلاً إلاّ حال إقباله، ثم ما معنى إقبال الخيال، أليس هو حضوره عند الشاعر، وفي خياله؟ والخيال هنا له حضور لا ريب فيه، بل هو حضور وإقبال دائم دوام هذا البيت، وهذا حسبنا".

والباقلاني يقف من البحتري موقفين متناقضين، فهو عندما أراد أن يبطل الموازنة الجائرة بين كلام السّماء وكلام الأرض اتخذ شعر البحتري هدفاً لإظهار العيب، ولكنه يقرّ ببهجة أشعاره، وكثرة مائها وبديع رونقها، فيجعل شعره أصلاً في دراسة بيان القرآن المفارق لبيان البشر.

وليس هذا فحسب، بل إنه ينصفه فيفضله على أبي تمّام، حيث يقول: ([3])"قد يشتبه شعر أبي تمام بشعر البحتري: في القليل الذي يترك أبو تمّام فيه التصنّع، ويقصد فيه التسهّل، ويسلك الطريقة الكتابية، ويتوّجه في تقريب الألفاظ، وترك تعويض المعاني، ويتفق له مثل بهجة أشعار البحتري وألفاظه".

([1]) فهذا سيد أحمد صقر يقول في مقدمة تحقيقه لإعجاز القرآن ٨٢ : "ولست أشك في أن الباقلاني قد حاد عن جادة الصّواب عندما حكم بأن بيت الصنوبري أخف من بيت البحتري . وغني عن البيان أن بيت الصنوبري ثقيل بالغ الثقل" . وكذلك فعل محمد محمد أبوموسى في كتابه الإعجاز البلاغي حيث رفض هذا التفضيل . انظر كتابه ٣١٢ .

([2]) محمد محمد أبو موسى : الإعجاز البلاغي ٣١٤ .

([3]) الباقلاني : إعجاز القرآن ١٢١ .

أما الجرجاني، فقد اشترك مع الباقلاني في الحديث عن الشعر بتخصيص فصل كتابه هذا للبحث فيه بعنوان: فصل في الكلام على من زهد في رواية الشعر وحفظه، وذم الاشتغال بعلمه وتتبعه، ولكنّه اختلف معه في النظرة إليه. فالشعر وهو ديوان العرب، وعنوان الأدب، وميدان التَّجَاري في الفصاحة والبيان بحاجة إلى وقفة منافحة تَذُبُّ الضيم الذي لحق به وبالشعراء، وتبيّن موقف الرسول ــ صلى الله عليه وسلّم ــ منه.

فهو يبدأ برواية مقولات الزاهدين في الشعر، و الذامين له قائلاً: ([1])"لا يخلو من كان هذا رأيه من أمور:

أحدها: أن يكون رفضه له، وذمّه إياه من أجل ما يجده فيه من هزل أو سخف، وهجاء وسب، وكذب وباطل على الجملة.

والثاني: أن يذمّه لأنه موزون مقّفى، ويرى هذا بمجرّده عيباً يقتضي الزّهد فيه، والتنزّه عنه.

والثالث: أن يتعلق بأحوال الشعراء، وأنها غير جميلة في الأكثر، ويقول: قد ذَمّوا في التتريل".

ثم نراه يتصدى لهم مفنداً آراءهم خطوة خطوة، بذكاء مُفكّر يحكمه المنطق العقلي في التحليل والاستنتاج: حيث يقول ــ بداية ــ: ([2])"وأيٌّ كان من هذه رأياً له، فهو في ذلك على خطأ ظاهر، وغلط فاحش، وعلى خلاف ما يوجبه القياس والنّظر، وبالضّد مما جاء به الأثر، وصحّ به الخبر".

فكان ردّه عن المقولة الأولى الذّامة للشعر لما فيه من هَزْل وسخف وكذب من وجوه:

١. الوجه الاوّل: تُحتّم هذه المقولة ذَمَّ الكلام كلّه، حيث لا يخلو أيُّ كلام من ذلك، خاصّة أن منثور الكلام أكثر من منظومه، لأن عامة الناس لا يقولون الشّعر، فالشعراء معدودون في كل زمان ومكان، ([3])"فلو عمد عامد، فجمع من جنس الهزل والسّخف نثراً في عصر واحد، لأربى على جميع ما قاله الشعراء نظماً في الأزمان الكثيرة".

([1]) الجرجاني : دلائل الإعجاز ١١ .
([2]) المرجع السابق نفسه ١١ .
([3]) المرجع السابق نفسه ١٢ .

ونلمس هنا في هذا الوجه تأثراً من الجرجاني بالجاحظ، كما لمسناه من قِبَلِ الباقلاني به من وجه آخر في باب الشعر ووزن كلام العامة، قبل قليل.

فقد استمد الجرجاني حجته في الرّد هذه من كلام سبقه إليه الجاحظ حول الشعر والنثر، أيهما أسرع إلى الحفظ حيث يقول: ([1])"وقيل لعبد الصّمد بن الفضل بن عيسى الرّقاشي: لم تؤثر السجع على المنثور، وتلزم نفسك القوافي وإقامة الوزن؟ قال: إنَّ كلامي لو كنتُ لا آمل فيه إلاّ سماع الشاهد لقلَّ خلافي عليك، ولكنّي أريد الغائب والحاضر، والرّاهن والغابر، فالحفظ إليه أسرع، والآذان لسماعه أنشط، وهو أحقُّ بالتقيد وبقلّة التفلّت. وما تكلّمت به العربُ من جيّد المنثور، أكثر مما تكلّمت به من جيّد الموزون، فلم يُحفظ من المنثور عُشرُه، ولا ضاع من الموزون عشره".

ونلاحظ هنا نضجاً في التأثر بالجاحظ فاق نَمَطَ تأثّر الباقلاني به، فالباقلاني التزم فكرة الجاحظ كما جاءت عنده في الموضوع عينه دون قياس أو معالجة أو استنباط برز عند الجرجاني في تأثره هذا، حيث امتلك القدرة على اجتزاء الفكرة من النّص المؤثّر، فقاس فكرة الجاحظ حول جيّد المنثور وجيّد المنظوم على حجته بأن المنثور بجيّده ورديئه يفوق المنظوم، ليثبت عدم اقتصار الهزل على الشعر دون غيره من الكلام.

٢. الوجه الثاني: والذي كان مخرجاً أكثر منه رَدّاً، يقول بضرورة ترك الإنسان لما يكره إلى ما يحبُّ، والاغتناء بالجدّ عما سواه.

٣. الوجه الثالث: ـــ وفيه شيء من مسوّغ مدعمّ بالشواهد ـــ يرى أنه ليس على الراوي إثم، وليس على الحاكي عيب، ([2])"وقد حكى الله ـــ تعالى ـــ كلام الكفّار، فانظر إلى الغرض الذي له رُويَ الشعر، ومن أجله أُريد، وله دُوِّنَ".

فَرُبَّ هَزْلٍ وباطلٍ استُعينَ به على جِدٍّ وحَقٍّ، والعكس صحيح. وكان شاهده القوي في تدعيم حجّته ما استشهد به العلماء ([3]) "لغريب القرآن وإعرابه بالأبيات فيها الفحش، وفيها ذكر

---

(١) الجاحظ : البيان والتبيان ١/٢٨٧ .

(٢) الجرجاني : دلائل الإعجاز ١٢ .

(٣) المرجع السابق نفسه ١٢

الفعل القبيح، ثم لم يعبهم، إذ كانوا لم يقصدوا إلى ذلك الفحش، ولم يريدوه، ولم يَروُوا الشعر من أجله". فالمعوّل عليه هنا ــ عنده ــ هو الغرض.

٤. الوجه الرّابع: فيه نصيحة يوصلها لك بطريقة إزاحة السّتار عن النقيض المنسي بالنسبة للمحتج بذمّ الشعر، فنراه يعدد فضائل الشعر دفاعاً عنه، فيتساءل بذكاء قائلاً: ([1])"فكيف وَضَعَ من الشعر عندك، وكسبه المقت منك، أن وجدت فيه الباطل والكذب وبعض ما لا يحسن، ولم يرفعه في نفسك، ولم يوجب له المحبّة في قلبك، أن كان فيه الحق والصدق والحكمة وفَصْلُ الخطاب، وأن كان مجنى ثَمَر العقول والألباب، ومجتمعَ فرَق الآداب، والذي قيّد على الناس المعاني الشريفة، وأفادهم الفوائد الجليلة، وترّسل بين الماضي والغابر، ينقل مكارم الأخلاق إلى الولد عن الوالد..... حتى ترى به آثار الماضين".

ثم نراه بعد أن ردّ على هذه المقولة بأربعة وجوه عقلية، انتقل إلى الدليل النقلي، ولعله أخّره بسبب عقليته التي سَيَّرَتْه فَعَجَّلَ بالردّ المنطقي مؤخراً النقلي المتعلّق بالرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ليكون مسك الختام، وذروة الحجاج.

فلذلك بدأ برواية الحديث في ذم الشعر، ويردّ عليه بشاهدين في مدح الشعر واستحسانه، فيقول: ([2])"وكيف رويْت: لأَن يمتلئَ جوفُ أحَدِكُمْ قَيْحاً، فَيُرِيَه، خيرٌ له من أن يمتلئ شعراً، ولهجت به وتركت قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ: "إنَّ مِنَ الشّعرِ لحكمةً، وإن من البَيانِ لسحراً"؟ وكيف نسيت أمره ــ صلى الله عليه وسلم ــ بقول الشعر، ووعده عليه بالجنة، وقوله لحسّان: "قُلْ وروحُ القُدُسِ مَعَكَ"، وسماعه له، واستنشاده إيّاه، وعلمه ــ صلى الله عليه وسلّم ــ به، واستحسانه له، وارتياحه عند سماعه؟".

ويفصّل في هذا الوجه، فيورد الشواهد الصحيحة عن الرسول ــ صلى الله عليه وسلّم ــ حول موقفه من الشعر:

١. فعن أمره به وسماعه إياه: ([3])"فقد كان حسّان، وعبدالله بن رواحة، وكعب بن زهير يمدحونه، ويسمع منهم، ويُصغي إليهم ويأمرهم بالردّ على المشركين".

([1]) الجرجاني : دلائل الإعجاز ١٥.
([2]) المرجع السابق نفسه ١٦ .
([3]) الجرجاني : دلائل الإعجاز ١٧ .

٢. وعن استنشاده الشعر، فقد أورد الجرجاني عن الرّسول ــ صلى الله عليه وسلّم ــ الشواهد الكثيرة، منها خبر عائشة ــ رضي الله عنها ــ أنها قالت: ([1])"كان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلّم ــ كثيراً ما يقول: أَبْيَاتَكِ".

٣. وعن علمه بالشعر: أورد الجرجاني شاهدين، لا يخلو أولهما من دعابة، حيث يتعلّق بزوجاته ــ صلى الله عليه وسلّم ــ حيث أنشدت أم المؤمنين سَوْدَة بنت زَمْعَة:

([2])"عَدِيٌّ وَتَيْمٌ تَبْتَغِي مَنْ تُحَالِفُ

فظنّت عائشة وحفصة ــ رضي الله عنهما ــ أنها عرّضت بهما، وجرى بينهنَّ كلام في هذا المعنى، فأُخبر النبي ــ صلى الله عليه وسلّم ــ فدخل عليهنَّ وقال: يا وَيْلَكُنَّ، ليس في عَدِيِّكُنَّ ولا تَيْمِكُنَّ قيل هذا، وإنما قيل هذا في عَدِيٍّ تميم وتَيْمِ تميم".

٤. وعن ارتياحه ــ صلى الله عليه سلّم ــ للشعر، واستحسانه له: أورد كذلك أخباراً كثيرة، من مثل حديث النابغة الجعدي، وحديث كعب بن زهير، وأخيه بُجَيْر وخبر قصيدة البردة([3]).

وبقوّة الحجة نفسها التي تحكم أسلوبه في ردّ العصبيّة تجاه الشعر، أَخَذَ يَرُدُّ المقولة الثانية الذّامة للشعر، لأنه موزون مقّفي، حيث يقول:

([4])"وإن زعم أنه ذمَّ الشّعر من حيث هو موزون مقفّى، حتى كأن الوزن عيب، وحتّى كأن الكلام إذا نُظِمَ نَظْمَ الشّعر، اتضح في نفسه، وتغيّرت حاله، فقد أبعد وقال قولاً لا يُعْرَفُ له مَعْنىً، وخالف العلماء في قولهم: إنما الشعر كلام فحسنه حُسَن، وقبيحه قبيح. وقد رُوِيَ ذلك عن النبي ــ صلى الله عليه وسلّم ــ مرفوعاً أيضاً. فإن زَعَمَ أنه إنما كَرِهَ الوزن، لأنه سبب ؛ لأن يتغنى في الشعر ويتلهى به، فإنّا إذا كُنّا لم ندعُهُ إلى الشعر من أجل ذلك، وإنما دعوناه إلى اللفظ الجزل، والقول الفصل، والمنطق الحسن، والكلام البيّن، وإلى حسن التمثيل والاستعارة، وإلى التلويح والإشارة، وإلى صنعة تعمد إلى المعنى الخسيس فتشرّفه، وإلى الضئيل فتفخمه".

([1]) الجرجاني : دلائل الإعجاز ١٩ .
([2]) المرجع السابق نفسه ٢٠ .
([3]) لتفصيل هذين الخبرين انظر المرجع السابق ٢١ حتى ٢٣ .
([4]) الجرجاني : دلائل الإعجاز ٢٤ .

وهو بردّه هذه المقولة يدحض حجة من ذَمَّ الشعر بسبب قوله تعالى ﴿وَما عَلَّمْنَاهُ الشِّعرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ [يس ٦٩]، فالرسول ــ صلى الله عليه وسلّم ــ وهو أفصح العرب، لم يُمْنَع الشعرَ لأن فيه البلاغة والبيان والفصاحة والبراعة، ولم يُمْنَعه الوزن، فسبب المنع [1]"غير ما ذهبوا إليه، وذاك أنه لو كان مَنْعَ تنزيه وكراهة، لكان ينبغي أن يكره له سماع الكلام موزوناً، وأن ينزّه سمعه عنه كما نُزِّهَ لسانُه، ولكان ــ صلى الله عليه وسلّم ــ لا يأمر به ولا يحث عليه، وكان الشاعر لا يُعانُ على وزن الكلام وصياغته شعراً، ولا يؤيد فيه بروح القدس.

وإذا كان هذا كذلك، فينبغي أن يُعْلَم أن ليس المنعُ في ذلك مَنْعَ تنزيه وكراهة، بل سبيل الوزن في منعه ــ عليه السّلام ــ إيّاه سبيل الخط، حين جُعَل عليه السلام لا يقرأ ولا يكتب، في أن لم يكن المنع من أجل كراهة كانت في الخط، بل لأن تكون الحجة أبهرَ وأقهرَ".

ولا يملك القارئ لهذه الكلمات إلا أن يشهد لهذا المحاجج الذكي بالتفوّق العقلي والإحاطة التّامة والتمكّن الكامل في الرد القوي على الخصم بالتدرّج به حتى يصل إلى مرحلة القناعة التّامة. وهو يتابع هذا في ردّه المقولة الثالثة الذّامة للشعر، والمتعلقة بأحوال الشعراء، استناداً للآيات القرآنية من سورة الشعراء.

وكعادته يأتي بالرّد، ثم بحجته في هذا الرّد وسبب أخذه له، حيث يقول: [2]"فما أرى عاقلاً يرضى به أن يجعله حجة في ذم الشعر وتهجينه، والمنع من حفظه وروايته، والعلم بما فيه من بلاغة، وما يختص به من أدب وحكمة، ذاك لأنه يلزم على قَوْد هذا القول أن يعيب العلماء في استشهادهم بشعر امرئ القيس وأشعار أهل الجاهلية في تفسير القرآن، وفي غريبه وغريب الحديث، وكذلك يلزمه أن يدفع سائر ما تقدّم ذكره من أمر النبي ــ صلى الله عليه وسلّم ــ بالشعر، وإصغائه إليه، واستحسانه له.

هذا، ولو كان يسوغ ذم القول من أجل قائله، وأن يُحْمَلَ ذنب الشاعر على الشّعر، لكان ينبغي أن يخص ولا يعم، وأن يستثني، فقد قال الله -عز وجل-: ﴿إلاّ الذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَذَكَروا اللهَ كثيراً﴾ [الشعراء ٢٢٧]".

---

[1] الجرجاني : دلائل الإعجاز ٢٦ .
[2] المرجع السابق نفسه ٢٨ .

وهكذا يكون عبد القاهر بهذا الأسلوب الراقي في الرد والحجاج قد دَحَضَ المقولات الثلاث المتعلّقة بذم الشعر. فأيَّ عناية اعتنى بها عبد القاهر بالشعر! وأيَّ اهتمام أولاه إياه! [1]"لقد نظر عبد القاهر إلى الشعر نظرة إجلال وإكبار، ورأى أن العناية به جديرة لأنه ديوان العرب، وأن الناقد ينبغي أن يكون عارفاً بأساليبه، مطلعاً على فنونه لكي لا يقع في الخطأ، فينظم الشعر، وينفي عنه ميزته، ويجعل الناس عنه زاهدين".

ويكون عبد القاهر في هذا الفصل من كلامه في الشعر ونظرته إليه أكثر نضجاً من نظرة الباقلاني، فهو لا يذّم الشّعر، ولا يرفضه، وإنما ينظر دائماً إلى غرض الشعر وجوهره، فهو المعوّل عليه عنده، ففي الشعر تبرز البلاغة العربية. فهو يقول في ذلك: ([2])"أردته لأعرف به مكان بلاغة، وأجعله مثلاً في براعة، أو احتج به في تفسير كتاب وسنّة، وأنظر إلى نظمه ونظم القرآن، فأرى موضع الإعجاز وأقف على الجهة التي منها كان".

ولم تتوقف عناية الجرجاني بالشعر، كَمثْلِ عدم توقفها هي عند الباقلاني، عند هذا الحد بتخصيص جزء من الكتابين للحديث في الشعر. لكّن الروح النقدية انبعثت منه في كل فصل من فصول الكتاب فكانت له وقفات نقدية جليلة، كما كانت للباقلاني، على اختلاف في الأسلوب والمعالجة، كما سيظهر في الفصل اللاحق.

فلقد ([3])"اهتم عبد القاهر بالوقوف على النصوص وتحليلها، وإظهار ما فيها من روعة وجمال أو تكلّف وإسفاف. وقد أعانته نظرية النظم وإدراكه لما في اللغة من قدرات على أن يبدع في التحليل، وأن يكون ألمع النقاد العرب في هذا المجال حتّى عُدَّ واضع أسس المنهج التحليلي في دراسة البيان".

ويأتي تحليله للنصوص الشعرية ونقدها باحتسابها شواهد شعرية مُعَزِّزة للقواعد والأصول المستنبطة، فمثال ذلك بيت امرئ القيس الذي استشهد به لِيَدعَمَ رأيه حول قضية تقديم الفعل وتقديم الاسم، والفعل مضارع في الاستفهام([4]) حيث يقول:

([1]) أحمد مطلوب : عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده ٢٢٣ .
([2]) الجرجاني : دلائل الإعجاز ٢٦ .
([3]) أحمد مطلوب : عبدالقاهر الجرجاني بلاغته ونقده ٢٢٥ .
([4]) وموجز القضيّة هو أنه عندما يقدّم الفعل المضارع في الاستفهام ويُراد الحال فهذا يعني الإيهام بعدم العلم بالحقيقة أن الفعْل كائنٌ ، وإن أُرِيد الاستقبال كان المعنى إنكار الفعل ، وزَعم بعدم كينونيته . انظر الجرجاني : دلائل الإعجازَ ١١٦ ، ١١٧ .

([1])"أيَقْتُلُني والمَشرَفِيُّ مُضَاجِعي   وَمَسنونةٌ زُرْقٌ كأنيابِ أغْوالِ؟

فهذا تكذيب منه لإنسان تَهَدَّدَهُ بالقتل، وإنكارٌ أن يقدر على ذلك ويستطيعَه".

ويتابع الجرجاني الاستشهاد بالبيت ناقداً له محللاً إيّاه، فهو ([2])"يقف طويلاً عند النصّ يقلّب فيه وجهات النّظر، ويبحث عمّا فيه من مزايا وخصائص". فيقول في نقده للبيت نفسه:

([3])"وقد يَظُنُّ الظّان أنه يجوز أن يكون في معنى أنه ليس بالذي يجيء منه أن يقتل مِثلي، ويتعلّق بأنه قال قبل:

يَغِطُّ غَطِيطَ البَكْرِ شُدَّ خِناقُهُ   لِيَقْتُلَني والمرءُ ليسَ بَقَتَّالِ

ولكنه إذا نظر عَلِمَ أنه لا يجوز، وذاك لأنه قال: والمشرفي مُضاجعي، فذكر ما يكون منعاً من الفعل".

وهكذا نلاحظ كيف يسخّر الجرجاني ثقافته اللغوية النحوية، والأدبية مستعيناً بعقليته الفذّة، ونظريته في النظم، وقدرته على الفهم العميق وذوقه الرفيع في تحليل النّصوص.

والجرجاني يضع شرطاً للناقد الجيّد، فليس النحوي أو اللغوي بقادِرَيْنِ على نقد الشعر نقداً صحيحاً، فلا بد للناقد من قدر محمود من الشاعرية، فنراه يقول: ([4])"فترى أن البحتري قال حين سُئِلَ عن مُسْلم وأبي نُواس: أيهما أشعر؟ فقال: أبو نواس. فقال: إن أبا العبّاس ثعلباً لا يوافقك على هذا. فقال: ليس هذا من شأن ثعلب وذويه، من المتعاطين لعلم الشعر دون عمله، إنما يعلَمُ ذلك من دفع في مَسْلَكِ طريق الشعر إلى مضايقه، وانتهى إلى ضروراته".

ولم يفصّل الجرجاني مذاهب اختيار أفضل الشعر، كما فعل الباقلاني، لكنه يختار مذهباً واحداً يرتضيه وجهاً لنقد الشعر دون أن يُنَظِّرَ له، لَكِنَّ المتأملَ لنقده الشعري يلمح هذا المذهب، وهو

([1]) الجرجاني : دلائل الإعجاز ١١٧ .
([2]) أحمد مطلوب : عبدالقاهر الجرجاني بلاغته ونقده ٢٤١ .
([3]) عبدالقاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ١١٩ .
([4]) المرجع السابق نفسه ٢٧٢ .

المذهب السابع الذي ذكره الباقلاني في اختيار أفضل الشعر والقائم على الصنعة وحسن تأدية الألفاظ للمعاني مع المراجعة والصقل.

فهذا المذهب يلتقي مع نظرية الجرجاني القائمة على فكرة النظم وأن المزّية في ترتيب المعاني وإعمال الفكر فيها، وترتيب الألفاظ تلقائياً بحكم أنها خَدَم للمعاني. وبناء عليه يكون أفضل الشعر عنده أرقاه نظماً. وهذا ظاهر في نقده لكل شاهد شعري في كتابه.

وكما هو الحال عند الباقلاني، فالجرجاني يَفْضُلُ البحتري على أبي تمّام فهو يرى في شعر البحتري ([1])"هذه الشذرات البارعة من أحوال الأوضاع اللغوية، جارية على سليقتها، واقعة مواقعها الثّرّة وفق الأغراض والمقاصد".

ولذلك نراه يستشهد بأشعاره ليدلّل على مواطن الجمال، وحسن التّصرف في النظم، بينما يستشهد بشعر أبي تمام ([2])"في المواضع التي تكون فيها صنعة أو تكلّف وتعقيد، ويذكر أنه لا يبالي بتحسين ظاهر اللفظ في كثير من الأحيان".

وهذا ظاهر في ثنايا كتابه بوضوح، ومثال ذلك قوله: ([3])"وممّا يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر، كلفظ "الأَخْدَع" في بيت الحماسة:......... وبيت البحتري:

وإنّي وإنْ بلّغْتَنِي شَرَفَ الغِنَى وَأَعْتَقْتَ مِنْ رِقّ المَطَامِعِ أَخْدَعِي

فإن لها في هذين المكانين ما لا يخفى من الحسن، ثم إنك تتأملها في بيت أبي تمام:

يَا دَهْرُ قَوِّمْ مِن أخْدَعَيْكَ، فَقَدْ أضْجَجْتَ هذا الأنَامَ مِنْ خُرُقِكْ

فتجد لها من الثقل على النفس، ومن التنغيص والتكدير، أضعاف ما وجدت هناك من الروح والخّفة، ومن الإيناس والبهجَة".

([1]) محمد محمد أبو موسى : الإعجاز البلاغي ٣٠٨ .
([2]) أحمد مطلوب : عبدالقاهر الجرجاني بلاغته ونقده ٢٢١ .
([3]) عبدالقاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ٤٧ .

هذا تمام الموازنة بينهما في باب الشعر ونقده، وكما لاحظنا فقد أبدع الرجلان في حسن التصرّف بنقد الشعر والشعراء، فالشعر عندهما حجة على اللغة، وشاهد على النحو، وطريق يسلكها طالب معرفة إعجاز القرآن لتهديَه الصواب.

لكنّ الباقلاني سلك طريقاً ، حمله عليها قول الملحدين في إمكانية الموازنة بين كلام الله وكلام البشر إلى درجة تفضي إلى تفضيل شعر الأرض عن كلام السّماء.

فهذه الطريق التي سلكها في إظهار العيب بالشّعْر، وتفليته وإزالة اللّثام عن الخلل فيه، أحادَتْهُ عن جادة الصّواب، بينما اتسمت نظرة الجرجاني للشّعر بالموضوعيّة في المعالجة النقدية دون أي تحامل. **وهكذا يكون الجرجاني في نظرته للشعر باتخاذه وسيلة لإثبات إعجاز القرآن قد فاق الباقلاني في هذه النظرة، حيث كانت أكثر نضجاً.**

الصرْفَة [1]

لا يخلو كتاب يبحث إعجاز القرآن من حديثٍ عن الصّرفة، لارتباطها ــ في نظر القائلين بها ــ بالعجز عن المعارضة، مع استمرار التحدي. **وأتساءل هنا قائلة: كيف كان موقف كلّ منهما من الصّرفة؟**

والجواب: لقد أشار كلٌّ منهما إلى الصّرفة في معرض الحديث عن التحدي والمعارضة، وردّا هذه المقولة بوصف الآخذين بها بأشنع الصفات، مع ذكر الحجة في إبطالها. وربما أحسّا أنهما بإسهابهما في هذا الموضوع، قد يخرجان عن هدفهما في كتابيهما، فأوجزا واكتفيا بعرض هذه المقولة الخبيثة، والرد عليها بحجة تشابهت، ثم بحجج تفاوتت في قدرتها في السيطرة على الألباب، وقوّتها في الإدحاض المقنع المنظّم.

فهذا الباقلاني يعرض القول بالصرفة قائلاً: [2]"فإن قيل: فلم زعمتم أن البلغاء عاجزون عن الإتيان بمثله مع قدرتهم على صنوف البلاغات، وتصرّفهم في أجناس الفصاحات؟

---

[1] تم تعريفها ، ومناقشة مذهبها وردّها في التمهيد ١٥ . فانظر ذلك .
[2] الباقلاني : إعجاز القرآن ٢٩ .

وهلاّ قلتم: إنّ من قدر على جميع هذه الوجوه البديعة بوجه من هذه الطرق العربية ــ كان على مثل نظم القرآن قادراً، وإنما يصرفه الله عنه ضرباً من الصّرف، أو يمنعه من الإتيان بمثله ضرباً من المنع، أو تقصر دواعيه إليه دونه، مع قدرته عليه. ليتكامل ما أراده الله من الدّلالة، ويحصل ما قصده من إيجاب الحجّة".

ثم يردف حجتهم الواهية التي قالوا بها، فعندهم (1)"أن من قدر على نظم كلمتين بديعتين، لم يعجز عن نظم مثلها ، وإذا قدر على ذلك قدر على ضمّ الثانية إلى الأولى، وكذلك الثالثة، حتى يتكامل قدر الآية والسورة".

فيرّد على هذه الحجة بردّ بسيط مناسب لمنطقهم الضعيف في قياس الأمور، حيث يقول: "فالجواب: أنه لو صحّ ذلك لصحّ لكل مَنْ أمكنه نظم ربع بيت، أو مصراع من بيت أن ينظم القصائد ويقول الأشعار، وصحّ لكل ناطق ــ قد يتفق في كلامه الكلمة البديعة ــ نظم الخطب البليغة والرّسائل العجيبة ! ومعلوم أن ذلك غير سائغ ولا ممكن".

ولا يكتفي بضرب هذا المثال في ردّها، لكنه يأتي بحجة ثانية لا تخلو من ذكاء، فما الداعي لكل هذه الفصاحة وهذه البداعة في النظم القرآني طالما أنهم مصروفون عن الإتيان بمثله؟ حيث يقول:(2) "على أن ذلك لو لم يكن معجزاً على ما وصفناه من جهة نظمه الممتنع، لكان مهما حطّ من رتبة البلاغة فيه، ومنع من مقدار الفصاحة في نظمه، كان أبلغ في الأعجوبة، إذا صرفوا عن الإتيان بمثله، ومنعوا من معارضته، وعدلت دواعيهم عنه، فكان يستغنى عن إنزاله على النظم البديع، وإخراجه في المعرض الفصيح العجيب".

وكأنه لم يكتفِ بهاتين الحجتين، فيردفُ حجته الثالثة المنطلقة مِنْ إيمانه من أن الجاهليين أقدر على معارضة القرآن بسبب فصاحتهم وبلاغتهم، من أهل عصره القائلين بالصرفة. فيقول: (3)"على أنه لو كانوا صُرفوا على ما ادعاه، لم يكنْ مَنْ قبلهم مِنْ أهل الجاهلية مصروفين عمّا كان يعدل به في الفصاحة والبلاغة وحسن النظم وعجيب الرّصف ؛ لأنهم لم يتحدوا إليه، ولم

(1) الباقلاني : إعجاز القرآن ٢٩ .
(2) المرجع السابق نفسه ٣٠ .
(3) المرجع السابق نفسه ٣٠ .

تلزمهم حجّته فلما لم يوجد في كلام من قبله مثله، علم أن ما ادّعاه القائل بالصّرفة ظاهر البطلان".

ثم يأتي بالحجة الرابعة، والتي يبدو أنها كانت شائعة في زمانه في الرّد على الصرفيين، حيث احتج بها الجرجاني، كما سيأتي، والقاضي عبد الجّبار المعتزلي([1])، حيث قال الباقلاني: ([2])"ومما يبطل ما ذكروه من القول بالصّرفة أنه لو كانت المعارضة ممكنة ـــ وإنما مَنَع منها الصّرفة ـــ لم يكن الكلامُ معجزاً، وإنما يكون المنع هو المعجز، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه".

ولا أزعم بأنني قادرة على الجزم إنْ كان الباقلاني مُؤَثِّراً بالجرجاني أو الأسدابادي، أو كان متأثراً، لعدم إمكانية الجزم بسنة تأليف كتب هؤلاء العلماء المتقاربي سنوات الوفاة !

ولكني لا أعلم السبب الذي جعل الباقلاني يُسهِبُ في الحجج العقلية الرادة للصّرفة، ويَغُضُّ بصره عن الدليل النقلي الذي اعتمده كل العلماء المبطلين القول بالصّرفة([3])، والذي اكتفى به الخطابي حجةً مدحضة، وهو آية التحدي في سورة الإسراء !

أما الجرجاني: فقد اقتصر في كتابه: دلائل الإعجاز على الإشارة إلى موضوع الصرفة إشارة عاجلة، لكنها لا تخلو من فائدة عظيمة. وعَجَلَتُهُ في عرضها في كتابه هنا ناتجة عن تخصيصه نهاية رسالته الشافية لمناقشة فكرة الصّرفة، وتفنيد آراء القَائلين بها، وردّها جميعها بالدليل النقلي والحجج العقلية التي لا تخلو من منطق وحنكة في طريقة التتبع([4]).

فقد ابتدأ الجرجاني في الدلائل حديثه عن الصرفة بتعليل سبب لجوء الناس إلى مقولة الصرفة الخبيثة الناتجة عن ضعف الدين وكسل الفكر، ([5])"فلولا أن الشيطان قد استحوذ على كثير من الناس في هذا الشأن، وأنهم بترك النّظر، وإهمال التدّبير، وضعف النيّة، وقصَر الهمّة قد طرقوا له

([1]) جاء في كتاب المغني في أبواب التوحيد والعدل ٣٢٣/١٦ "بيّنا أن هذا الوجه لو صحّ لم يوجب كون القرآن معجزاً ، وكان يجب أن يكون المعجز منعهم من فعل مثله ، .... ومن سلك هذا المسلك في القرآن يلزمه أن لا يجعل له مزية البتة" .

([2]) الباقلاني : إعجاز القرآن ٣٠ .

([3]) انظر مثلاً : القاضي عبدالجبار : المغني في أبواب التوحيد والعدل ٣٢٢/١٦ . والجرجاني : الرسالة الشافية ١٤٨ والرازي : نهاية الإعجاز ٣٣ ، والزركشي : البرهان في علوم القرآن ٩٤/٢ .

([4]) انظر الجرجاني : الرسالة الشافية (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) ١٤٦ حتى ١٥٤ .

([5]) الجرجاني : دلائل الإعجاز ٣٩٠ .

حتى جعل يلتقي في نفوسهم كل محال وكل باطل، وجعلوا هم يُعطون الذي يُلقيه حَظّاً من قبولهم، ويُبَوِّؤونه مكاناً من قلوبهم، لما بلغ من قدر هذه الأقوال الفاسدة أن تدخل في تصنيف".

وإنّ المتدبّر لهذه الأسباب يجدها حقّاً خير مسوّغ للّجوء لهذه المقولة، ولغيرها من الافتراءات على القرآن، التي أسماها الشّناعات.

وزيادة حرص منه على تفهيم القارئ، والسير معه خطوة خطوة نحو وعي المسألة يُعَرِّفُ الصرفة، كما فعل الباقلاني، لكنه يجمع فقرات ألفّها الباقلاني، ببراعته في التأليف ليشرح الصرفة: بتعريفها، ثم رَدِّ القول بها، وإيراد حجة ذلك، في فقرة واحدة.

فهو يقول في ذلك: ([1])"ثم إن هذه الشّناعات التي تقدّم ذكرها، تلزم أصحاب "الصَّرفة" أيضاً، وذاك أنه لو لم يكن عجزهم عن معارضة القرآن وعن أن يأتوا بمثله، لأنه معجز في نفسه، لكن لأن أُدْخِلَ عليهم العجزُ عنه، وصُرفت هممهم وخواطرهم عن تأليف كلام مثله، وكان حالهم على الجملة، حال من أُعدم العلمَ بشيء قد كان يعلمه، وحيل بينه وبين أمرٍ قد كان يتّسع له، لكان ينبغي أن لا يتعاظمهم، ولا يكون منهم ما يدل على إكبارهم أمرَهُ، وتعجبهم منه، وعلى أنه قد بهرهم، وعظم كل العظم عندهم، بل كان ينبغي أن يكون الإكبار منهم والتّعجب للذي دخل من العجز عليهم، ورأوه من تغيّر حالهم، ومِنْ أن حِيل بينهم و بين شيء قد كان عليهم سهلاً، وأن سُدَّ دونَه بابٌ كان لهم مفتوحاً".

فهو هنا يلتقي مع الباقلاني في حُجَّتِه التي ارتضاها مُبطلةً للصّرفة، فالعجز عندئذٍ يكون للمنع لا للقرآن، ولا حاجة عندئذٍ من تعجبهم من نظمه البديع !

وهو لا يكتفي بهذه الحجة، بل على عادته في تقريب الأمور وتبسيطها يضرب مثالاً يؤكد ما ذهب إليه من دليل على فساد الصرفة فيقول: ([2])"أرأيت لو أن نبيّاً قال لقومه: إنّ آيتي أن أضع يدي على رأسي هذه السّاعة، وتُمنعون كُلُّكُم من أن تستطيعوا وضع أيديكم على رؤوسكم وكان الأمر كما قال، مِمَّ يكون تعجُبُ القوم، أمِنْ وضعه يده على رأسه، أم من عجزهم أن يضعوا أيديهم على رؤوسهم؟".

([1]) الجرجاني :دلائل الإعجاز ٣٩١ .
([2]) المرجع السابق نفسه ٣٩١ .

وهكذا نلاحظ قدرة هذا الرجل على تكثيف المعلومات والمهارة العالية في عرضها، ولولا الحجج الأربعة التي أوردها الباقلاني في رد الصّرفة، لفضّلْتُ الجرجاني عليه، فيما عرضاه حولها، لكنّي، بغضِّ النظر عن رسالته الشافية التي لو أدخلتها حيّز الموازنة لحكمت حينها للجرجاني بالتفوّق على الباقلاني، أجعلهما متكافئين هنا.

التحدي والمعارضة

ونصل في موازنتنا إلى التحدي والمعارضة عندهما، فهما طريق إثبات إعجاز القرآن، ففي العجز عن معارضة القرآن، مع طول التحدي إليه، والتقريع به، دليل إلى إقرار إعجازه من طريق. وهو دليل ([1])"بمنزلة من رأى اليد البيضاء، وانقلاب العصى ثعباناً تتلقّف ما يأفكون".

ولذلك نرى أن كُلاًّ منهما قد خصّص حيّزاً من كتابه تتبّع فيه قضية التحدي والمعارضة، حيث اتفقا في التأصيل للقضية، ثم بسردِ الأدلة نقلية وعقلية، وافترقا في العنوانات الفرعية المعالجة، والتي بلورها فارق فكري عظيم في النظرة للقضية حيث عالج الباقلاني موضوعاتها معالجة فلسفية، بينما استطاع أن يبقى الجرجاني في مسائل التحدي والمعارضة الفرعية المناقَشَة ضمن موضوع كتابه القائم على تحديد وجه الإعجاز القرآني.

فلعلّ الباقلاني قد شعر بهذه الفلسفية الفكرية للقضايا الفرعية مناط البحث، فوقى نفسه من اتهام بالضعف يحكم منهجيته في الخروج عن هدف الكتاب، فأسرع بتعليل عدم إسهابه في الحديث في التحدي والمعارضة،حيث يقول: ([2])"وليس الغرض تحقيق القول في هذا الفصل، لأنه خارج عن مقصود كلامنا، ولكّنا ذكرناه من جهة دلالة الآية عليه".

فهو بداية يقرُّ بأن التحدي أصل لا يمكن ردّه، فيقول ـــ بلغة قاطعة جازمة ـــ: ([3])"القرآن من عند الله. فهذا أصل، وإذا ثبت هذا الأصل وجوداً، فإنا نقول: إنه تحدّاهم إلى أن يأتوا بمثله، وقرّعهم على ترك الإتيان به، طول السّنين التي وصفناها، فلم يأتوا بذلك. وهذا أصل ثانٍ".

([1]) الباقلاني : إعجاز القرآن ٢٥١ .
([2]) المرجع السابق نفسه ١٨ .
([3]) المرجع السابق نفسه ١٧ .

وَتَعْقبُ الإقرارَ بأصل القضية، مرحلةُ التدليل على صحة ما ذهب إليه، والاستشهاد بآيات التحدي حيث يقول:([1])"والذي يدل على هذا الأصل: أنا قد علمنا أنَّ ذلك مذكور في القرآن في المواضع الكثيرة، كقوله ﴿وَإنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلى عَبْدنَا فَأتُوا بسُورَة منْ مثْله، وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّنْ دونِ اللهِ إن كُنتُمْ صَادقينَ. فَإن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ أعِدَّتْ للْكَافرينَ﴾ [البقرة٢٣ ، ٢٤] وكقوله ﴿أمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ، قُلْ فَأتُوا بعَشْرِ سُوَرٍ مثله مُفْتَرَيَات، وَادْعُوا منْ استَطَعْتُم منْ دون الله إنْ كُنْتُم صادقين، فَإنْ لَمْ يَسْتَجيبوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أنَّمَا أنْزلَ بعلم الله، وأنَّ لا إلهَ إلاّ هُوَ، فَهَلْ أنْتُم مُسْلمُون﴾ [هود ١٣، ١٤] فجعل عجزهم عن الإتيان بمثله دليلاً على أنه منه...... ومن ذلك قوله ﴿قُلْ لَئنْ اجْتَمَعَتْ الإنْسُ وَالجَنُّ عَلى أنْ يَأتُوا بمثْلِ هَذا القُرآنِ لا يَأتونَ بمثْله وَلَو كانَ بَعْضُهُم لبَعْضٍ ظَهيراً﴾ [الإسراء ٨٨] وقوله ﴿أم يَقُولونَ تَقَوَّلَهُ، بَل لا يُؤمنُون، فَليَأتُوا بحَديثٍ مثْله إنْ كانوا صادقين﴾ [الطور ٣٣، ٣٤]. فقد ثبت بما بيناه أنه تحداهم إليه، ولم يأتوا بمثله".

فيكون الباقلاني بهذا قد أثبت جميع آيات التحدي الواردة في القرآن دون أن يشير إلى ترتيب هذه الآيات من حيث النزول([2])، وقد أصاب فيما فعل، فقد انشغل عن هذه المسألة بما هو أهم منها، وهو التصدي للرّد على حجج المبطلين للتحدي، والمشككين في عدم قدرة العرب خاصة، وسائر الخلق عامة على معارضة القرآن.

فمن هذه الادعاءات الواهية التي ردّها قولهم: ([3])"لعله([4]) لم يقرأ عليهم الآيات التي فيها ذكر التحدي، وإنما قرأ عليهم ما سوى ذلك من القرآن. كان ذلك قولاً باطلاً، يُعْلَمُ بطلانُهُ...... وحكاية قول من قال ذلك يغني عن الرّد عليه، لأن العدد الذين أخذوا القرآن في الأمصار وفي البوادي، وفي الأسفار والحضر، وضبطوه حفظاً من بين صغير وكبير، عرفوه حتى صار لا يشتبه على أحد منهم حرف، لا يجوز عليهم السهو والنسيان، ولا التخليط فيه والكتمان. ولو زادوا أو نقصوا أو غيروا لظهر".

([1]) الباقلاني: إعجاز القرآن ١٧.
([2]) حيث أصبحت هذه المسألة قضية خلافية بين العلماء القدماء والمحدثين .
([3]) الباقلاني : إعجاز القرآن ١٩ .
([4]) الضمير عائد على الرّسول – صلى الله عليه وسلم – .

ثم نراه لا يكتفي بردّه هذا لهذه المسألة، على هُزالها وضعفها، لكنه بأسلوبه التعليمي، الذي يجنح فيه لضرب الأمثلة على سبيل القياس، يقوّي حجته بحجة قياسيّة ثانية قائلا: ([1])"وقد علمت أن شعر امرئ القيس وغيره، على أنه لا يجوز أن يظهر ظهور القرآن، ولا أن يُحْفَظَ كحفظه، ولا أن يُضْبَطَ كضبطه، ولا أن تُمَسَّ الحاجةُ إليه إمساسها إلى القرآن، لو زِيدَ فيه بيتٌ، أو نُقِصَ منه بيتٌ، لا، بل لو غُيِّرَ فيه لفظ، لتبرَّأَ منه أصحابه، وأنكره أربابه. فإذا كان ذلك مما لا يمكن أن يكون في شعر امرئ القيس ونظرائه، مع أن الحاجة إليه تقع لحفظ العربية، فكيف يجوز أو يمكن ما ذكروه في القرآن، مع شدّة الحاجة إليه؟".

ويعرض الباقلاني لرأي ثانٍ مبطلٍ للتحدي، رابطٍ عدم القدرة على التحدي بعصر دون عصر، فيردّه بالعقل والنقل، حيث يقول: ([2])"فإن قال قائل: قد يجوز أن يكون أهل عصر النبي – صلّى الله عليه وسلّم – قد عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن، وإن كان مَنْ بعدهم مِنْ أهل الأعصَارِ لم يعجزوا، قيل: هذا سؤال معروف، وقد أُجيب عنه بوجوه ... والوجه أن يقال: فيه طرق، منها: أنّا إذا علمنا أن أهل ذلك العصر كانوا عاجزين عن الإتيان بمثله، فَمَنْ بعدهم أعجز، لأن فصاحة أولئك في وجوه ما كانوا يَقتَنُّون فيه من القول مما لا يزيد عليه فصاحة مَنْ بعدهم، وأحسن أحوالهم أن يُقارِبوهم أو يُساوُوهم، فأما أن يتقدّموهم أو يسبقوهم، فلا.

ومنها: أنّا قد علمنا عجز سائر أهل الأعصار كعلمنا بعجز أهل العصر الأوّل، والطريق في العلم بكل واحد من الأمرين طريق واحد ؛ لأن التحدي في الكل على جهة واحدة، والتنافس في الطّباع على حَدٍّ واحد، والتكليف على منهاج لا يختلف، ولذلك قال الله – تبارك وتعالى – ﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنْسُ وَالجَنُّ عَلى أنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذا القُرآنِ لا يَأتونَ بِمِثْلِه وَلَو كانَ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ ظَهيراً﴾ [الإسراء ٨٨]".

ونراه يؤكد هـــذا المعنى، في موضع آخر، حيث يقول ([3])"وإن كان قد يعلم بعجز أهل العصر الأول عن الإتيان بمثله، وجه دلالته، فيغني بذلك عن نظر مجدَّد في عجز أهل هذا العصر

[1] الباقلاني : إعجاز القرآن ١٩ .
[2] المرجع السابق نفسه ٢٥٠ .
[3] المرجع السابق نفسه ٨ .

عن الإتيان بمثله. وكذلك قد يغني عجز أهل هذا العصر عن الإتيان بمثله عن النظر في حال أهل العصر الأول".

وليته التزم رأيه هذا، ولم يضطرب فيتراجع عنه([1])، ويخص بالتحدي أهل العصر الأول حيث قال في ردّه عجز أهل عصره عن المعارضة: ([2])"وإنما ذكرنا هذا الفصل، لما حكي عن بعضهم أنه زعم أنه وإن كان قد عجز عنه أهل العصر الأول فليس أهل هذا العصر بعاجزين عنه، ويكفي عجز أهل العصر الأول في الدّلالة، لأنهم خصوا بالتحدي دون غيرهم".

وأقول: لقد جانب الباقلاني الصوابُ عندما خَصَّ أهل العصر الأول بالتحدي فما دام الإعجاز باقياً بقاء الدهر، فالتحدي بالقرآن واقعاً على أهل كل زمان. ولا أوافق عائشة عبد الرحمن الرأي الذي ارتضته مسوّغاً للباقلاني في اضطرابه هذا قائلة: ([3])"وأحسبه ما تحيّر في موقفه إلاّ لأنه لم يفصل بين الإعجاز باقياً أبداً ملزماً للناس جميعاً على اختلاف العصور، وامتداد الزمن، وبين التحدي مطروحاً على المشركين في عصر المبحث، قد حسمه عجزهم عن أن يأتوا بمثله، وفيهم أمراء البيان ومن يظاهرهم من جن فيما زعموا".

ويظهر تأثرّ الباقلاني بالجاحظ([4]) في عرضه غريزة العرب في التحدي والمعارضة، ودليل أهليتهم للتحدي، فهم أهل الفصاحة والبلاغة، ثم تركهم الإتيان بمثله لعجزهم عنه.

فيقول الباقلاني: ([5])"والذي يدل على أنهم كانوا عاجزين عن الإتيان بمثل القرآن: أنـــه تحداهم إليه حتى طال التحدي ...... فلو كانوا يقدرون على تكذيبه لفعلوا .... بأمر قريب هو عادتهم في لسانهم، ومألوف من خطابهم، وكان ذلك يغنيهم عن تكلّف القتال، وإكثار المراد والجدل، وعن الجلاء عن الأوطان .... فلما لم تحصل هناك معارضة منهم، عُلِمَ أنهم عاجزون عنها. .... هذا، والحمية حميتهم، والهمم الكبيرة هممهم، وقد بذلوا له السيف فأخطروا بنفوسهم

([1]) تقول بنت الشاطئ في هذا : "وأخشى أن أظلم القاضي الباقلاني بنقل فقرات من كلامه فقد أراها تحدّد موقفاً له من قضيتي الإعجاز والتحدي ، فالحقُّ أنني ما أكاد أستبين له رأياً في فقرة أنقلها من كلامه ، حتى يبدو لي في فقرة أخرى تالية ، غير ما فهمته من الفقرة قبلها" انظر : الإعجاز البياني للقرآن ٦٨ .

([2]) الباقلاني : إعجاز القرآن ٨ .

([3]) عائشة عبدالرحمن : الإعجاز البياني للقرآن ٦٨ .

([4]) انظر ما مرّ في التمهيد من مقتبس حديث الجاحظ حول ذلك في حجج النبوة .

([5]) الباقلاني : إعجاز القرآن ٢١ .

وأموالهم، فكيف يجوز أن يتوصلوا إلى الردّ عليه وإلى تكذيبه بأهون سعيهم، ومألوف أمرهم، وما يُمكن تناوله من غير أن يَعْرَقَ جبين ..... وهو لسانهم الذي يتخاطبون به، مع بلوغهم في الفصاحة النهاية التي ليس وراءها متطلع، والرتبة التي ليس فوقها منزع ! ..... وقد أخبر الله ــ تعالى ــ عنهم: أنهم ﴿قَوْمٌ خَصِمُون﴾ [الزخرف ٥٨] وقال: ﴿وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا﴾ [مريم ٩٧].

ويثير الباقلاني قضية مهمّة، وهي عدم اشتراط التحدي دائماً وسيلة لمعرفة إعجاز القرآن، ويقيس هذا بآيات موسى وعيسى ــ عليهما السلام ــ فليست جميعها مقرونة بالتحدي.

فمن كان على درجة رفيعة من الفصاحة والبلاغة، وأقرّ بعجزه عن الإتيان بمثله تاركاً العناد والاستكبار، يدرك الإعجاز دون الجنوح للمعارضة بعد التحدي ، يقول الباقلاني في هذا: ([1])"وأما من كان من صنعة العربية، والتقدّم في البلاغة، ومعرفة فنون القول، ووجوه المنطق فإنه يعرف ــ حين يسمعه ــ عجزه عن الإتيان بمثله، ويعرف أيضاً أهل عصره، ممن هو في طبقته، أو يدانيه في صناعته عَجْزَهم عنه، فلا يحتاج إلى التحدي، حتى يعلم كونه معجزاً ".

فالمتناهي في الفصاحة والبلاغة، متى يسمع القرآن يعرف إعجازه، وحجته في ذلك الرّسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ حيث يقول: ([2])"وإن لم نقل ذلك أدّى هذا القول إلى أن يُقال: إن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ لم يعرف إعجاز القرآن حين أوحي إليه، حتى سَبَرَ الحال بعجز أهل اللسان عنه ! وهذا خطأ في القول".

ولذلك نراه يسوق الأدلّة من التراث والشواهد لأناس أسلموا بمجرّد سماعهم القرآن الكريم أمثال: عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ وجُبَيْر بن مُطعِم، وغيرهما([3]). ويستشهد بالشاهد البيّن في هذه المسألة فيقول: ([4])"وأبين من ذلك قول الله ــ عز وجل ــ ﴿وإنْ أحَدٌ مِنَ المُشرِكينَ استجارَكَ فَأجِرْهُ حَتَّى يُسْمَعَ كلامَ اللهِ ثُمَّ أبْلِغْهُ مَأمَنَهُ﴾ [التوبة ٦] فجعل سماعه حجة عليه بنفسه فدَلَّ على أن فيهم من يكون سماعه إياه حجة عليه".

([1]) الباقلاني :إعجاز القرآن ٢٥٢ .
([2]) المرجع السابق نفسه ٢٦ .
([3]) لتفصيل هذه الأخبار انظر إعجاز القرآن ٢٧ ، ٢٨ .
([4]) الباقلاني : إعجاز القرآن ٢٨ .

وقد يتصدّى رافض لهذا القول فيرى أن فيه إلزاماً لكل من كان فصيحاً أن يسلم بمجرّد سماعه له، وعليه كان جواب الباقلاني أنه: ([1])"لا يجب ذلك، لأن صوارفهم كانت كثيرة، منها أنهم كانوا يشكّون: ففيهم من يشك في إثبات الصانع، وفيهم من يشكُّ في التوحيد، وفيهم من يشك في النبوّة. ألا ترى أن أبا سفيان بن حرب لما جاء إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلّم ــ ليسلم عام الفتح، قال له النبي ــ عليه السلام ــ : أما آن لك أن تشهد أن لا اله إلاّ الله؟ قال: بلى، فشهد. قال أما آن لك أن تشهد أني رسول الله؟ قال: أما هذه ففي النفس منها شيء؟!...... ولو كانوا في الفصاحة على مرتبة واحدة، وكانت صوارفهم وأسبابهم متفّقة لتوافوا إلى القبول جملة واحدة".

ويظهر تأرجح الباقلاني من جديد في مسألة اختصاص أهل العصر الأول من أهل الفصاحة والبيان بالتحدي، حيث يرى أن ([2])"الأعجمي لا يعلم أنه معجز إلاّ بأن يعلم عجز العرب عنه، وهو يحتاج في معرفة ذلك إلى أمور لا يحتاج إليها من كان من أهل صنعة الفصاحة".

ويتابع فيضم إلى الأعجمي المتوسط من أهل اللسان، والمتناهي في معرفة الشعر وحده، أو الغاية في معرفة الخطب وحدها. ولا يخفى ما في رأيه هذا من ضعف، فليس الفصيح مختصاً بالتحدي دون سواه، لكن ثبوت عجزه عن معارضة القرآن، يدل دلالة قاطعة على عجز سواه.

ويتطرق الباقلاني لقضية معارضة القرآن، فيؤكد أنه مما لا يطيقه بشر، ولا يقدرون عليه، لذلك نراه يضعف ادعاء معارضة ابن المقفع للقرآن الكريم، فقد ظنَّ قومٌ أنه في كتابه "الدرّة"، و"التليمية" قد عارض القرآن، لأن الكتابين يتضمنان حكماً وشيئاً من الديانات، فيقول: ([3])"فليس يوجد له كتاب يدّعي مدّعٍ أنه عارض فيه القرآن، بل يزعمون أنه اشتغل بذلك مدّةً، ثم مزّق ما جمع، واستحيا لنفسه من إظهاره. فإن كان كذلك فقد أصاب وأبصر القصد، ولا يمتنع أن يشتبه عليه الحال في الابتداء ثم يلوح له رشده، ويتبين له أمره وينكشف له عجزه".

([1]) الباقلاني : إعجاز القرآن ٢٩ .
([2]) المرجع السابق نفسه ٢٥ .
([3]) المرجع السابق نفسه ٣٢ .

ونراه قد أوهى كلام مُسيلمة الكذّاب، واستحقر ما جاء به من حماقات يزعم أنه بها عارض القرآن، فيقول: ([1])"فهو أخسُّ من أن نشتغل به، وأسخف من أن نفكّر فيه. وإنما نقلنا منه طرفاً ؛ ليتعجّب القارئ، وليتبصّر الناظر، فإنه على سخافته قد أضلّ، وعلى ركاكته قد أزلّ....... فما كان يزعم أنه نزل عليه من السماء: والليل الأطخم، والذئب الأدْلم، والجذع الأزلم، ما انتهكت أسيد من محرم !".....وقال أيضاً: والليل الدامس، والذئب الهامس، ما قطعت أسِيد من رطب ولا يابس !".

وهو ينفي مقولة ادعاها بعضهم من أنه قد عُورِضَ لكنَّ أحداً لم ينقل إلينا هذه المعارضة، فيقول: ([2])"ولو كان وُجِدَ له مِثْلٌ لكان يُنْقَلُ إلينا، ولعرفناه، كما نُقِلَ إلينا أشعار أهل الجاهلية، وكلام الفصحاء والحكماء من العرب، وأُدِّيَ إلينا كلام الكهّان وأهل الرجز والسجع والقصيد، وغير ذلك من أنواع بلاغتهم، وصنوف فصاحتهم".

وهكذا يكون الباقلاني قد أشبع قضية التحدي والمعارضة بحثاً وتمحيصاً، ضمن إطار فكري فلسفي.

أما الجرجاني فقد اهتم بقضية التحدي والمعارضة أيضاً، لكنه أبقاها شديدة الوثاق بمضمون كتابه القائم على إقرار نظرية النظم، وجه إعجاز القرآن.

فهو يعتبر التحدي دليلاً على إعجاز القرآن حيث يقول: ([3])"إذا سقنا دليل الإعجاز فقلنا: لولا أنهم حين سمعوا القرآن، وحين تحدوا إلى معارضته سمعوا كلاماً لم يسمعوا قط مثله، وأنهم رازوا أنفسهم فأحسّوا بالعجز عن أن يأتوا بما يوازيه أو يدانيه أو يقع قريبا منه لكان محالا أن يَدَعُوا معارضته وقد تحدّوا إليه، وقرعوا فيه، وطُولبوا به، وأن يتعرضوا لشبا الأسنّة، ويقتحموا مواردَ الموت".

والملاحظ هنا أيضاً أن الجرجاني قد تأثر بالجاحظ في حجته الرادة لقدرتهم على المعارضة في تركهم السهل ولجوئهم إلى الصعب.

([1]) الباقلاني : إعجاز القرآن ١٥٧ .
([2]) المرجع السابق نفسه ٢٤ .
([3]) الجرجاني : دلائل الإعجاز ٣٨ .

ثمَّ ابتدأ عرضه التحدي ببيان لمعناه، وتوضيح للشيء الذي طُولبوا أن يأتوا به فيقول: ([1])"إنكم تتلون قول الله ـــ تعالى ـــ ﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنْسُ وَالجَنُّ عَلى أنْ يَأتُوا بِمِثْلِ هَذا القُرآنِ لا يَأتونَ بِمِثْلِهِ﴾ [الإسراء ٨٨]، وقوله ـــ عَزَّ وجَلَّ ـــ ﴿قُلْ فَأتُوا بِعَشْرِ سورٍ مِثْلِهِ﴾ [هود ١٣]، وقوله ﴿بِسورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة ٢٣]، فقولوا الآن: أيجوز أن يكون تعالى قد أمر نبيّه ـــ صلّى الله عليه وسلّم ـــ بأن يتحدى العرب إلى أن يعارضوا القرآن بمثله، من غير أن يكونوا قد عرفوا الوَصْفَ الذي إذا أَتَوْا بكلام على ذلك الوصف، كانوا قد أتوا بمثله؟".

ويجيب مباشرة عن سؤاله هذا بـــ "لا"، لأن تجويز ما افترض مِنْ عدم معرفتهم بوصف الكلام المعارض يبطل التحدي، حيث ([2])"لا تصحُّ المطالبة بالإتيان به على وصف من غير أن يكون ذلك الوصف معلوماً للمطالب، ويبطل بذلك دعوى الإعجاز أيضاً. وذلك لأنه لا يتصور أن يُقال: إنه كان([3]) عَجْزٌ، حتى يَثْبُتَ مَعْجوزٌ عنه مَعْلُومٌ".

لكنَّ الجرجاني المُعلِّم، بأسلوبه القريب، يخشى عدم وضوح الفكرة، فيقّربها بضرب مثال توضيحي على عادته، فيقول: ([4])"أفلا ترى أنه لو قال رجل لآخر: إنني أحدثت في خاتم عَمِلْتُهُ صَنْعَةً أنت لا تستطيع مثلها، لم تَتَّجهُ لَهُ عليه حُجة، ولم يَثْبُتْ به أنه قد أتى بما يُعْجزه، إلاّ مِنْ بعد أن يُرِيَهُ الخاتم، ويُشير له إلى ما زَعَمَ أنه أَبْدَعَه فيه من الصنعة، لأنه لا يصحُّ وصف الإنسان بأنه قد عَجَزَ عن شيء، حتى يُريدَ ذلك الشيء ويقصدَ إليه، ثم لا يتأتى له".

ثم يشرع الجرجاني بتحديد سِمة هذا الوصف للكلام الذي لا يمكن الإتيان بمثله، فهو لا يكون إلاّ في القرآن الكريم، فما عُرِفَ قبلَ نزوله ولذلك لا يجوز أن يكونَ هذا الوصف في:

١. الكَلِم المفردة: حيث لا يَصِحُّ أن نفترض أن الألفاظ المفردة، التي هي أوضاع اللغة، ([5])"قد اختصت في أنفسها بهيئات وصفات يسمعها السامعون عليها إذا كانت متلوّة في القرآن، لا يجدون لها تلك الهيئات والصفات خارج القرآن".

([1]) الجرجاني : دلائل الإعجاز ٣٨٥ .

([2]) المرجع السابق نفسه ٣٨٦ .

([3]) كان هنا تامّة .

([4]) الجرجاني : دلائل الإعجاز ٣٨٦ .

([5])المرجع السابق نفسه ٣٨٦ .

٢. معاني الكَلم المفردة: ([1])"التي هي لها بوضع اللغة، لأنه يؤدي إلى أن يكون قد تجددّ في معنى "الحمد" و"الرب"، ومعنى "العالمين" و"الملك" و"اليوم" و"الدين"، وهكذا، وَصْفٌ لم يَكُنْ قبلَ نزول القرآن".

٣. ترتيب الحَرَكَات والسَّكَنَات: [2]"حتى كأنهم تحدّوا إلى أن يأتوا بكلامٍ تكون كلماته على تواليه في زنة كلمات القرآن، وحتى كأن الذي بان به القرآن من الوصف في سبيل بينونة بحور الشعر بعضها من بعض، لأنه يَخْرج إلى ما تعاطاه مُسَيْلمة من الحماقة في "إنا أعطيناك الجَمَاهِر، فصلِّ لربِّك وجاهر"، "والطاحنات طحناً"".

٤. كلام يُجْعَلُ له مقاطع وفواصل: ([2])"لأنه أيضاً ليس بأكثر من التعويل على مراعاة الوزن، وإنما الفواصل في الآي كالقوافي في الشّعر، وقد علمنا اقتدارهم على القوافي كيف هو".

٥. عدم وقوع ما يثقل على اللسان في حروفه([3]).

فَمَنْ ظَنَّ أن الوصف المُتحدى به كائنٌ في واحدة من هذه الخمس، فمردُّ ذلك إلى ([4])"سوء المعرفة بهذا الشأن، أو للخِذْلان، أو لشهوة الإغراب في القول".

ثم نراه يؤكد أن هذا الوصف يختصُّ بالفصاحة والبلاغة ودقة النّظم، فمعارض القرآن عليه أن يأتي بكلام يساويه في رفعة النظم المُعْجز.

فلاحظ هنا، كيف استطاع الجرجاني أن يربط قضّية التحدي بنظرية النظم، لتبقى، بذكاء مؤلفٍ متمكّنٍ، وكأنها جزء لا يمكن فصله عن موضوعه. لذلك نجده قد غَضَّ طَرْفَهُ عن مسائلَ عالجها غير باحث في الإعجاز، تتصل بقضية التحدي والمعارضة، وأولاها الباقلاني اهتماماً كبيراً.

لكنه ما استطاع غَضَّ الطرف عمّا قال به الباقلاني وغيره، من اختصاص أهل العصر الأول بالتحدي. البالغين في الفصاحة والبيان درجة رفيعة، دون الأعاجم، والعرب المتوسطين في اللسان،

([1]) الجرجاني : دلائل الإعجاز ٣٨٧ .

([2]) المرجع السابق نفسه ٣٨٦ .

([3]) اسمى الباحث أحمد رحماني هذه النقطة بالموسيقى الداخلية ، بينما أطلق على النقطة السابقة الموسيقى الخارجية . انظر : نظريات الإعجاز القرآني ٥٢ .

([4]) الجرجاني : دلائل الإعجاز ٣٨٨.

فرّد هذه الحجة قائلاً: ([1])"فإن قال منهم قائل: إنك قد أغفلت فيما رتّبت، فإن لنا طريقاً إلى إعجاز القرآن غير ما قلت، وهو علمنا بعجز العرب عن أن يأتوا بمثله، وتَرْكِهم أن يعارضوه، مع تكرار التحدّي عليهم، وطول التقريع لهم بالعجز عنه. ولأن الأمر كذلك، ([2])ما قامت به الحجة على العجم قيامها على العرب، واستوى الناس قاطبة، فلم يخرجْ الجاهل بلسان العرب منْ أن يكون محجوجاً بالقرآن.

قيل له: خبّرنا عما اتفق عليه المسلمون من اختصاص نبيّنا ــ صلى الله عليه وسلّم ــ بأن كانت معجزته باقية على وجه الدهر، أتعرف له معنى غير أن لا يزال البرهان منه لائحاً مُعرِضاً لكل من أراد العلم به، وطلب الوصول إليه، والحجة فيه وبه ظاهرة لمن أرادها".

لكنَّ موازناً بين الباقلاني والجرجاني هنا، يرى أن الباقلاني قد أسهب فأحاط، وفصّل فأعطى صورة شاملة واضحة لطالب معرفة في هذا الشأن.

ولذلك، أقول ــ على استحياء ــ: إنَّ الباقلاني قد فَضَلَ الجرجاني في عرضه لهذه القضية، واستيفائه لعنواناتها، على ما في أفكاره من تردّد واضطراب. ولكن الجرجاني فاق الباقلاني في التزامه الموضوع مناط البحث وفي القدرة على ربط القضايا الفرعية بالأصل، والتفوّق في ردّ الحجة، والنضج في معالجة الفكرة دون تذبذب؛ لذلك، أجعلهما متكافئين لتميّز كل منهما من جانب.

النَظْمُ

وأكون هنا في موازنتي قد وصلت إلى جوهر كتابيهما، فالنظم عندهما هو وجه الإعجاز. ولعل معترضاً يستوقفني هنا متسائلاً: إن كان النظم هو الوجه الوحيد الذي حصل الإعجاز من جهته عند عبد القاهر الجرجاني، فكيف لكِ أن تزعمي أن الباقلاني ارتضاه وَجْهَ الإعجاز وهو الذي عقد فصلاً في كتابه في جملة وجوه إعجاز القرآن، وذكر وجهين آخرين من وجوه الإعجاز متعلقين بالغيب؟

([1]) الجرجاني : دلائل الإعجاز ١٠ .

([2]) ذكر المحقق محمود محمد شاكر أن "ما" هنا مصدرية ١/ ١٠ .

فنراه يقول: ([1])"ذكر أصحابنا وغيرهم من ذلك ثلاثة أوجه من الإعجاز: أحدهما: يتضمن الأخبار عن الغيوب، وذلك مما لا يقدر عليه البشر، ولا سبيل لهم إليه. فمن ذلك ما وَعَدَ الله ــ تعالى ــ نبيّه ــ عليه السلام ــ أنه سيظهر دينه على الأديان، بقوله ــ عزَّ وجلّ ــ ﴿هُوَ الّذي أرْسَلَ رَسُولَهُ بالهُدى ودِينِ الحَقِّ لِيُظهِرَهُ عَلى الدِّينِ كُلِّه، ولو كَرِهَ المُشركونَ﴾ [التوبة ٣٣] ففعل ذلك.

والوجه الثاني: أنه كان معلوماً من حال النبي ــ صلى الله عليه وسلّم ــ أنه كان أمياً، لا يكتب، ولا يحسن أن يقرأ. وكذلك كان معروفاً من حاله أنه لم يكن يعرف شيئاً من كتب المتقدمين وأقاصيصهم وأنبائهم وسيرهم، ثم أتى بجمل ما وقع وحدث من عظيمات الأمور ومُهمات السِّير، من حين خلق الله آدم ــ عليه السلام ــ إلى حين مبعثه.... ونحن نعلم أن هذا مما لا سبيل إليه، إلاّ عن تعلم.

والوجه الثالث: أنه بديع النظم، عجيب التأليف، متناهٍ في البلاغة إلى الحد الذي يُعلم عجز الخلق عنه".

فإني أجيب قائلة: عندما ذكر الباقلاني وجهي الإعجاز المتعلقين بالغيب كان متأثّراً برأي من سبقه من العلماء بأن الإعجاز يتمُّ من عدّة وجوه، وآثر ألاّ يشذّ عمَا كان عليه أصحابه الأشاعرة.

ولكنه أجمل في حديثه عن هذين الوجهين، بينما نراه قد أسهب ونظّر وناقش وعقد معظم كتابه حول الوجه الثالث القائل بالنظم لقناعته بأنه وجه الإعجاز.

فلذلك يكون السؤال هنا: كيف عالج كل منهما النظم رابطاً إياه باللفظ والمعنى؟

ولكنْ، قبل الشروع في الإجابة عن هذا السؤال، لا بُدَّ من وقفة لغوية عند أصل كلمة النّظم، فَنَظْمُ اللؤلؤ معنا جمعه في السُّلك([2]). ويرى ابن منظور أنَّ ([3])"كل شيء قرنته بآخر، أوضممت بعضه إلى بعض، فقط نَظَمْتَهُ". وهذا المعنى اللغوي هو أصل المعنى الاصطلاحي الذي ذهب إليه كلٌّ منهما في دراسته النظم.

([1]) الباقلاني : إعجاز القرآن ٣٤ ، ٣٥ بتصرّف .
([2]) انظر ابن فارس : معجم مجمل اللغة مادة نظم . وابن منظور : لسان العرب مادة النظم.
([3]) ابن منظور : لسان العرب مادة النظم.

فهذا الباقلاني أقام كتابه ([1])"قبل كل شيء على الصياغة والنظم وعلى العلاقة القائمة بين اللفظ والمعنى، وهي نظرة متطوّرة مهدّت لظهور منهج علمي في مجال المقابلة بين اللفظ والمعنى".

وقد أفاد مما سبقه إليه كل من الجاحظ والرّماني والخطابي في الحديث عن نظم القرآن، وجماله. حيث تداول فكرة النظم ببساطةِ تداولِ مَنْ سبقوه إليها. فهي لم ترتقِ لتتبلور نظرية كاملةً في بابها مُبَرْهنةً على إعجاز القرآن كما هي عند الجرجاني.

فنحن ([2])" لا نستطيع أن نغضّ من حماسة الباقلاني، ولا أن نقلّل من اجتهاده في بيان وجوه الإعجاز، ولكنه، إحقاقا للحق، لم يستطع أن يفلسف نظرية النظم، بالرغم من أنه أطال وأفاض في وجوه البلاغة وحسن النظم".

فهو، بعد أن أقرَّ النظم وجه إعجاز، شرع في تفصيل ذلك، كما مَرّ بنا في التمهيد، فالنظم البديع المشتمل على الإعجاز آتٍ من وجوه عشرة:

١. فهو خارج عن نظام كلام العرب، ونمط مخالف لأنماط الشّعر، والكلام الموزون غير المقفى، والكلام المعدّل المسجّع، والمعدّل الموزون غير المُسجَّع، والكلام المرسل.

([3])"وتكاد تكون هذه الفكرة هي أساس فلسفته في إعجاز القرآن". وحجته في ذلك أن القرآن بخروجه عن أساليب خطابهم وأنماط كلامهم يخرج عن عادتهم، فيتحقق له الإعجاز([4]).

وليس الأمر عندي كذلك، لأننا بإقرارنا ما ذهب إليه نكون قد عوّلنا على الشكل والقالب، وهذا لا يقتضي إعجازاً. فالإعجاز يكون في نظم الكلمات لتأدية المعاني المرادة سواء أأدّى بها ذلك إلى صورة الشعر أم إلى صورة النثر.

وأظنُّ أن العالمين: القاضي عبد الجبّار وعبد القاهر الجرجاني قد أوليا هذه المسألة عناية، للرّد على هذا المذهب النسقي الذي أخذ به الباقلاني.

([1]) وليد محمد مراد : نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر الجرجاني ٣٤ .
([2]) فتحي أحمد عامر : فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم ٣٦ .
([3]) عبد الرؤوف مخلوف : الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن ١٨٩ .
([4]) انظر الباقلاني : إعجاز القرآن ٣٥ ، ٥٠ .

فهذا القاضي عبد الجبّار يرد رأي الباقلاني هذا قائلا: ([1])"واختلف العلماء في وجه دلالة القرآن ...... ومنهم من قال لاختصاصه بنظم مباين للمعهود عندهم صار معجزاً .... وقد بينا من قبل أن المعتبر بطريقة من النظم، بعيد، لأنه كان يجب لو أتى بعضهم بطريقة من النظم ركيكة، لم يسبق إليها، أن يكون معجزاً، وقد علمنا فساد ذلك، فلا بدَّ أن يعتبر مع الطريقة الرتبة في الفصاحة. فإن أراد مَنْ قال: إن وجه إعجاز القرآن النظم المخصوص، هذا المعنى، هو أنه تعالى خصّه بالقرآن، على عادة لم تجرِ العادة بمثله، مع اختصاصه برتبة من الفصاحة، فهو الذي بيّناه، لأن خروجه عن العادة، في قدر الفصاحة يوجب كونه معجزاً بانفراده، واختصاصه بنظم من دون هذا الوجه لا يوجب كونه معجزاً، وإنما يقوي ويؤكد كونه معجزاً".

وكذا الجرجاني، الذي استشهد على رفضه رأي الباقلاني بحماقات مُسَيْلَمة التي جاءت ضمن قالب شبيه بقالب القرآن، ومع ذلك فلم يُشهد لها بالإعجاز، لأنها تفتقر إلى شروط النظم البديع المتضمن للفصاحة والبلاغة([2]).

٢. وهو مشتمل على ([3])"الفصاحة والغرابة والتصرّف البديع والمعاني اللطيفة والفوائد الغزيرة، والحكم الكثيرة، والتناسب في البلاغة، والتشابه في البراعة، على هذا الطول، وعلى هذا القدر" بإتقان مستمر، على العكس من كلام البشر الذي إن امتدّ وقع فيه الاختلال والاختلاف.

وشاهده هنا قوله تعالى:﴿وَلَوْ كانَ مِن عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اختِلافاً كَثيراً﴾ [النساء ٨٢]. وقد ردّ القاضي عبد الجبار هذا الوجه أيضاً قائلاً: ([4])"وأما كونه معجزاً بزوال الاختلاف عنه، والتناقض على ما يقتضيه قوله تعالى ﴿ وَلَوْ كانَ مِن عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اختِلافاً كَثيراً ﴾ فقد قال به بعض مشايخنا المتقدمين .... وذكرَ شيخنا أبو هاشم([5]) أن زوال الاختلاف والتناقض عن القرآن لو كان فعل غير الله تعالى بعيد لأن العادة لم تجرِ بمثل ذلك في كلام العباد. ...... على أن هذه الصفة لا تجب للقرآن، من حيث كان معجزاً وإنما تجب من حيث كان قولا لحكيم".

([1]) القاضي عبد الجبّار : المغني في أبواب التوحيد والعدل ٣١٨/١٦ حتى ٣٢١ بتصرّف .
([2]) انظر ما تقدم ذكره حول كلام الجرجاني ص ١٣١ .
([3]) الباقلاني : إعجاز القرآن ٣٦ .
([4]) القاضي عبد الجبّار : المغني في أبواب التوحيد والعدل ٣٢٨/١٦ ، ٣٣٠ بتصرّف .
([5]) أبو هاشم : هو عبد السلام بن أبي علي محمد الجبائي ٣٢١هـ ، انظر ترجمته في الشهرستاني : الملل والنحل ٧٨/١ .

٣. وهو يتصرّف إلى وجوه شتى من ([1])"قصص ومواعظ واحتجاج وحكم وأحكام وإعذار وإنذار ووعد ووعيد وتبشير وتخويف، وأوصاف وتعليم أخلاق كريمة، وشيم رفيعة، وسير مأثورة"، بدون تفاوت في النظم والإبداع والدّقة. وهذا مخالف لعادة الآدمي الذي يتفوّق في غرض دون آخر، ويسبق في نوع دون غيره.

وليس هذا فحسب، فقد ([2])"يتفاوت كلام الناس عند إعادة ذكر القصة الواحدة تفاوتاً بيّناً، ويختلف اختلافاً كبيراً. ونظرنا القرآن فيما يعاود ذكره من القصّة الواحدة فرأيناه غير مختلف ولا متفاوت. بل هو على نهاية البلاغة، وغاية البراعة. فعلمنا بذلك أنه مما لا يقدر عليه البشر، لأن الذي يقدرون عليه قد بيّنا فيه التفاوت الكثير، عند التكرار وعند تباين الوجوه، واختلاف الأسباب التي يتضمن".

٤. وهو لا يتفاوت في الفصل والوصل، والعلو النزول، والتقريب والتبعيد، ويبقى محافظاً على علوّه في الانتقال من معنى إلى آخر، وعلى براعته في الخروج من باب إلى سواه، وعلى رقّيه في حسن التخلص. وهذا خلاف قدرات البشر.

وقد يُرَدُّ هذان الوجهان بمثل ما رَدَّ أبو هاشم الجبائي الوجه الثاني، فهي وجوه تصف كلاماً هو قول الله العليم القدير.

٥. وهو معجز للإنس والجنّ. حيث إنّ ([3])"نظم القرآن وقع موقعاً في البلاغة يخرج عن عادة كلام الجن، كما يخرج عن عادة كلام الإنس. فهم يعجزون عن الإتيان بمثله تعجزنا، ويقصرون دونه قَصورنا". واستشهد لبيان صحة رأيه بآية التحدي من سورة الإسراء.

وفي ([4])"قول الباقلاني: خارج عن عادة كلام الجن، أن للجن كلاما له ما للكلام من عادات، ونظم، وأنهم رأوا فيما سمعوه من القرآن ما يخرج من عادات كلامهم، وما يعلو فوق طاقاتهم، ويذكر الحقُّ أن الجن لما سمعوا القرآن قال ﴿أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُنْذِرِينَ﴾ [الأحقاف ٢٩] أي أنهم رأوا فيه آية الله وحجته التي يقيمها على عباده بواسطة وحيه إلى أنبيائه

([1]) الباقلاني : إعجاز القرآن ٣٦ .
([2]) المرجع السابق نفسه ٣٨ .
([3]) المرجع السابق نفسه ٣٨ .
([4]) محمد محمد أبو موسى : الإعجاز البلاغي ٢٢١ .

ورسله ..... وقاطع في أن القوم يفقهون العربية، وأنّ لهم فيها ذوقاً وبصراً، أدركوا به أن ما سمعوه منه ــ صلى الله عليه وسلّم ــ ﴿قُرْآناً عَجَباً، يَهْدِي إلى الرُّشْدِ﴾ [الجن ١، ٢]".

ثم نراه يتصدى لقوم رفضوا القول بعجز الجن عن الإتيان بمثل القرآن، وإن كان بنو البشر عاجزين. فيردّ عليهم بخبر الله عنهم في سورة الإسراء.

وليته كان قد اكتفى بهذا الدليل النقلي، لكنه لجأ إلى حجة عقلية مردودة لا تخلو من وهن ظاهر الفساد، حيث اعتمد على الشعر المنسوب إلى الجن، فوجده ضعيفاً !

وكأنه يعتقد صحة هذا الأمر، فيحاجج ويناقش ويقدّم الشواهد: وذلك بعد أن يبدأ بافتراض مبني على اعتقاد للجاهليين من وجود التابع الجني للشاعر الإنسي، حيث يقول: (١)"والقدر الذي نقلوه من ذلك(٢) قد تأملناه، فهو في الفصاحة لا يتجاوز حد فصاحة الإنس، ولعله يقصر عنها" !

ولكنه شيئاً فشيئاً يخرج (٣)"من مجرد افتراض أن للجن كلاماً إلى سوق الدليل على أنه لا مانع من أن يكون لهم كلام وشعر فصيح"، فينقل من الشعر المتداول والمحفوظ على أنه من كلام الجن(٤).

وليس هذا فحسب، لكننا نراه يقدّم الدليل على فصاحتهم التي تنحط عن درجة فصاحة القرآن، ومخاطباتهم الدائرة باللسان العربي، وحسّهم اللغوي الذي جعلهم يدركون عجزهم عن الإتيان بمثل القرآن بمجرّد سماعهم له، فاستشهد بموقفهم عند سماع القرآن، فقد حكى الله ــ سبحانه وتعالى ــ عنهم ما تفاوضوا فيه من القرآن الكريم فقال ــ عَزَّ وجَلَّ ــ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الجِّنِّ يَسْتَمِعُونَ القُرآنَ، فَلَمَّا حَضَرُوه قالُوا أَنْصِتُوا، فَلَمّا قُضِيَ وَلَّوا إلى قَوْمِهِم مُنْذِرين﴾ [الأحقاف ٢٩].

(٥)"ونسي الباقلاني أن ذلك من قبيل قوله تعالى: ﴿قالَتْ نَمْلَةٌ يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادخُلوا مَساكِنَكُمْ لا يُحَطِّمَنَّكُم سُلَيمانُ وجُنودُهُ﴾ [النمل ١٨] فأما أن يكون للجن كلام على غرار كلام العرب،

---

(١) الباقلاني : إعجاز القرآن ٣٩ .
(٢) اسم الإشارة عائد على شعر الجن .
(٣) عبد الرؤوف مخلوف : الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن ١٧٦ .
(٤) انظر الباقلاني : إعجاز القرآن ٣٩ حتى ٤١ .
(٥) عبد الرؤوف مخلوف : الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن ١٧٧ .

ولغة على شاكلة لغتها من حيث المفردات والأصوات والجمل والتراكيب والتأليف فمسألة نتوقف فيها إلى أن يقوم على ذلك دليل قطعي الدلالة".

ولقد علّم الله سيدنا سليمان ــ عليه السّلام ــ منطق الطير، ([1])"والمنطق: كل ما يصوت به من المُفرد والمُؤَلّف، المفيد وغير المفيد .... والذي عَلِمَهُ سليمان من منطق الطير هو ما يفهم بعضه من بعض من معانيه وأغراضه، ويُحكى أنه ...... صاح طاووس، فقال يقول: كما تدين تدان، وصاح هدهد، فقال يقول: استغفروا الله يا مذنبين ......".

ويظهر مما تقدم فحش ما وقع فيه الباقلاني من خطأ في إثباته عجز الإنس والجن عن الإتيان بمثل القرآن.

٦. وهو مشتمل على جميع فنون الكلام، وما ([2])"ينقسم عليه الخطاب من البسط والاقتصار، والجمع والتفريق، والاستعارة والتصريح، والتجوّز والتحقيق، ونحو ذلك من الوجوه التي توجد في كلامهم". بل هو يفوق كلام البشر بالفصاحة والإبداع والبلاغة.

٧. وهو يتضمن موافقة المعاني للألفاظ البديعة، حيث يقول: ([3]) "ثم إذا وجدت الألفاظ وفق المعاني والمعاني وفقها، لا يفضل أحدهما على الآخر فالبراعة أظهر، والفصاحة أتم".

وهو يلتقي في هذا الوجه مع نظرة الجرجاني لمسألة اللفظ والمعنى، كما سيتضح بعد قليل، ([4])"فطريق نظم الكلام واضح عنده قائم على اختيار الألفاظ للمعاني، والهدف من الألفاظ الإبانة والإفصاح عن المعاني، فاختيار اللفظ شرط لأداء الدلالة الواضحة ...... فالعلاقة بين اللفظ والمعنى قائمة تشير بصراحة للصّلة بين الفكر واللغة".

([1]) الزمخشري : الكشاف ٣/٣٥٩ .

([2]) الباقلاني : إعجاز القرآن ٤٢ .

([3]) المرجع السابق نفيه ٤٢.

([4]) وليد محمد مراد : نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر ٣٥ .

٨. وهو مؤلف من كلمات لها مزيّة في ذاتها فَتَظْهَرُ فصاحةُ الكلام برونق الكلمة وجمالها، فهو يقول في هذا: ([1])"وأنت ترى الكلمة من القرآن يتمثل بها في تضاعيف كلام كثير، وهي غُرّته جميعه، وواسطة عقده".

وكأنه أحسّ بضعف هذا الوجه القائل بإعجاز الكلمة القرآنية في ذاتها، فعاد وردّ الفضل للمفردة في نظمها مع غيرها، فقال في الكلمات القرآنية: ([2])"إذا تأملتها وجدت كل كلمة منها في نهاية البراعة وغاية البلاغة ... وإنما يبين ذلك بأن تتصور هذه الكلمة مضمنة بين أضعاف كلام كثير، أو خطاب طويل، فتراها ما بينها تدل على نفسها، وتعلو على ما قُرِنَ بها لعلو جنسها، فإذا ضُمَّتْ إلى أخواتها، وجاءت في ذواتها، أَرَتْكَ القلائد منظومة، كما كانت تُريكَ، عند تأمل الأفراد منها، اليواقيت منشورة، والجواهر مبثوثة".

٩. وهو منتظم مِنْ حروف العربية نفسها : التي ينظم العرب منها كلامهم. ([3])"فالحروف التي بني عليها كلام العرب تسعة وعشرون حرفاً. وعدد السّور التي افتتح فيها بذكر الحروف ثمانٍ وعشرون سورة، وجملة ما ذكر من هذه الحروف في أوائل السّور من حروف المعجم نصف الجملة، وهو أربعة عشر حرفاً".

وكأنه في هذا الوجه يشير إلى إعجاز عددي ربطه بنظم حروف الكلمات القرآنية، هذه الحروف التي قام بدراستها دراسة صوتية، ثم وُضِّحَ كيف جاءت في القرآن لتدل على أنها من عند الله ــ عز وجل ــ.

١٠. وهو خارج عن الوحشي المستكره، والغريب المستنكر، وعن الصنعة المتكلّفة، فهو قريب إلى الأفهام، ([4])"يبادر معناه لفظه إلى القلب ويسابق المغزى منه عباراته إلى النفس، وهو مع ذلك ممتنع المطلب، عسير التناول" مع سهولته.

([1]) الباقلاني : إعجاز القرآن ٤٣ . ونراه يقول في موضع آخر من كتابه هذا : "كل كلمة من ذلك على ما قد وصفتها : من أنه إذا رآها الإنسان في رسالة كانت عينها ، أو في خطبة كانت وجهها ، أو قصيدة كانت غرة غرها وبيت قصيدها كالياقوتة التي تكون فريدة العقد ، وعين القلادة ، ودُرّة الشّذر" ٢٠٠ .

([2]) الباقلاني : إعجاز القرآن ٢٠٥ .

([3]) المرجع السابق نفسه ٤٥ .

([4]) المرجع السابق نفسه ٤٦ .

ثم نراه بعد أن فرغ من تحديد وجوه النظم المعجز، يشرع في وصف هذا النظم القرآني بأوصاف عامة، لا يفصّل في جمالها، ولا يأخذ بيدنا لنتعرّف إلى مواقع الإعجاز في الآيات والسور حيث يقول: ([1])"فأما نهج القرآن ونظمه، أو تأليفه ورصفه، فإن العقول تتيه في جهته، وتُحارُ في بحره، وتضلُّ في وصفه".

ويقول في موضع آخر: ([2])"ولو لم يكن من عِظَم شأنه إلاّ أنه طبَّق الأرض أنوارُه، وجَلَّلَ الآفاق ضياؤه، ونفذ في العالم حكمه، وقُبِلَ في الدنيا رسمه. وطمس ظلام الكفر .... فكان كما وصفه الله ــ تعالى ــ مِن أنه نور .... فانظر ــ إن شئت ــ إلى شريف هذا النظم، وبديع هذا التأليف، وعظيم هذا الرّصف".

ثم نراه قد عمد إلى آيات من القرآن فحاول فيها الكشف عن جمال النظم، لكنه فشل في إظهار جزئيات إعجاز النظم في هذه الآيات المرتضاة، فعاد إلى الوصف لجمال نظمها وصفاً عاماً لا يرشد طالبَ جمال النظم إلى موطنه، وكان يسوّغ عجزه هذا بجمل مِنْ مثل: ([3])"الأمر أظهر ــ والحمد لله ــ والحال أبين من أن يحتاج إلى كشف".

ومن ذلك أيضاً قوله: ([4])"وإن شرحت لك ما في كل آية طال عليك الأمر، ولكني قد بيّنت بما فسّرت، وقرّرت بما فصّلت، الوجه الذي سلكت، والنحو الذي قصدت، والغرض الذي إليه رميت، والسمت الذي إليه دعوت". وكأنه بذلك يكتفي بالأمثلة التي عرضها، واقفاً على مواطن الإعجاز فيها بوصفها وصفاً قد يكون مفتاحاً للفصيح الذي يستطيع ــ على حدّ قناعته ــ أن يتبيّن إعجاز النظم فيها دون أن يحتاج إلى تفصيل ذلك.

فمن هذه الأمثلة التي ضربها قوله تعالى: ﴿وابتغِ فيما آتاكَ اللهُ الدارَ الآخِرَةَ، ولا تَنْسَ نَصيبَكَ مِنَ الدُّنْيا، وأَحْسِنْ كَما أَحسَنَ اللهُ إلَيْكَ، ولا تَبغِ الفَسادَ في الأرضِ، إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُفْسِدينَ﴾

([1]) الباقلاني : إعجاز القرآن ١٨٤ .
([2]) المرجع السابق نفسه ١٨٧ .
([3]) المرجع السابق نفسه ١٩٣.
([4]) المرجع السابق نفسه ١٩٣ .

[القصص ٧٧]، حيث يقول ([1])"وهي خمس كلمات، متباعدة في المواقع، نائية المطارح، قد جعلها النظم البديعُ أشدَّ تآلفاً من الشيء المؤتلف في الأصل، وأحسن توافقاً من المتطابق في أول الوضع ... فانظر متى وجدت في كلام البشر وخطبهم مثل هذا النظم في هذا القدر وما يَجْمَعُ ما تَجْمَعُ هذه الآية من شريف المعاني وحسن الفاتحة والخاتمة. ثم اتْلُ ما بعدها من الآي، واعرف وجه الخلوص من شيء إلى شيء، من احتجاج إلى وعيد، ومن إعذار إلى إنذار، ومن فنون من الأمر شتى، مختلفة تأتلف بشريف النظم، ومتباعدة تتقارب بعلي الضم".

وعنده قناعة بأن معرفة النظم المعجز والإحساس بجماله وَقْفٌ على البليغ المتناهي في معرفة اللسان العربي دون غيره، وهو الذي يملك القدرة على تذوق الروعة في النظم، والجلال في التأليف، أما من هو دونه، فعليه بالتقليد، فهو يقول: ([2])"فإن كنت ممن هو بالصفة التي وصفناها من التناهي في معرفة الفصاحات، والتحقق بمجاري البلاغات، فإنما يكفيك التأمّل، ويغنيك التصوّر. وإن كنت في الصنعة مُرْمِداً، وفي المعرفة بها متوسّطا، فلا بُدّ لك من التقليد، ولا غنى بك عن التسليم".

ويبقى أن أقول: إن الباقلاني كان دقيقَ الإحساس بمواطن جمال النظم القرآني، فهو على الرغم من إشاراته الموجزة إلى هذه المواطِن، وأحكامه العامة، إلاّ أنه ([3])"بحق لَفَتَ أنظار العلماء إلى البحث عن منشأ جمال النظم وجمال الكلام الفني بعامة".

([1]) الباقلاني : إعجاز القرآن ١٩٤ حتى ١٩٧ بتصرّف . ويحاول الباحث محمد محمد أبو موسى الوقوف على موطن الإعجاز في التأليف بين المختلف ، كما دلّ عليه الباقلاني ، حيث يقول : "ونظم الكلام على هذا الوجه الذي نراه أمر ثم نهي ، يعطف ثانيهما على الأوّل ، وبعد ذلك يعاد نفس النظام . أمر ثم نهي يعطف ثانيهما على الأوّل ، ثم بعد ذلك تعطف الجملة الثانية برديفتها على الجملة الأولى برديفتها . أقول : إنّ نظم الكلام على هذا الوجه فيه من دقة السبك وإحكامه ما ترى .... ثم تأتي الجملة الخامسة .... فاصلة جامعة للكل ، وتَحُضُّ على الكل ، لأن عدم ابتغاء الآخرة فيما أتاه الله قساوة ، والله لا يحب المفسدين ، ونسيان حظّه من الدنيا فساد، والله لا يحب المفسدين ، وعدم الإحسان فساد ، والله لا يحب المفسدين . وهكذا تجد الفاصلة ترمي روابط أخرى على الآيات السابقة ، وتعقد معها أسباباً ، فيزداد تشابك الكلام . ولعل هذا بعض ما أراده الباقلاني بقوله : قد جعلها النظم البديع أشد تآلفا" الإعجاز البياني ٢١٣ .

([2]) الباقلاني : إعجاز القرآن ١٣٦ . ويقول في موضع آخر في نفس المعنى : "فمَن كمل طبعه للوقوع على فضل أجناس الكلام استدرك ما بيّنا . ومَن تعذر عليه الحكم بين شعر جرير والفرزدق والأخطل ، والحكم بين فضل زهير والنابغة ، أو الفضل بين البحتري وأصحابه ، ولم يعرف سخف مسيلمة في نظمه ، ولم يعلم أنه من الباب الذي يهزأ به ويسخر منه .... فكيف يمكنه النظر فيما وصفنا ، والحكم على ما بيّنا؟!" إعجاز القرآن ٢٤٧

([3]) عبد العزيز عرفة : قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية ٤٢٢ .

أما الجرجاني، فقد اهتم بالنظم اهتماماً عظيماً فاق اهتمام من سبقوه الحديث فيه، حيث تَبَلْوَرَ النظمُ عنده نظرية متكاملة ابتكرها. طريقها الدراية بأسرار العربية.

فقد (1)"اعتمد في تقرير نظريته في النظم على جانبين هما: الجانب العقلي، والجانب النفسي". فقد لجأ إلى العقل واعتمد المنطق والأدّلة والتعليل لإثبات النظم القائم على معاني النحو، ثم أولى الحس عناية فائقة، وعوّل على الذوق كثيراً، مراعياً الجانب النفسي وأثره في إدراك أسرار العربية وجمالها الرفيع.

فالجرجاني، هذا العالم النحوي، أقام النظم على المعاني النحوية (2)"فليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض".

ثم يعود الجرجاني ويذكر تعريفات كثيرة للنظم في أكثر من موضع من كتابه، فيضيف معاني جديدة موضحة لقصده من النظم، فيقول في أول عرضه لفكرة النظم: (3)"ليس النظمُ إلاّ أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نُهِجَت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رُسِمت لك، فلا تخلُّ بشيء منها".

ولهذا فالناظم البارع للكلام يعرف الفروق في كل باب من أبواب النحو: في وجوه الخبر، والحال، وفي اشتراك الحروف في المعاني، وانفرادها بخصوصية في ذلك المعنى، وموضع الفصل أو الوصل في الجمل، ويتصرّف في التقديم والتأخير، والتعريف والتنكير، والحذف والتكرار، والإضمار والإظهار، فيستعمله بشكل صحيح.

فالنظم عنده يوصف بالصحة والفساد، أو تكون له المزيّة والفضل بردّه إلى معاني النحو وأحكامه. فلذلك نراه قد أنفق معظم صفحات كتابه في بيان بعض هذه اللطائف النحوية بعقده فصولاً في كتابه نحويّة. مستشهداً، بعد التنظير، على مواطن حسن النظم في كلام البشر، ثم براعة النظم القرآني، وعلى مواطن فساد النظم البشري الشعري(4).

---

(1) منير السلطان : إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة ١٤٠ .
(2) الجرجاني : دلائل الإعجاز ٤ ، وانظر ٥٥ .
(3) المرجع السابق نفسه ٨١ .
(4) انظر هذه الشواهد من كتابه ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ .

وبعد هذا التوضيح لنظرية النظم، يخشى على القارئ من أن يلتبس عليه الأمر بشأن مزايا النظم، ([1])"فليست المزية بواجبة لها في أنفسها، ومن حيث هي على الإطلاق، ولكنْ تَعْرِضُ بسبب المعاني والأغراض، التي يوضع لها الكلام، ثم بحسب موقع بعضها من بعض، واستعمال بعضها مع بعض". فقد يُسْتَحسن تنكير كلمة في تأليف معين، فلا يشترط توفر هذا الاستحسان في كل تأليف.

ويكرّر فكرته التي أقام عليها النظرية ليوضّح الرأي ويرسخه في عقل القارئ قائلاً: ([2])"والنظم والترتيب في الكلام، كما بَيَّنَّا، عَمَلٌ يعمله مؤلف الكلام في معاني الكلم لا في ألفاظها، وهو بما يصنع في سبيل ما يأخذ الأصباغ المختلفة فيتوخى فيها ترتيباً يحدُث عنه ضروب من النقش والوشي".

فهو يَعْمَدُ إلى ترسيخ مفهوم النظم بكونه توخياً لمعاني النحو وأحكامه وفروقه ووجوهه، والعمل بقوانينه وأصوله، كل ذلك في معاني الكلم، فكل المزيّة عنده للمعنى، لذلك نراه ([3])"لا يفتأ كلما أطال به المدى، واسترسل به الحديث أن يذكرنا بأمر النظم من جديد، وأن يأخذ في شرحه وإيضاحه كأننا لم يسبق بنا إلف، أو يتقدم لنا عنه شرح أو إيضاح".

ولذلك، نراه يوضّح في أكثر من موضع في كتابه أن لا مزيّة للّفظ دون المعنى: فالألفاظ عنده خدم للمعاني، وأنها تترتب في النطق نتيجة لترتب المعاني في النفس. حيث يقول: ([4])"وأمر النظم

([1]) الجرجاني : دلائل الإعجاز ٨٧ .

([2]) الجرجاني: دلائل الإعجاز ٣٥٩ ، ولقد عمد الجرجاني لتوضيح مبتغاه إلى المثال نفسه في كل مرّة وضح فيها رأيه ، فانظر كتابه ٨٨ حيث قال : "وإنما سبيل هذه المعاني سبيل الأصباغ التي تُعمل منها الصور والنقوش ، فكما أنك ترى الرجل قد تهدّى في الأصباغ التي عمل منها الصورة والنقش في ثوبه الذي نسج ، إلى ضرب من التخيّر والتدبّر في أنفس الأصباغ وفي مواقعها ومقاديرها وكيفية مزجه لها وترتيبه إياها ... فجاء نقشه من أجل ذلك أعجب وصورته أغرب ، كذلك حال الشاعر والشاعر في توخيهما معاني النحو ووجوهه التي علمت أنها محصول "النظم" .

([3]) صابر أبو سليمان : رونق البيان في إعجاز القرآن ١١٤ .

([4]) الجرجاني : دلائل الإعجاز ٤٥٥ . ويقول في موضع آخر في المعنى نفسه : "لا يُتصورُ أن تَعْرِفَ للفظ موضعاً من غير أن تعرف معناه ، ولا أن تتوخى في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ترتيباً ونظماً ، وأنك تتوخى الترتيب في المعاني وتُعملَ الفكر هناك، فإذا تَمَّ لك ذلك أتبعتها الألفاظ وقفوت بها آثارها ، وأنك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك ، لم تحتج إلى أن تستأنف فكراً في ترتيب الألفاظ ، بل تجدها تترتّبُ لك بحكم أنها خدم للمعاني ، وتابعة لها ، ولاحقة بها ، وأن العلم بمواقع المعاني في النفس ، علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النّطق" ، دلائل الإعجاز ٥٤ .

في أنه ليس شيئاً غير توخي معاني النحو فيما بين الكلم، وأنك تُرتِّب المعاني، أولاً في نفسك، ثم تحذُو على ترتيبها الألفاظ في نطقك، وأنّا لو فرضنا أن تخلو الألفاظ من المعاني، لم يتصوَّر أن يجب فيها نظم وترتيب في غاية القوّة والظهور، ثُمَّ ترى الذين نَهجوا بأمر اللفظ قد أبَوا إلاّ أن يجعلوا النّظم في الألفاظ. ترى الرّجلَ منهم يرى ويعلَمُ أن الإنسان لا يستطيع أن يجيء بالألفاظ مرتّبة إلاّ مِنْ بعد أن يفكّر في المعاني ويرتّبها في نفسه".

وانطلاقاً مما ذهب إليه يبدأ في عرض آراء المناصرين للّفظ، فيحاول أن يسوّغ ذهابهم إلى ما ذهبوا إليه من احتساب المزية للّفظ فيرى أن ([1])"سبب دخول الشبهة على مَنْ دخلت عليه، أنه لّما رأى المعاني لا تتجلى للسّامع إلاّ من الألفاظ، وكان لا يُوقَفُ على الأمور التي بتَوَخيها يكون النظم، إلاّ بأن ينظر إلى الألفاظ مرتّبة على الأنحاء التي يوجبها ترتيب المعاني في النفس، وجرت العادة بأن تكون المعاملة مع الألفاظ فيقال: قد نظم ألفاظاً فأحسن نظمها، وألّف كَلماً فأجاد تأليفها، جعل الألفاظ الأصل في النظم، وجعله يَتَوَخَّى فيها أنفسها، وتَرَك أن يفكّر في الذي بينّاه من أن النظم هو توخي معاني النحو في معاني الكلم، وأن توخيها في مُتون الألفاظ محالٌ".

ويؤكد فساد رأي من ظَنَّ تبعية المعاني للألفاظ في السّمع حيث يقول: ([2])"وشبيه بهذا التوهم منهم، أنك ترى أحدهم يعتبرُ حالَ السامع، فإذا رأى المعاني لا تترتب في نفسه إلاّ بترتّب الألفاظ في سمعه، ظنَّ عند ذلك أن المعاني تبعُ للألفاظ، وأن الترتّب فيها مكتسب من الألفاظ، ومن ترتبها في نطق المتكلّم.

وهذا ظن فاسد ممن يظنه، فإن الاعتبار ينبغي أن يكون بحال الواضع للكلام والمؤلف له، والواجب أن ينظر إلى حال المعاني معه لا مَعَ السامع، وإذا نظرنا علمنا ضرورة أنه محال .... لأن ذلك يقتضي أن تكون الألفاظ سابقةً للمعاني، وأن تقع في نفس الإنسان أوّلاً، ثم تقع المعاني من بعدها وتالية لها".

([1]) الجرجاني : دلائل الإعجاز ٣٦١ .

([2]) المرجع السابق نفسه ٤١٧ .

وليس هذا فحسب، بل إننا نراه يعرّج على مصطلح الفصاحة وينفي ربطها باللفظ، فهو يقول: ([1])"وهذه شبهة أخرى ضعيفة، ..... وهي أن يدعي أن لا معنى للفصاحة سوى التلاؤم اللفظي، وتعديل مزاج الحروف حتى لا يتلاقى في النطق حروف تثقل على اللسان".

ويعود فيوّضح هذا في موضع ثانٍ فيقول: ([2])"وأظهر شيء عندهم في معنى الفصاحة تقويم الإعراب، والتحفظ من اللحن .... وذهب عنهم أن ليس هو من الفصاحة التي يعنينا أمرها في شيء، وأن كلامنا في فصاحة تجب للفظ لا منْ أجل شيء يدخل في النطق، ولكن من أجل لطائف تدرك بالفهم، وأنا نعتبر في شأننا هذا فضيلة تجب لأحد الكلامين على الآخر، من بعد أن يكونا قد بَرِئا من اللحن، وسلما في ألفاظهما من الخطأ".

وَرَدُّ هذه الشبهة عنده، أن قَصْرَ الفصاحةِ على اللفظ يخرجها من حيّز البلاغة ومن أن تكون نظيرة لها، ومعنى ذلك:

١. جَعْل اللفظ العمدة في المفاضلة بين العبارتين، وهذا يؤدي إلى أن الإعجاز لا يكون إلاّ فيه، وبالتالي لا يكون للمعاني من حيث النظم والبلاغة وشريف التأليف أثرٌ في إعجاز القرآن، وهذا ظاهر الخطأ.

٢. جَعْل اللفظ أحد ما يُفاضل به، وما يقتضي تقديم كلام على كلام. فيكون عندها لتلاؤم الحروف وجهٌ من وجوه المفاضلة. وهو لا يرى في هذا الأمر ضَيْراً حيث يقول ([3])"لم يكن لهذا الخلاف ضررٌ علينا، لأنه ليس بأكثرَ مِن أن نعمِدَ إلى الفصاحة فنُخرجها من حيّز البلاغة والبيان، وأن تكون نظيرة لها، أو في عِداد ما هو شبْهُهُما من البراعة والجزالة وأشباه ذلك، مما ينبئ عن شرف النظم، ..... أو نجعلها اسماً مشتركاً يقع تارةً لما تقعُ له تلك، وأُخرى لِمَا يرجِعُ إلى سلامة اللفظ مما يثقل على اللّسان".

فلذلك يرفض رَبْطَ اللفظ بالفصاحة حيث يقصرها على المعنى فيقول بلغة أشدّ وضوحاً حاسماً الموقف: ([4])"إنّ غرَضنا من قولنا إن الفصاحة تكون في المعنى، أن المزيّة التي من أجلها استحقّ

([1])الجرجاني : دلائل الإعجاز ٥٧ .
([2]) المرجع السابق نفسه ٣٩٩ .
([3]) الجرجاني : دلائل الإعجاز ٥٩ .
([4]) المرجع السابق نفسه ٤٠١ .

اللفظ الوصف بأنه "فصيح"، هي في المعنى دون اللفظ، لأنه لو كانت بها المزيّة التي من أجلها يستحق اللفظ الوصف بأنه فصيح، تكون فيه دُونَ معناه، لكان ينبغي إذا قلنا في اللفظة: إنها فصيحة، أن تكون تلك الفصاحة واجبة لها بكل حال، ومعلوم أن الأمر بخلاف ذلك، فإنا نرى اللفظة تكون في غاية الفصاحة في موضع، ونراها بعينها فيما لا يُحصى من المواضع وليس فيها من الفصاحة قليل ولا كثير".

وأخيراً يقرّ قاعدته حول الفصاحة بلغة جازمة قاطعة، فيقول: ([1])"وجملة الأمر أنّا لا نوجب الفصاحة للفظة مقطوعة مرفوعة من الكلام الذي هي فيه، ولكنّا نوجبها لها موصولةً بغيرها، ومعلّقاً معناها بمعنى ما يليها".

ويتخذ من قضية الفصاحة اللفظية مدخلاً للتعريض بالقاضي عبد الجبّار المعتزلي الذي وقف على معنى النظم المبلور من قِبَل الجرجاني نظريةً متكاملة فسّرها تفسيراً دَقيقاً حتى أصبح صاحبها. فليس ثَمة فرقٌ بينهما إلاّ فيما ([2])"ينحصر في الفرق بين الإجمال في الفكرة، والتفصيل فيها،وبين الإيجاز في العرض من جهة، والإطناب والإيضاح فيه من جهة أخرى. فعبد الجبّار كان رائداً وسابقاً وعبد القاهر كان موضحاً مبيّناً".

فهو يخفي تأثره بالقاضي عبد الجبّار مهملاً التصريح باسمه، ملمّحاً إليه بأنه ممّن فخّموا شأن اللفظ، وخصّوه بالمزيّة، بعد أن بَتَرَ كلامه الذي هو عين نظريته التي عقد العزم على إثبات صحتها.

فقد قال الجرجاني في معرض اتهامه للقاضي عبد الجبّار: ([3])"فإن قيل: فماذا دعا القدماء إلى أن قسّموا الفضيلة بين المعنى واللفظ فقالوا: معنى لطيف، ولفظ شريف، وفخّموا شأن اللفظ

([1]) الجرجاني : دلائل الإعجاز ٤٠٢ . وقد اعتمد الجرجاني حجة ثانية لإبطال دعوى لزوم الفصاحة للفظ حيث يرى أن الفصاحة صفة في اللفظ معقولة تعرف بالقلب ولا تدرك بالسّمع ، فهي ليست محسوسة ، لأنها لو كانت كذلك لكان ينبغي وجوباً إدراك فصاحة اللفظ عند سماعه من قبل الجميع ، وهذا محال . انظر دلائل الإعجاز ٤٠٧ .

([2]) عبد الفتاح لاشين : بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبّار وأثره في الدراسات البلاغية ٥٠٨ .

([3]) الجرجاني : دلائل الإعجاز ٦٣ . ويشير إلى قول القاضي هذا في موضع آخر من كتابه حيث يقول : "ومما تجدهم يعتمدونه ويرجعون إليه قولهم : إن المعاني لا تتزايد ، وإنما تتزايد الألفاظ ، وهذا كلام إذا تأملته لم تجد له معنى يصح عليه ، غير أن تجعل تزايد الألفاظ عبارة عن المزايا التي تحدث من توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم ، لأن التزايد في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ونطق لسان محال" . دلائل الإعجاز ٣٩٥ .

وعظّموه، حتى تبعهم في ذلك مَنْ بعدهم، وحتى قال أهل النظر: إن المعاني لا تتزايد، وإنما تتزايد الألفاظ، فأطلقوا، كما ترى، كلاماً يوهم كل مَن يسمعه أن المزيّة في حاقِّ اللفظ؟".

ويحاول الجرجاني، في موضع آخر من مواضع اتهامه لعبد الجبّار، أن يكون أكثر موضوعية، وأعدل في النظر إلى مضمون كلامه، فيفسّر معنى كلمة اللفظ التي جاء بها القاضي المعتزلي على الوجه الصحيح الذي أراده، فيقول: [1]"واعلم أنه إذا نظر العاقل إلى هذه الأدلّة فرأى ظهورها، استبعد أن يكون قد ظَنَّ ظانٌّ في الفصاحة أنها من صفة اللفظ صريحاً، ولعمري إنه لكذلك ينبغي، إلاّ أنّا إنما تنظر إلى جدّهم وتشددهم وتبهم الحكم بأن المعاني لا تتزايد، وإنما تتزايد الألفاظ، فلئن كانوا قد قالوا الألفاظ وهم لا يريدونها أنفسها، وإنما يريدون لطائف معان تُفهم منها، لقد كان ينبغي أن يتبعوا ذلك من قولهم ما يُنبئ عن غرضهم، وأن يذكروا أنهم عنوا بالألفاظ ضرباً من المعنى، وأن غرضهم مفهوم خاص".

ولكنَّ المتأمّل في كلام القاضي عبد الجبّار، يرى أنه كان يطلق مصطلح المعنى ويريد به الغرض، فيظهر من كلامه أنه ذهب إلى ما ذهب إليه الجرجاني بشأن الفصاحة حيث يقول: [2]"فإن قال: فقد قلتم في أن جملة ما يدخل في الفصاحة حسن المعنى فهلا اعتبرتموه؟ قيل له: إن المعاني وإن كان لا بد منها فلا تظهر فيها المزيّة، وإن كان تظهر في الكلام لأجلها، ولذلك نجد المعبّرَينِ عن المعنى الواحد يكون أحدهما أفصح من الآخر، والمعنى متفق، وقد يكون أحد المعنيين أحسن وأرفع، والمعبر عنه في الفصاحة أدون، فهو مما لا بد من اعتباره، وإن كانت المزية تظهر بغيره، على أنّا نعلم: أن المعاني لا يقع فيها التزايد، فإذن يجب أن يكون الذي يعتبر التزايد عند الألفاظ، التي يعبّر بها عنها، على ما ذكرنـــاه، فإذا صحت هذه الجملة، فالذي به تظهر المزيّة ليس

---

[1] الجرجاني : دلائل الإعجاز ٤٥٤ .

[2] القاضي عبد الجبّار : المغني في أبواب التوحيد والعدل ٢٠٠/١٦ . وإن اعترض معترضٌ على رأيي هذا مستشهداً بما أورده القاضي من كلام شيخه أبي هاشم حيث قال : "قال شيخنا : إنما يكون الكلام فصيحاً لجزالة لفظه وحسن معناه ، ولا بد من اعتبار الأمرين ، لأنه لو كان جزل اللفظ ركيك المعنى لم يعد فصيحاً ، فإذن يجب أن يكون جامعاً لهذين الأمرين" المغني ١٩٧/١٦ . أجبناه : إن في تمام حديث القاضي الجوابَ الشافي حيث يقول : "وليس فصاحة الكلام بأن يكون له نظم مخصوص لأن الخطيب عندهم قد يكون أفصح من الشاعر ، والنظم مختلف إذا أُريد به اختلاف الطريقة ، وقد يكون النظم واحداً ، وتقع المزية في الفصاحة .... ولذلك لا يصح عندنا أن يكون اختصاص القرآن بطريقة في النظم دون الفصاحة ، التي هي جزالة اللفظ ، وحسن المعنى" . المغني ١٩٨/١٦ . فهو يعني بالنظم هنا الشكل والقالب ، والفصاحة عنده كما يستشف من النص هي عين نظرية النظم عند الجرجاني .

إلا الإبدال الذي به تختص الكلمات أو التقدّم والتأخر الذي يختص بالموقع، أو الحركات التي تختص الإعراب، فبذلك تقع المباينة: ولا بد من الكلامين اللذين أحدهما أفصح من الآخر أن يكون إنما زاد عليه بكل ذلك، أو ببعضه، ...... وهذا يبين أن المعتبر في المزيّة بنيَّة اللفظ، وأن المعتبر ما ذكرناه من الوجوه".

وهذا يؤكد أنه ذهب في الفصاحة المذهب الذي قال به الباقلاني، والأكثر من ذلك أن نظرية النظم التي نسبت إلى الجرجاني بعد أن شرحها وفسّرها بأسلوبه التعليمي والمنطقي الرشيق هي عين ما جاء به القاضي عبد الجبّار حيث كان أوّل من ربط معاني النحو بالنظم.

فهو بعد أن شرح معنى الإعجاز القرآني قائلا: ([1])"فمعنى قولنا في القرآن: إنه معجز، أن يتعذر على المتقدمين في الفصاحة فعل مثله في القدر الذي اختص به"، وَضّحَ الوجه الذي يَقع التفاضل في فصاحة الكلام فيه قائلاً: ([2])"اعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام، وإنما تظهر في الكلام بالضم، على طريقة مخصوصة، ولا بد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة، وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التي تتناول الضم، وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه، وقد تكون بالموقع، وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابع ؛ لأنه إما أن تعتبر فيه الكلمة، أو حركاتها، أو موقعها، ولا بد من هذا الاعتبار في كل كلمة، ثم لا بد من اعتبار مثله في كل الكلمات، إذا انضم بعضها إلى بعض".

([3])"ثم إن كلمة الضم عند عبد الجبّار، أليست هي النظم عند عبد القاهر؟ ...... وهذه الطريقة المخصوصة التي حدّدها عبد الجبّار وجعلها من جهات ثلاث: وضع الكلمة في اللغة، ثم موقعها من الإعراب، ثم موقعها في الجملة، أليست هذه هي معاني النحو عند عبد القاهر؟".

ولكن الجرجاني يأبى الاعتراف بهذا، بل يحكم بأن القاضي المعتزلي قد جعل المزية في معاني النحو من حيث لم يشعر، فيقول: ([4])"بل لم يتكلموا بشيء إلاّ كان ذلك نقضاً وإبطالاً لأن يكون

([1]) القاضي عبد الجبّار : المغني في أبواب التوحيد والعدل ٢٢٦/١٦ .
([2]) المرجع السابق نفسه ١٩٩/١٦ .
([3]) عبد الفتاح لاشين : بلاغة القرآن ٥٢٢ .
([4]) الجرجاني : دلائل الإعجاز ٣٩٤ .

اللفظ من حيث هو لفظ موضعاً للمزية، وإلاّ رأيتهم قد اعترفوا من حيث لم يدروا، بأن ليس للمزية التي طلبوها موضعٌ ومكانٌ تكون فيه، إلاّ معاني النحو وأحكامه".

فكيف استطاع الجزم بعدم إدراك القاضي عبد الجبّار لما يقول؟ وليس هذا فحسب، لكنه يشرع في افتراض معنىً للضّم الذي قال به القاضي المعتزلي، بعد أن يشوّه معنى النص بفصله عن بقيته، حيث يقول: ([1])"فقولهم بالضم، لا يصح أن يُراد به النطق باللفظة بعد اللفظة، من غير اتصال يكون بين معنييهما، لأنه لو جاز أن يكون لمجرد ضم اللفظ إلى اللفظ تأثير في الفصاحة، لكان ينبغي إذا قيل ضحك، خرج، أن يحدُث في ضم خرج إلى ضحك فصاحة ! وإذا بطل ذلك، لم يبقَ إلاّ أن يكون المعنى في ضم الكلمة إلى الكلمة توّخي معنى من معاني النحو فيما بينهما. وقولهم على طريقة مخصوصة، يوجب ذلك أيضاً، وذلك لأنه لا يكون للطريقة إذا أنت أردت مجرد اللفظ معنى".

ولا أبالغ في قولي: إنه، على الرغم من عدم تصريحه بفضل القاضي المعتزلي عليه في ولادة فكرة النظم، قد التقط فكرة النظم المتوخى من فلسفة النحو من القاضي المعتزلي، لكنه ([2])"تناوله بالتحديد والتفسير بأسلوبه العذب وقلمه الشائق، ويساعده كثرة محفوظه من اللغة، وثروته من عيون الشعر العربي".

ولا يقتصر تأثره به على نظرية النظم المتوخية معاني النحو، لكنه ينظر إلى اللفظ نظرة القاضي نفسها، فالقاضي يرفض تعليق الفصاحة بعذوبة اللفظ وحسن جريانه قائلاً: ([3])"فأما حسن النغم وعذوبة القول فمما يزيد الكلام حسناً على السمع، لا أنه يُوجِدُ فضلاً في الفصاحة .... ولا فضل فيما ذكرناه بين الحقيقة والمجاز، بل ربما كان المجاز أدخل في الفصاحة .... وكذلك فلا يعتبر بقصر الكلام وطوله وبسطه وإيجازه".

([1]) الجرجاني: دلائل الإعجاز ٣٩٤.

([2]) عبد الفتاح لاشين : بلاغة القرآن ٥٢٥ .

([3]) القاضي عبد الجبّار : المغني ٢٠١/١٦ .

والجرجاني في أكثر من موضع ينفي تعلّق إعجاز النظم والفصاحة باللفظ فيقول: ([1])"وهذه شبهة أخرى ضعيفة .... وهي أن يدعي أن لا معنى للفصاحة سوى التلاؤم اللفظي، وتعديل مزاج الحروف حتى لا يتلاقى في النطق حروف تثقل على اللسان".

ويقول في موضع آخر: ([2])"إن زعم زاعم أن الوصف المعجز هو الجريان والسهولة، ثم يعني بذلك سلامته من أن تلتقي فيه حروف تثقل على اللسان لأنه ليس بذلك كان الكلام كلاماً، ولا هو بالذي يتناهى أمره إن عُدَّ في الفضيلة إلى أن يكون الأصل، وإلى أن يكون المعوّل عليه في المفاضلة بين كلام وكلام، فما به كان الشاعر مُفْلِقاً، والخطيب مُصْقِعاً، والكاتب بليغاً".

ولم يكن حكم الجرجاني على الجاحظ بأفضل من حكمه على القاضي عبد الجبّار، فقد أخذ ظاهر لفظ الجاحظ في موضوع اللفظ والمعنى في مقولته المشهورة: ([3])"والمعاني مطروحة في الطريق، يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والقروي والمدني: وإنما الشأن في إقاقة الوزن، وتميّز اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع، وجودة السبك".

وكلام الجاحظ هذا لا يقدح بالمعنى، كما فهمه الجرجاني أو أراد، لأنه أراد أن يعوّل على النظم، فالمعنى الراقي بحاجة إلى نظم مستقيم تراعى فيه الألفاظ سهلة المخرج البعيدة عن الإغراب والوحشية.

ولكن الجرجاني غضّ الطرف عن هذا المعنى، وأطلق حكمه قائلاً: ([4])"وإذا نظرت في كتب الجاحظ وجدته يبلغ في ذلك كل مبلغ، ويتشدد غاية التشدّد، وقد انتهى في ذلك إلى أن جعل العلم بالمعاني مشتركاً، وسوّى فيه بين الخاصة والعامة".

والعجب كلّ العجب أن يلتبس على الجرجاني المعنى الذي أراده الجاحظ، مع أن روحَ كلامِ الجاحظ وآرائِه في النظم، وجمال اللفظ ومزيته في البعد عن الوحشية والإغراب، والبلاغة تتجلى في دلائل الجرجاني([5]).

([1]) الجرجاني : دلائل الإعجاز ٥٧ .

([2]) المرجع السابق نفسه ٤٧٤ .

([3]) الجاحظ : الحيوان ١٣٢/٤ .

([4]) الجرجاني : دلائل الإعجاز ٢٥٥ .

([5]) انظر تفصيل ذلك في : عبد المنعم خفاجي : عبد القاهر والبلاغة العربية ٥٣ .

وأقول: لقد وصل الجرجاني اللفظ بالمعنى وصلاً وثيقاً بأسلوب علمي فأثبت نظرية النظم، وأظن أن الجانب العقلي في تقرير نظريته قد اتضح الآن في كيفية برهنته على صحة ما ذهب إليه. ويبقى أن أشير إلى عنايته بالجانب النفسي.

فقد اهتم بالجانب النفسي، فنراه (١)"يعوّل على الحس المرهف، والذوق الرقيق، والطبع المطاوع، والعقل الواعي والإدراك الصحيح في فهمه الإعجاز، وأنه وراء كونه في النظم والصياغة والتأليف والترتيب يحتاج في فهمه وإدراك صفته وتفهّم سرّه إلى ملكة بيانية وذوق مهذّب وإحساس لطيف".

فنراه يقول: (٢)"واعلم أنه لا يصادف القول في هذا الباب موقعاً من السامع، ولا يجد لديه قَبولاً، حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة، وحتى يكون مما تحدِّثه نفسه بأَنَّ لما يُومئُ إليه من الحُسن واللطف أصلاً، وحتى يختلف الحالُ عليه عند تأمل الكلام، فيجد الأريحيّة تارةً، ويَعْرَى منها أخرى، وحتى إذا عَجَّبْتَهُ عَجِبَ، وإذا نبهّته لموضع المزية انتبه".

والملاحظ من آراء الجرجاني في النّظم أنها ناضجة متبلورة تخاطب العقل والروح معاً، فتفوق ما جاء به الباقلاني من كل جانب.

فالباقلاني كان يرى في البليغ وحده القدرةَ على معرفة الإعجاز بالنظم والإحساس به، بينما يرفض الجرجاني ذلك، ولا يخصّ العربي الفصيح البليغ بامتلاك الأداة العقلية والحاسة الذوقية لإدراك النظم المعجز، فيدعو الجميع إلى تأمل القرآن لإدراك مواطن الإعجاز فيه، ويأبى الجنوح إلى ذلك الرأي الكسول الذي يدعو من لا يمتلك أدوات أسرار العربية إلى التقليد دون النظر والتمحيص، فيقول: (٣)"واعلم أنه ليس إذا لم تُمكِنُ معرفة الكل، وجب ترك النّظر في الكل. وأن تعرف العلّة والسبب فيما يمكنك معرفة ذلك فيه وإن قَلَّ فتجعلُه شاهداً فيما لم تعرف، أحرى منْ أن تسدَّ باب المعرفة على نفسك، وتأخذها عن الفهم والتفهّم، وتعودها الكسل والهوينا".

---

(١) صابر أبو سليمان : رونق البيان في إعجاز القرآن ١١٥ .
(٢) الجرجاني : دلائل الإعجاز ٢٩١ .
(٣) المرجع السابق نفسه ٢٩٢ .

لقد كان لعبد القاهر الفضل الكبير في تعميق النظر في مسألة النظم القرآني المعجز، فليس للنحو ولا لفلسفته مكان في نظم الباقلاني، بينما استوفى الجرجاني الحديث في ذلك موضحاً ومطبّقاً ومُسهباً.

وما مِنْ شك من أن الجرجاني قد تقدّم الباقلاني في مسألة النظم وفضله في سائر ما أورد فيها وعالج هنا.

البيان

اهتم كل من الباقلاني والجرجاني بالبيان، لقناعتهما في قدرته على تحقيق الإعجاز في سياق النظم. لهذا أسأل فأقول:

بمَ التقى العلمان في معالجتهما البيان، وفيمَ فاق أحدهما الآخر في تناوله الألوان البلاغية والبديعيّة؟

والجواب: لقد اشتركا في استعراضهما صور البلاغة والبديع مرحلةً أولى تشي بمنهج في الدرس سليم، مع فارق القدرة على التجديد والإضافة وتأسيس العلم.

ثم التقيا في المرحلة الثانية في رفض تعليق الإعجاز بالبيان وحده دون النظم، مشتركين في حجة هذا الرفض من عدم وجود صور البديع في آي القرآن كلها، فيكون مناط إعجازها مرتبطاً بسياقها في النظم.

فهذا الباقلاني قد نظّر أولاً للبلاغة والبديع. وقد تأثر بالرّماني الذي نقل عنه فاختصر وشوّه أحيانا. حيث قال: ([1])"ذكر بعض أهلِ الأدب والكلام([2]): أن البلاغة على عشرة أقسام: الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمين، والمبالغة، وحسن البيان".

([1]) الباقلاني : إعجاز القرآن ٢٦٢ .

([2]) يعني الرماني ، انظر الرماني : النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) ٧٦حتى١٠٦

ثُمَّ شرع في شرح كل قسم من هذه الأقسام العشرة، مقتبساً من الرّماني عرضه وشواهده القرآنية، مع قليل من اختصار مُخِلٍّ أحيانا([1]).

وكذلك فعل في دراسته البديع، حيث درس معظم وجوه البديع مستشهِداً في شرحه لكل وجه مدروس بشواهد من الشعر، والشواهد القرآنية. حيث يقول: ([2])"ومن البديع في الشعر طرق كثيرة، قد نقلنا منها جملة، لتستدل بها على ما بعدها". ثم انتقل مباشرة إلى تفصيل هذه الوجوه مستشهداً بأشهر الأبيات الشعرية، ثم إن وجد له مثيلاً في القرآن الكريم أردف قائلا": ([3])"ويجعلون من هذا القبيل ما قدمنا ذكره من القرآن: ﴿ ....".

فمن وجوه البديع التي عرضها([4]) " الغلو والإفراط في الصفة، والتشبيه الحسن، والمماثلة، والمطابقة، والتجنيس، والمقابلة، والموازنة، والمساواة، والإشارة، والمبالغة، والإيغال، والتوشيح، ورد عجز الكلام على صدره، والكناية، والالتفات، والاستطراد، والتكرار، والاستثناء.

ثم يبدأ بربط البلاغة والبديع بإعجاز القرآن، فقد ([5])"رفض أن تستقل ألوان البديع أو وجوه البلاغة ببيان جمال العبارة، أو جمال النظم القرآني". فهو يقسم هذه الألوان والوجوه قسمين: ([6])"فمنها ما يمكن الوقوع عليه، والتعمّل له، ويُدرك بالتعلّم، فما كان كذلك فلا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن به، وأما ما لا سبيل إليه بالتعلّم والتعمّل من البلاغات فذلك هو الذي يدل على إعجازه".

ثم نراه يوضح رأيه هذا قائلاً: ([7])"فأما الآية التي فيها ذكر التشبيه، فإن ادّعى إعجازها لألفاظها ونظمها وتأليفها، فإني لا أدفع ذلك وأصححه، ولكن لا أدّعي إعجازها لموضع التشبيه".

([1]) انظر شرحه لأقسام البلاغة في إعجاز القرآن .
([2]) الباقلاني : إعجاز القرآن ٦٩ .
([3]) المرجع السابق نفسه ٧٢ .
([4]) انظر كتابه من ٧١ حتى ١٠٧ لتفصيل هذه الوجوه والنظر في شواهدها .
([5]) عبد العزيز عرفة : قضية الإعجاز القرآني ٤٢٠ .
([6]) الباقلاني : إعجاز القرآن ٢٧٥ . وقال في موضع آخر "وقد قدّر المقدرون أنه يمكن استفادة إعجاز القرآن من هذه الأبواب التي نقلناها ، وأن ذلك مما يمكن الاستدلال به عليه . وليس كذلك عندنا ؛ لأن هذه الوجوه إذا وقع التنبيه عليها أمكن التوصل إليها بالتدريب والتعوّد والتصنع لها .... والوجوه التي تقول : إن إعجاز القرآن يمكن أن يُعلم منها ، فليس مما يقدر البشر على التصنّع له والتوصّل إليه بحال" إعجاز القرآن ١٠٧ .
([7]) الباقلاني : إعجاز القرآن ٢٧٦ .

فالباقلاني، إذن، يرفض أن يستقل البديع والبلاغة ببيان إعجاز القرآن، حيث ارتضى هذا الرّماني الذي نقل عنه معظم هذه الوجوه، كما بيّنا، وحجته في ذلك [1]"أن هذا الفن ليس فيه ما يخرق العادة، ويخرج عن العرف، بل يمكن استدراكه بالتعلّم والتدرّب به، والتصنع له، كقول الشعر، ورصف الخطب، وصناعة الرّسالة، والحذق في البلاغة، وله طريق يسلك ووجه يقصد، وسلّم يرتقى فيه إليه، ومثال قد يقع طالبه عليه، وهذا طريق لا يتعذّر، وباب لا يمتنع، وكل يأخذ فيه مأخذاً، ويقف منه موقفاً، على قدر ما معه من المعرفة، وبحسب ما يمدّه من الطبع. أما شأو نظم القرآن، فليس له مثال يُحتذى عليه، ولا إمام يُقتدى به، ولا يصحُّ وقوع مثله اتفاقاً".

ويبقى أن أقول: إن الباقلاني استعرض صور البديع ليذكر ما إذا كانت تصلح وجهاً إعجازياً للقرآن، لكنه في المرحلة التنظيريّة [2]"لم يجدّد في دراسة البديع، ولم يضف إليه صوراً جديدة، وإنما هو ينقل عن سابقيه، ينقل الظاهرة، وينقل أمثلتها".

أما الجرجاني فإنه [3]"يعد أول من أسّس مِن هذا العلم قواعده، وأوضح براهينه، وأظهر فوائده، ورتّب أفانينه". ولذلك يعّده المحدثون رجل البلاغة الأول، حيث [4]"نظّم الأفكار التي قيلت في الموضوع، وجعلها قواعد علمية".

فقد تميّز الجرجاني في دراسته البيانية في كتابه دلائل الإعجاز، فقد [5]"تناول الألوان البلاغية، بالتحليل والتعليل والشرح والتفصيل والتقنين والتحديد والمقارنة والتمثيل، مستخدماً في ذلك كل ذوقه البلاغي المرهف، وعقليته الناضجة المتفتّحة". وهو يهتم فيها لأنها من مقتضيات النظم. فهو يعقد فصولاً في كتابه بيانيّةً، يتناول فيها البيان بالدراسة التنظيرية، فمن هذه الفصول:

- فصل في اللفظ يُطلق والمراد به غير ظاهره[6].
- فصل في الكناية والاستعارة والتمثيل[7].

---

(1) الباقلاني: إعجاز القرآن ١١٢ .
(2) عبد الرؤوف مخلوف : الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن ٢٩٠ .
(3) عبد العزيز عرفة : قضية الإعجاز القرآني ٦٥٨ .
(4) نعيم الحمصي : فكرة إعجاز القرآن ٤٥ .
(5) عبد العزيز عرفة : قضية الإعجاز القرآني ٦٥٨ .
(6) انظر كتابه الدلائل ٦٦ حتى ٦٩ .
(7) انظر كتابه الدلائل ٧٠ حتى ٧٣ .

- فصل في الاستعارة وبدائعها([1]).
- فصل في أن الفصاحة والبلاغة للمعاني([2]).

أما في تعليق البيان بإعجاز القرآن، فإنه يلتقي مع الباقلاني في ذلك، حيث يرفض أن يقصر الإعجاز في القرآن على ألوان البيان، لأن ذلك يقتضي حصر الإعجاز في آيات محدودة من القرآن الكريم.

فنراه يقول في وصف الذي أعجزهم من القرآن الكريم: ([3])"لم يبق إلاّ أن يكون في النظم، لأنه ليس من بعد ما أبطلنا أن يكون فيه إلاّ النظم والاستعارة ولا يمكن أن نجعل الاستعارة الأصل في الإعجاز وأن يُقصر عليها، لأن ذلك يؤدي إلى أن يكون الإعجاز في آي معدودة في مواضع من السّور الطوال مخصوصة".

ثم يعود ويفصّل ما ذهب إليه مِنْ عدم جعل الاستعارة وضروب المجاز الأصل في الإعجاز فيقول: ([4])"فإن قيل: قولك إلاّ النظم، يقتضي إخراج ما في القرآن من الاستعارة وضروب المجاز مِنْ جملة ما هو معجز، وذلك ما لا مساغ له. قيل: ليس الأمر كما ظننت، بل ذلك يقتضي دخول الاستعارة فيما هو به معجز، وذلك لأن هذه المعاني التي هي الاستعارة، والكناية، والتمثيل، وسائر ضروب المجاز مِنْ بعدها من مقتضيات النظم، وعنه يحدث وبه يكون، لأنه لا يُتَصَوَّرُ أن يدخل شيء منها في الكلم وهي أفراد لم يتوّخ فيما بينها حكم مِنْ أحكام النحو. فلا يتصوّر أن يكون ههنا فعل أو اسم قد دخلته الاستعارة من دون أن يكون قد أُلِّفَ مع غيره".

وهكذا ترى كيف اتفق الجرجاني مع الباقلاني في رفض تعليق الإعجاز بضروب البيان، ولكنه فاقه في عرض الحجة وتوضيحها لربطه إياها بنظرية النظم. كما أنه فاقه في المرحلة الأولى المعرّفة بألوان البديع، ([5])"فأين هو من الباقلاني الذي لا يزيد على

([1]) انظر كتابه الدلائل ٧٤ حتى ٧٩ .
([2]) انظر كتابه الدلائل ٤٢٩ حتى ٤٥١ .
([3]) الجرجاني : دلائل الإعجاز ٣٩١ .
([4]) المرجع السابق نفسه ٣٩٣ .
([5]) عبد الرؤوف مخلوف : الباقلاني وكتابة إعجاز القرآن ٢٩٩ .

أن يذكر الظاهرة، ويسوق لها الأمثلة من كلام العرب ومن القرآن الكريم غير مُبْدٍ رأياً إلاّ في أحيان قليلة، وإنما يكتفي بالنقل من غيره في التمثيل لأكثر ما يذكر".

فما من شك إذن من تفوّق الجرجاني على الباقلاني في دراسته هنا للبيان.

وهكذا أكون قد وقفت عند أبرز المفردات المؤتلفة بينهما، وبقي أن أقف عند المختلف بينهما، وسأكتفي هنا بذكر مفردة واحدة لكل منهما، ذكرها أحدهما دون الآخر.

فمن المختلف بينهما:

السجع[1] والباقلاني في "إعجاز القرآن"

عمد الباقلاني إلى إثبات أن نظام القرآن مخالف لأنظمة الكلام البشري، لذلك نراه عقد فصلاً في كتابه بعنوان "فصل في نفي السجع من القرآن"، وجده محقّق كتابه إعجاز القرآن ([2])"أخف فصول الكتاب وزناً وأقلها قدراً، وأحفلها بالخطأ البّين في أصل الفكرة، وفي كيفية نصرها والدفاع عنها، والحجاج دونها، والرد على مخالفيها".

فهو يعيب فيه السجع، وينفي وروده في القرآن، فيعرض لحجج القائلين بوجود السجع في القرآن، ثم يرّدها ردّاً واهياً ناتجاً عن فهم خاطئ للشاهد. وموّحداً بين نوعي السجع: المحمود منه والمرذول، فقد تجاهل السجع المطبوع النائي عن التكلّف وإتباع المعنى للّفظ.

وليته اكتفى برفض أن يكون السجع دليلاً على إعجاز القرآن، لحجة تطابق حجته في ردّ أن يكون البيان وجه الإعجاز. حيث قال: ([3])"إنّ السجع ما ليس يلتمس فيه الإعجاز، لأن ذلك أمر محدود، وسبيل موررود، ومتى تدرّب الإنسان به، واعتاده، لم يستصعب عليه أن يجعل جميع كلامه منه".

([1]) السَّجَع : هو الكلام المقفى ، وسَجَعَ يَسْجَعُ : تكلّم بكلام له فواصل كفواصل الشّعر من غير وزن . انظر ابن منظور : لسان العرب مادة سجع .

([2]) الباقلاني : إعجاز القرآن . في مقدمة المحقق ٧٤ .

([3]) المرجع السابق نفسه ٢٨٤ .

ولكننا نراه يتأثر بالرّماني في ردّه السجع عن القرآن، فقد قال الرّماني: ([1])"والفواصل([2]) بلاغة، والأسجاع عيب، وذلك أن الفواصل تابعة للمعاني، وأما الأسجاع فالمعاني تابعة لها".

ويقول الباقلاني: ([3])"والأسجاع عيب، لأن السجع يتبعه المعنى، والفواصل تابعة للمعاني، والسجع كقول مسيلمة".

فالرّماني أخطأ عندما عاب السجع مرذوله ومحموده، وتابعه الباقلاني على خطئه في اتباعه المعنى للفظ دائماً، فليس كل السجع كذلك، إنما هو نوع رديء من السجع اتبعه كهّان الجاهلية. فأين هما من النوع الذي ([4])"يقع فيه اللفظ الموقع الرائع، وهو مع ذلك تابع للمعاني، وهذا هو النوع المحمود الذي جاء في المأثور الصحيح عن بلغاء الجاهلية، وفصحاء الإسلام، وورد في أحاديث الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ على أكمل وجه، وأتم نسق اتفق وجوده في كلام البشر".

فهو يقول في عرضه لهذه القضية الخلافية: ([5])"ذهب أصحابنا([6]) كلهم إلى نفي السجع من القرآن، وذكره الشيخ أبو الحسن الأشعري ــ رضي الله عنه ــ في غير موضع من كتبه. وذهب كثير ممن يخالفهم إلى إثبات السجع في القرآن، وزعموا أن ذلك مما يبين به فضل الكلام، وأنه من الأجناس التي يقع فيها التفاضل في البيان والفصاحة .... وأقوى ما يستدلون به عليه: اتفاق الكل على أن موسى أفضلُ من هارون ــ عليهما السلام ــ ولمكان السجع قيل موضع ﴿هَارُونَ وَمُوسَى﴾ [طه ٧٠]، ولما كانت الفواصل في موضع آخر بالواو والنون، قيل: ﴿مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الأعراف ١٢٢]. قالوا: وهذا يفارق أمر الشعر ؛ لأنه لا يجوز أن يقع في الخطاب إلاّ مقصوداً إليه، وإذا وقع غير مقصود إليه كان دون القدر الذي نسميه شعراً .... وأما ما في القرآن من السجع فهو كثير، لا يصح أن يتفق كله غير مقصود إليه".

([1]) الرماني : النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) ٩٧ .

([2]) قد عرف الرّماني الفواصل بأنها "حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني" النكت في إعجاز القرآن ٩٧ . ونقل عنه الباقلاني التعريف نفسه في إعجاز القرآن ٢٧٠ .

([3]) الباقلاني : إعجاز القرآن ٢٧٠ .

([4]) المرجع السابق نفسه ، مقدمة التحقيق ٧٥ .

([5]) المرجع السابق نفسه ٥٧ .

([6]) يعني الأشاعرة .

فالباقلاني هنا واجه حجة ضعيفة للقائلين بإثبات السجع في القرآن الكريم لكنه دفعها دفعاً ضعيفاً أيضاً.

فموطن ضعف الحجة: في أن ([1])"الاحتجاج الذي ذكروه في تقديم هارون على موسى يؤكد فكرة الباقلاني عن السجع، وهي أنه تصرّف لا يدخل في أداء المعنى وإنما يقصد به التحسين اللفظي فحسب، ولا يقال إنّ التوافق اللفظي من وسائل الإبانة، وأقدر على بث المعنى في نفس السامع لأن كلامهم لا يدل على ذلك".

ودَفْعُ الباقلاني هذه الحجة لا يخلو من ضعف حيث قال: ([2])"وأما ما ذكروه من تقديم موسى على هارون ــ عليهما السلام ــ في موضع، وتأخيره عنه في موضع لمكان السجع وتساوي مقاطع الكلام، فليس بصحيح، لأن الفائدة عندنا غير ما ذكروه. وهي: أن إعادة ذكر القصّة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدي معنىً واحداً، من الأمر الصعب الذي تظهر به الفصاحة وتتبيّن به البلاغة. و أُعيدَ كثير من القصص في مواضع كثيرة مختلفة، على ترتيبات متفاوتة، ونُبِّهوا بذلك على عجزهم عن الإتيان بمثله مبتدأ به ومكرّراً. ولو كان فيهم تمكن من المعارضة لقصدوا تلك القصة، وعبّروا عنها بألفاظ لهم تؤدي تلك المعاني ونحوها، وجعلوها بإزاء ما جاء به، وتوصلوا بذلك إلى تكذيبه .... فعلى هذا يكون المقصد بتقديم بعض الكلمات وتأخيرها، إظهار الإعجاز على الطريقتين جميعاً، دون السجع الذي توهموه".

وموطن ضعف رد الحجّة: في أنه ([3])" يفترض أن اختلاف الصياغات في تكرار القصص إنما هو لإظهار القدرة على إعادة القصّة مع إحكام الصوغ ودقّة السبك، وهذا مما يصعب. وأقول: ليس اختلاف الصياغة في تكرار القصّة لذلك، ولا لبيان عجزهم عنها ابتداءً وتكراراً، لأن هذه غايات قريبة، ثم إنّ هذا التوجيه قائم على فرض غير مسلم، وهو أن المعنى واحد في المرتين من غير زيادة ولا نقصان، وليس الأمر كذلك، لأن القصة في كل مرّة تركّز على إبراز جانب منْ جوانب العبرة لم يكن في غير هذا الموضوع على هذا القدر من الوضوح و ذلك طبقاً لمتطلبات السياق ومقتضياته.

([1]) محمد محمد أبو موسى : الإعجاز البلاغي ١٩٨ .
([2]) الباقلاني : إعجاز القرآن ٦٢ .
([3]) محمد محمد أبوموسى : الإعجاز البلاغي ١٩٩ .

...... أما تقديم هارون على موسى في آية طه ففيه إشارة معنوية لا تكون لو أخّر، وذلك أن موسى وهارون ــ عليهما السّلام ــ وإن حُملا معاً أمر الله .... إلاّ أن موسى ــ عليه السّلام ــ هو الأصل .... وهذا يجعل لقولهم: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ [طه ٧٠] ......معنى ليس في قولهم: ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الشعراء ٤٨] لأن بدْأَهُم بمن ليس أفضل دال على إظهار قوة الاقتناع بالحجة والإيمان بها، وذلك لأن الآية لم تظهر على يد هارون ولم يكن هو الغالب، وليس في تقديم موسى الذي لقفت عصاه ما صنعوا شيئاً يلفت لأنه هو الأصل، أما تقديم من لا دخل له في المعجزة التي عليها آمنوا فهو الأمر اللافت لأنه جاء على خلاف الأصل".

وهو لا يكتفي بهذه الحجة الضعيفة، لكنه يعتمد حديث الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ في السجع حيث يقول: ([1])"وقد رُوِي أن النبي ــ صلى الله عليه وسلّم ــ قال للذين جاؤوه وكلّموه في شأن الجنين: كيف نُديَ من لا شَرِبَ ولا أكَل، ولا صَاح فاستَهَلّ، أليس دَمُه قد يُطَلُّ؟ فقال: "أسجاعة كسجاعة الجاهلية؟" وفي بعضها: "أسجعاً كسجع الكهان؟" فرأى ذلك مذموماً لم يصح أن يكون في دلالته".

وليس الحديث على المعنى الذي فسّره الباقلاني، فقد أورد الجاحظ كلاماً لعبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرّقاشي، عندما سُئِل عن سبب تفضيله السجع على المنثور، يشرح فيه مراد الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ حيث قال: ([2])"لو أن هذا المتكلم لم يُرِد إلاّ الإقامة لهذا الوزن، لما كان عليه بأس، ولكنّه عسى أن يكون أراد إبطال حق، فتشادق في الكلام". وواضح من هذا أن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ أنكر السجع المؤثر في النفوس لموسيقاه في إبطال الحق. ([3])"ولو كان النبي أراد إلى ذمّه لقال: أسجعاً فقط".

ثم إن الباقلاني يواصل رد السجع عن القرآن بحجج واهية، فيقيس حالة بحالة لا يصحّ القياس فيها. فالسجع يكسب القرآن جمالاً موسيقياً عندما يتوسّع في الوزن، ويتنوع في الفواصل، ويغاير في الإيقاع وجرس الكلمات. وهذا ما غاب عنه عندما قال: ([4])"لو كان الذي في القرآن على ما

([1]) الباقلاني : إعجاز القرآن ٥٨ .
([2]) الجاحظ : البيان والتبين ١/٢٨٧ .
([3]) الباقلاني : إعجاز القرآن مقدمة التحقيق ٧٥ .
([4]) المرجع السابق نفسه ٥٩ .

تقدرونه سجعاً لكان مذموماً مرذولاً، لأن السجع إذا تفاوتت أوزانه، واختلفت طرقه، كان قبيحاً من الكلام، وللسجع منهج مرتّبٌ محفوظ، وطريق مضبوط، متى أخل به المتكلّم وقع الخلل في كلامه، ونسب إلى الخروج من الفصاحة. كما أن الشاعر إذا خرج عن الوزن المعهود كان مخطئاً، وكان شعره مرذولاً وربما أخرجه عن كونه شعراً".

فالسجع في القرآن جاء ليصوّر ([1])"الأفكار والمواقف على اختلافها فاختلف هو الآخر بالطول والقصر والمساحة والمقطع، ولم يلتزم التساوي اللفظي، لأنه ليس من الاهتمام بالصورة الخارجية في شيء، وإنما هو من المعنى والفكرة كل شيء".

فهذا التعويل على الشكل والقالب هو الذي دفع الباقلاني للاحتجاج بمسألة التحدي والمعارضة، والاستشهاد بالصرفة في رد السجع حيث يقول: ([2])"ولو كان الكلام الذي هو في صورة السجع منه لما تحيّروا فيه، ولكانت الطّباع تدعو إلى المعارضة، لأن السجع غير ممتنع عليهم، بل هو عادتهم، فكيف تنتقض العادة: بما هو نفس العادة، وهو غير خارج عنها، ولا متميّز منها؟".

وهذه حجة واهية الضعف مردودة، مفادها رد الإعجاز إلى الشكل والقالب، والحجة الأوهى عندي هي ربطه الصّرفة بذلك، فقد ظهر الخلط فيها واضحاً حيث يقول: ([3])"ولا بد لمن جوّز السجع فيه وسلك ما سلكوه مِنْ أن يُسلّم ما ذهب إليه النّظام .... في أنه ليس في نظم القرآن وتأليفه إعجاز، وأنه يمكن معارضته، وإنما صُرفوا عنه ضَرْباً من الصّرف".

وهكذا يظهر ضعف حجج الباقلاني في ردّه السجع من القرآن. وهذا أمرٌ مسوّغ، إذ كيف له أن يأتي بحجج قويّة ليثبت رأياً باطلاً، فالقرآن الكريم لا يخلو من السجع المحمود، فهو ([4])"من الميزات البلاغية التي يجدر بنا أن ننزّه القرآن عن خلوّه منها ".

([1]) عبد الرؤوف مخلوف : الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن ٢٣٣ .
([2]) الباقلاني : إعجاز القرآن ٦٠ .
([3]) المرجع السابق نفسه ٦٥ .
([4]) المرجع السابق نفسه ، مقدمة التحقيق ٧٧ .

النحو والجرجاني في "دلائل الإعجاز"

لقد اعتمد الجرجاني النحو لإثبات نظرية النظم، كما مرّ بنا، وليس النحو عنده إعراب، لكنه ينظر في أصول النحو ويفلسفه، ويجعله مناط النظم المعجز الذي يَقْصِد إلى أصول النحو ويتوخاها. فإن ([1])"نظرة عبد القاهر إلى النحو كما صوّرها في دلائل الإعجاز نقلت هذا العلم من الاهتمام بأواخر الكلمات إلى جو رحب يفيض حركة وحياة".

فهو يبتدئ حديثه في النحو في دلائله كما ابتدأه النحاة جميعاً من ذكر أقسام الكلام فيقول: ([2])"والكلم ثلاث: اسم، وفعل، وحرف. وللتعليق فيما بينهما طرق معلومة، وهو لا يعدو ثلاثة أقسام: تعلّق اسم باسم، وتعلّق اسم بفعل، وتعلّق حرف بهما".

ثم نراه يلخّص أبواب النحو كاملة بذكره هذه التعليقات، وما يندرج تحتها من مفردات نحوية، مستشهداً بالشواهد القرآنية، والأمثلة النحوية على غرار ما يفعل النحويون.

فينتج عن تعلّق الاسم بالاسم: واحدٌ من الأبواب النحوية التالية:

- الخبر
- الحال
- التابع (من صفة، أو تأكيد، أو عطف بيان، أو بدل، أو عطف بحرف)
- المضاف
- العامل (حيث يعمل الأول في الثاني عمل الفعل)
- التمييز([3]).

([1]) أحمد مطلوب : عبد القاهر الجرجاني ٦٥ .

([2]) الجرجاني : دلائل الإعجاز ٤ .

([3]) ونلاحظ براعة الجرجاني وذكاءه في حصره المكثف للوجوه التي تمنع الاسم من الإضافة ضارباً لكل حالة مثالاً حيث يقول : "وذلك بأن يكون فيه نون التثنية ، كقولنا : قفيزان بُراً . أو نون الجمع كقولنا : عشرون درهماً، أو تنوين كقولنا :راقودٌ خلاً ، وما في السماء قدرُ راحة سحاباً ، أو تقدير تنوين كقولنا : خمسة عشر رجلاً ، أو يكون قد أضيف إلى شيء فلا يمكن إضافته مرّة أخرى ، كقولنا : لي ملؤه عسلاً ، وكقوله تعالى : ﴿ملءُ الأرض ذهباً﴾ [آل عمران ٩١]" دلائل الإعجاز ٥ .

وينتج عن تعلّق الاسم بالفعل:

- الفاعل
- المفعول (من مصدر، أو ظرف للزمان أو المكان، أو مفعول معه، أو مفعول له، أو حال، أو تمييز، أو مستثنى منتصب عن تمام الكلام)

وينتج عن تعلّق الحرف بهما:

- أن يتوسّط الحرف بين الاسم والفعل، وذلك في حروف الجر، والواو بمعنى مع.
- أن يتعلّق الحرف بما يتعلق به، وذلك في العطف، حيث يدخل الثاني في عمل العامل في الأول.
- أن يتعلق الحرف بمجموع الجملة، وذلك في تعلّق حرف النفي والاستفهام والشرط والجزاء بما يدخل عليه([1]).

فيستنتج الجرجاني من هذا التعليق للكلم، أن الكلام لا يكون من جزء واحد، فلا بدَّ من مسند ومسند إليه.

ثم هو بعد هذا الإلمام المكثف لموضوعات النحو، يقف نفسه للدفاع عنه، بعد أن يعرض ذم الجهّال للنحو، وزهدهم فيه، فيذكر تهاون طائفة من الناس بالنحو، فيقول: ([2])"وأما النحو، فَظَنَّتهُ ضرباً من التكلّف، وباباً من التعسّف، وشيئاً لا يستند إلى أصل، ولا يعتمد فيه على عقل، وأن ما زاد منه على معرفة الرفع والنصب وما تجده في المبادئ، فهو فضل لا يجدي نفعاً، ولا تحصل منه على فائدة، وضربوا له المثل بالملح كما عرفت، إلى أشباه لهذه الظنون في القبيلين، وآراء لو علموا مغبَّتها وما تقود إليه، لتعوذوا بالله منها".

ونراه في موضع آخر يوضّح مزايا علم النحو فيقول: ([3])"وأما زهدهم في النحو واحتقارهم له، وإصغارهم أمرَه، وتهاونهم به، فصنيعهم في ذلك أشنع من صنيعهم في الذي تقدّم، وأشبه بأن

([1]) انظر الجرجاني : دلائل الإعجاز ، المدخل ٤ حتى ٨ .
([2]) المرجع السابق نفسه الفاتحة ٨ .
([3]) المرجع السابق نفسه ٢٨ .

يكون صداً من كتاب الله وعن معرفة معانيه ذاك لأنهم لا يجدون بُدّاً من أن يعترفوا بالحاجة إليه فيه، إذ كان قد عُلِمَ أن الألفاظ مُغْلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها، وأن الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها، وأنه المعيار الذي يتبيّن نقصان كلام ورجحانه حتى يُعرَض عليه، والمقياس الذي لا يُعْرَفُ صحيح من سقيم حتى يُرجَعَ إليه".

ثم يعرض لحجة زاهد في النحو، يحسب أنّ في بعض المسائل الصرفية تكلّفاً لا حاجة إليه، فيرد عليه، حيث يقول: (1)"فإن قالوا: إنّا لم نأبَ صحة هذا العلم، ولم ننكر مكان الحاجة إليه في معرفة كتاب الله تعالى، وإنما أنكرنا أشياءَ كثرتموه بها، وفُضُولَ قول تكلّفتموها، ومسائلَ عويصة تجشمتم الفكر فيها، ثم لم تحصلوا على شيء أكثر من أن تغربوا على السامعين ....قيل لهم: خَبِّرونا عما زعمتم أنه فضول قول، وعويصٌ لا يعودُ بطائل، ما هو؟ فإن بدأوا فذكروا مسائل التصريف التي يضعها النحويون للرياضة، ولضرب من تمكين المقاييس في النفوس ......وقالوا: أتشكوّن أن ذلك لا يجدي إلاّ كد الفكر وإضاعة الوقت؟ قلنا لهم: أما هذا الجنس، فلسنا نعيبكم إن لم تنظروا فيه، ولم تعْنوا به، وليس يهمنا أمره، فقولوا فيه ما شئتم، وضعوه حيث أردتم.

فإن تركوا ذلك وتجاوزوه إلى الكلام عن أغراض واضع اللغة، ....وتقرير المقاييس التي اطّردت عليها، وذكر العلل .... كالقول في المعتل، وفيما يلحق الحروف الثلاثة التي هي الواو والياء والألف من التغيير بالإبدال والحذف والإسكان، أو ككلامنا مثلاً على التثنية وجمع السلامة، لم كان إعرابهما على خلاف إعراب الواحد، ولم تبع النصبُ فيهما الجر؟ وفي النون أنه عوَض عن الحركة والتنوين في حال، وعن الحركة وحدها في حال، والكلام على ما ينصرف وما لا ينصرف.......

قلنا: إنا نسكت عنكم في هذا الضرب أيضاً، ونعذركم فيه ونسامحكم، على علم منا بأن قد أسأتم الاختيار، ومنعتم أنفسكم ما فيه الحظ لكم، ومنعتموها الاطلاع على مدارج الحكمة، وعلى العلوم الجمّة. فدعوا ذلك وانظروا في الذي اعترفتم بصحته وبالحاجة إليه، هل حصلتموه على وجهه؟ وهل أحطتم بحقائقه؟".

(1)انظر الجرجاني : دلائل الإعجاز ٣٠ .

ثم يبدأ فيفصّل لهم كيف عليهم أن يحكموا معرفتهم بالنحو الذي اعترفوا بصحته وبالحاجة إليه، حتى يأمنوا الخطأ إن أرادوا التفسير والتأويل والاستشهاد والتعرف إلى الصحيح من السقيم، فيضرب لهم مثالاً بالمبتدأ والخبر، فبعد أن يعرفوا صورته وإعرابه فعليهم أن ينظروا في أقسام الخبر، وسائر ما يتصل بباب الابتداء من المسائل اللفظية والفوائد الجليلة.

ولكن النحو عند عبد القاهر يأخذ معنى واسعاً، فيدرسه دراسة بلاغية، فهو يختلف في منهجه [1]"عن منهج النحاة في بحثهم، كما يختلف في فهمه وتفسيره لهذه الأساليب اختلافاً كبيراً، فقد أعطى هذه الموضوعات حياةً فقدها على يد الذين قللوا من قيمة النحو وزهدوا فيه، أو نظروا إليه نظرة ضيّقة تنحصر في الإعراب والبناء. **وكان النحو عنده عمدة البياني الذي يحلل النصوص ويوازن بينها، ويفضل بعضها على بعض**".

فليس الهدف من دراسة النحو عنده معرفة قواعد النحو وحدها، وإنما معرفة الفرق في معاني العبارات ومواضعها الناتجة عن تغيّر نظمها القاصد إلى هذه المعاني النحوية.

فهو يعقد فصولاً في كتابه يعالج فيها موضوعات النحو بأسلوب تحليلي جديد، فَنَقَل النحو [2]"إلى جو يزخر بالحيوية، وجعل موضوعاته ميداناً يجول فيها ذهنه الوقّاد وقلمه البديع، ويطلع الناس على ألوان من التعبير مرّت بهم ولكنهم لم يتذوقوها، ولم يقفوا على روعتها وجمالها".

فمن الفصول النحوية التي عقدها في دلائله، فقدّم فيها طريقاً جديدة في البحث اللغوي:

- فصل في التقديم والتأخير.
- فصل فيه مسائل في النفي، مع التقديم والتأخير، وتقديم الفاعل، وتقديم المفعول.
- فصل في التقديم والتأخير في الخبر المثبت، وهو قسمان جلي وخفي.
- فصلٌ، القول في الحذف، وهو باب دقيق المسلك، حذف المبتدأ وحذف الفعل.
- فصلٌ في القول على فروق في الخبر: خبرٌ جزء من الجملة، وخبر ليس بجزء من الجملة، ولكنه زيادة في خبر آخر سابق له، كالحال والصفة.

---

(1) أحمد مطلوب: عبد القاهر الجرجاني ٦٠.
(2) المرجع السابق نفسه ٦٣.

- فصل في الذي خصوصاً، وفيه أسرار جمة، ومجيء الذي في وصف المعارف بالجمل.
- فصل، فروق في الحال.
- فصل، القول في الفصل والوصل.
- فصل، في أن ترك العطف يكون إما للاتصال إلى الغاية، أو الانفصال إلى الغاية، والعطف لما هو واسطة بين الأمرين.
- فصل دقيق، الجملة لا تعطف على ما يليها، ولكن تعطف على جملة بينها وبينها جملة أو جملتان.
- فصل في إنّ ومواقعها.
- فصل في مسائل إنّما.

وأَضْرِبُ الآن مثالاً لمفردة من مفردات فصوله هذا لنتعَرّف إلى كيفية هذه المعالجة الذكية التي تتوغل في فلسفة النحو، حيث عقد فصلاً[1] في دلائله، حول النكرة إذا قدّمت على الفعل أو قدّم الفعل عليها، وكانت من مفردات هذا الفصل: النكرة وتقديمها على الفعل في الاستفهام. حيث قال: [2]"إذا قلت: أجاءك رَجَلٌ؟ فأنت تريد أن تسأل هل كان مجيء من واحد من الرجال إليه.

فإن قدمت الاسم فقلت: أَرَجَلٌ جاءك؟ فأنت تسأله عن جنس من جاءه ، أرجلٌ هو أم امرأة؟ ويكون هذا منك إذا كنت علمت أنه قد أتاه آتٍ، ولكنك لم تعلمْ جنس ذلك الآتي، فسبيلك في ذلك سبيلك إذا أردت أن تعرف عين الآتي فقلت: أزيد جاءك أم عمرو؟.

ولا يجوز تقديم الاسم[3] في المسألة الأولى، لأن تقديم الاسم يكون إذا كان السؤال عن الفاعل، والسؤال عن الفاعل يكون إما عن عينه أو عن جنسه، ولا ثالث. وإذا كان كذلك كان محالاً أن تقدّمَ الاسم النكرة وأنت لا تريد السؤال عن الجنس، لأنه لا يكون لسؤالك حينئذ متعلق، من حيث لا يبقى بعد الجنس إلا العين. والنكرة لا تدل على عين شيء فيسأل بها عنه".

---

[1] انظر الجرجاني : دلائل الإعجاز ١٤٢ و١٤٣ .
[2] الجرجاني : دلائل الإعجاز ١٤٢ .
[3] يعني : لا يجوز تقديم الاسم وأنت تقصد السؤال عن مجيء واحد من الرجال .

لاحظ هذا الذكاء في عرض المسألة النحوية، والمنطقية في الإقناع للتوصل إلى القاعدة النحوية بسلاسة !

وكان لعبد القاهر رأيٌ في الإعراب، فهو لا يرى في الإعراب مزّية تدخله فيما يعجز في القرآن الكريم من نظم يتوخى معاني النحو، ([1])"وذلك أن العلم بالإعراب مشترك بين العرب كلهم، وليس هو مما يستنبط بالفكر، ويستعان عليه بالروّية. فليس أحدُهم، بأنَّ إعرابَ الفاعل الرفع أو المفعول النصب، والمضاف إليه الجر، بأعلم من غيره، ولا ذاك مما يحتاجون فيه إلى حدّة ذهن وقوّة خاطر، إنما الذي تقع الحاجة فيه إلى ذلك، العلمُ بما يوجب الفاعلية للشيء إذا كان إيجابها من طريق المجاز، كقوله تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِجَارَتُهُم﴾ [البقرة ١٦] ...... وأشباه ذلك، مما يجعل الشيء فيه فاعلاً على تأويل يَدِقُّ، ومن طريق تَلْطُفُ، وليس يكون هذا علماً بالإعراب ولكن بالوصف الموجب للإعراب".

هذه هي رؤية عبد القاهر للنحو في "دلائل الإعجاز"، وهي رؤية تشي بفهم واسع عميق لمعاني النحو، رؤية ترسم طريقاً ذكيّة للباحث النحوي فليس الهدف حفظ القواعد النحوية، ولكن المراد هو استشفاف المعنى الصحيح الذي يدل عليه الاستخدام السليم لهذه القاعدة النحوية.

([1]) الجرجاني : دلائل الإعجاز ٣٩٦ .



الفصل الثالث

مناقشة لمذهبي الباقلاني والجرجاني مع النقد والتقويم



وبعد هذه الموازنة بينهما في المذهب، بعرض أبرز موضوعات الكتابين، وتتبعها وتحليل أفكارهما فيهما، بقي لي هنا في هذا الفصل مناقشة مذهب كل واحد منهما، فأعرض له من نواحي متعددّة، ناقدة ومقوّمة أحياناً، على سبيل الموازنة بينهما أيضاً.

فقد ظهر لكل منهما مذهبه في عرضه أفكاره ومناقشتها وتحليلها، وفي الدفاع عن حجته والرّد على الآخرين، كما تميزّت لغتهما، فاستخدما الأساليب البلاغية في العرض، وكان لكل منهما مصطلحاته الخاصة به التي تكوّن معجمه اللغوي. هذا بالإضافة إلى تميّز كل واحد منهما بمذهب في تحليله النصوص الأدبية، وتبيّنِه النص القرآني.

فأنا أقف الآن عند هذه المفردات، وأولى هذه المفردات موطن الاهتمام:

المذهب في عرض الأفكار ومناقشتها وتحليلها

ويكون سؤالي هنا: كيف كان مذهب كل واحد منهما في عرضه الأفكار والدفاع عنها، وإيراد حججها، ورد حجج الطرف الآخر ؟

والجواب: لقد امتاز كلٌّ منهما بمذهب في العرض والمناقشة تحكمه النزعة العلمية، والتذوق الأدبي معاً، وبرزت الطريقة التربوية التي ([1])"تكوّن ملكات التفكير والنظر عن القارئ، وهديه إلى طريقة استخراج المعرفة بنفسه بدلاً من أن يظل تلميذاً يعتاد استيعاب الحقائق التي تقدم له فحسب دون أن يعرف كيف يسبر أغوار الكلام ليستخرج حقائقه وودائعه".

فهذا الباقلاني تكثر المواضع في كتابه التي تؤكد على هذا المذهب التربوي الذي ارتضاه، فهو يضع الباحث في بداية الطريق، ويرسم له النهج الصحيح، ثم يدعه يشق طريقه بنفسه، ويسبر أغوار المعرفة بعد أن امتلك الأداة الصحيحة، والمثال المحتذى.

([1]) محمد محمد أبو موسى : الإعجاز البلاغي ٢١٧ . وقال الباحث محمد محمد أبو موسى في شرح طريقته هذه: "طريقة الباقلاني في هذا الكتاب (هي) شَرْحُ الطريقة وبيان المنهج ، ثم على من عَرَفَ المنهج والطريقة أن يسلك طريق استخلاصه المسائل وتحريرها ، وهذه مرتبة الأستاذية ودرجة الإمامة" الإعجاز البلاغي ٢٤٠ .

فنراه يقول: ([1])"وإن شرحت لك ما في كل آية طال عليك الأمر، ولكني قد بيّنت بما فسّرت، وقرّرت بما فصّلت، الوجه الذي سلكت، والنحو الذي قصدت، والغرض الذي إليه رميت، والسمت الذي إليه دعوت".

ويقول في موضع آخر: ([2])"وإذا كنا قد أبنا في القاعدة ما علمت. وفصلنا لك في شعره ما عرفت، لم نحتج إلى أن نتكلّم على شعر كل شاعر، وكلام بليغ، والقليل يدل على الكثير".

ويستمر على المنوال نفسه قائلاً: ([3])"ولا أطوّل عليك، وأقتصر على ما ألقيته إليك، فإن كان لك في الصنعة حظ، أو كان لك في هذا المعنى حسن، أو كنت تضرب في الأدب بسهم، أو بالعربية بقسط، فما أحسِبُ أن يشتبه عليك الفرق".

ويدعو إلى التأمل وإعمال الذهن في غير موضع من كتابه، ومثال ذلك قوله: ([4])"ثم انظر بسكون طائر، وخفض جناح، وتفريغ لب، وجمع عقل في ذلك".

ويقول في المعنى نفسه في موضع آخر: ([5])"خذ الآن ــ هداك الله ــ في تفريغ الفكر، وتخلية البال، وانظر فيما نعرض عليك، ونهديه إليك، متوكلاً على الله، ومعتصماً به ومستعيناً به من الشيطان الرجيم، حتى تقف على إعجاز القرآن الكريم".

وهو بالإضافة إلى هذه الطريقة التربوية في عرض الأفكار، يظهر في أسلوبه ما يدل على نزعة منطقية، فيطغى "أسلوب الفنقلة" في عرضه الموضوعات، فانظر ذلك في جميع صفحات كتابه حيث يعرض رأي الخصم وحجته، ثم يرد هذا الرأي بحجته هو.

فمن ذلك قوله: ([6])"فإن قيل: لو كان كذلك على ما قلتم، لوجب أن يكون حال ......

قيل له: لا يجب ذلك لأنّ ....".

([1]) الباقلاني : إعجاز القرآن ١٩١ . ويقول أيضاً "وقد قصدنا فيما أمليناه الاختصار ومهدّنا الطريق" إعجاز القرآن ٢٤٧ .

([2]) المرجع السابق نفسه ٢١٦ .

([3]) المرجع السابق نفسه ١٣٦ .

([4]) المرجع السابق نفسه ١٥٤ .

([5]) المرجع السابق نفسه ١٨٤ . وغير هذا كثير في كتابه فاعرفه .

([6]) المرجع السابق نفسه ٢٨ .

([1])"كما غلب عليه أيضاً ما يدل على النزعة الكلامية والروح الفقهية، وذلك حين يشمر ساعده للدفاع، ويجمع قوته كلها للرّد، ويأتي بالدليل تلو الدليل للإقناع".

فهو يورد رأي الخصم وحجته، ثم يتولى رد هذه الحجة، وإن كانت واهية، بحجج قوية، فيسد كل منفذ على خصمه.

فإليك هذا المثال الذي تظهر فيه هذه النزعة الكلامية في الحجاج الذي يرد فيه دعوى من يرفض أن يكونَ القرآن معجزة الرسول ــ صلى الله عليه وسلّم ــ حيث يقول: ([2])"....أو يدعي أن هذا القرآن ليس هو الذي جاء به النبي ــ صلى الله عليه وسلّم ــ وإنما هو شيء وضعه عمر أو عثمان ــ رضي الله عنهما ــ حيث وُضِعَ المصحفُ.أو يدعي فيه زيادة أو نقصاناً. وقد ضَمِنَ اللهُ حفظَ كتابه أن يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه، ووعْدُه الحق.

وحكاية قول من قال ذلك يغني عن الرّد عليه، لأن العدد الذين أخذوا القرآن في الأمصار وفي البوادي، وفي الأسفار والحضر، وضبطوه حفظاً، ...... لا يجوز عليهم السهو والنسيان، ولا التخليط فيه والكتمان".

وهو لا يكتفي بهذه الحجة فقط، لكنه يقرّب الأمر للقارئ ليقنعه، فيقيس حفظهم القرآن بحفظهم الشعر، فتكون هذه الموازنة بالشعر في عِداد حجة ثانية حيث يقول: ([3])"ولو زادوا أو نقصوا أو غيروا لظهر. وقد علمت أن شعر امرئ القيس وغيره، على أنه لا يجوز أن يظهر ظهور القرآن، ولا أن يحفظ كحفظه، ولا أن يُضبط كضبطه، ولا أن تَمَسَّ الحاجة إليه إمساسها إلى القرآن، لو زيد فيه بيت، أو نُقصَ منه بيت، لا، بل لو غُيِّر فيه لفظ، لتبرَّأ منه أصحابه، وأنكره أربابه.

فإذا كان ذلك مما لا يمكن أن يكون في شعر امرئ القيس ونظرائه، مع أن الحاجة إليه تقع لحفظ العربية، فكيف يجوز أو يمكن ما ذكروه في القرآن، مع شدة الحاجة إليه في الصلاة التي هي أصل الدين، ثم في الأحكام والشرائع، واشتمال الهمم المختلفة على ضبطه:

([1]) محمد حنيف فقيهي : نظرية إعجاز القرآن عند عبد القاهر الجرجاني عن كتابيه : أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز ٣٨٤ .

([2]) الباقلاني : إعجاز القرآن ١٩ .

([3]) المرجع السابق نفسه ١١٤.

فمنهم من يضبطه لإحكام قراءته ومعرفة وجوهها، وصحة أدائها.

ومنهم من يحفظه للشرائع والفقه.

ومنهم من يضبطه ليعرف تفسيره ومعانيه.

ومنهم من يقصد بحفظه الفصاحة والبلاغة.

ومن الملحدين من يحصله لينظر في عجيب شأنه.

وكيف يجوز على أهل هذه الهمم المختلفة والآراء المتباينة، على كثرة أعدادهم، واختلاف بلادهم، وتفاوت أغراضهم، أن يجتمعوا على التغيير والتبديل والكتمان ؟!".

فلاحظ، هذه المقدرة على الإحاطة بكل أسباب الحاجة إلى حفظ القرآن الكريم بأسلوب قوي في الحجاج.

وهو يلجأ إلى هذا المذهب في القياس وتقريب المسألة في العرض لأفكاره أيضاً، وليس في الحجاج فقط فنراه يقول: ([1])"فأما مَنْ كان قد تناهى في معرفة اللسان العربي، ووقف على طرقها ومذاهبها، فهو يعرف القدر الذي ينتهي إليه وُسْعُ المتكلّم من الفصاحة، ويعرف ما يخرج عن الوُسْع، .... فليس يخفى عليه إعجاز القرآن، كما يميّز بين جنس الخطب والرّسائل والشعر، كما يميّز بين الشعر الجيد والرديء، والفصيح والبديع، والنادر والبارع والغريب ... وهذا كما يميّز أهل كل صناعة صنعتهم، فيعرف الصيرفي من النقد ما يخفى على غيره، ويعرف البزاز من قيمة الثوب وجودته ورداءته ما يخفى على غيره".

ونراه يلجأ إلى التشبيه ليقرّب أفكاره ويوضّحها قائلاً: ([2])"ثم تراهم يترلون الكلام تتريلاً، ويعطونه حقوقه، ويعرفون مراتبه، فلا يخفى عليهم ما يختص به كل فاضل تقدّم في وجه من وجوه النظم، من الوجه الذي لا يشاركه فيه غيره، ولا يساهمه سواه .... وهذا كما يعلم البزّاز أن هذا الديباج عُمِلَ بتُسْتَرَ، وهذا لم يعمل بتستر، وأن هذا من صنعة فلان دون فلان، ومن نسج فلان دون فلان، حتى لا يخفى عليه، وإن كان قد يخفى على غيره".

([1]) الباقلاني : إعجاز القرآن ١١٤ .
([2]) المرجع السابق نفسه ١٢٤ .

ومن جليل التشبيهات التي أوردها، وأرقاها، قوله: ([1])"وقد شبهوا النطق بالخط، والخط يحتاج مع بيانه إلى رشاقة وصحة وملاحة ولطف، حتى يحوز الفضيلة ويجمع الكمال.وشبهوا الخط والنطق بالتصوير، وقد أجمعوا أن من أحذق المصوّرين من صور لك الباكي المتضاحك، والباكي الحزين، والضاحك المتباكي، والضاحك المستبشر، وكما أنه يحتاج إلى لطف يد في تصوير هذه الأمثلة، فكذلك يحتاج إلى لطف في اللسان والطبع في تصوير ما في النفس للغير".

ومثل جنوحه إلى البلاغة، باستخدام التشبيهات مثلاً لتقريب الفكرة، نراه يلجأ أحياناً إلى ضرب الأمثال لتوضيح رأيه وتفسيره، فنراه يقول: ([2])"إنّ الذي عارض القرآن بشعر امرئ القيس لأضل من حمارِ باهلَةَ، وأحمق من هبنّقة".

وللباقلاني طابع في دراسة الموضوعات في كتابه إعجاز القرآن مميّز فهو أولاً ([3])"يلجأ إلى إجمال الآراء، ثم يعود إلى بسط القول فيها والتوسّع في التفريع عليها ...... وطريقة الباقلاني هذه طريقة تعليميّة لا تزال متبعة في دور التعليم إذ تعرض المسائل في إجمال، ثم يكر عليها بالشرح والتفصيل".

فهو مثلاً، يعد أن يقدّم فصلاً في جملة وجوه إعجاز القرآن، يليه بفصل آخر يشرح فيه هذه الوجوه([4]).

ولا يقتصر مذهبه هذا على الفصول فقط، ولكنه يلتزمه في عرضه مفردات هذه الفصول حيث يقول: ([5])"فمن شاء أن يتحقق هذا نظر في قصيدة امرئ القيس:

قَفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ

([1]) الباقلاني : إعجاز القرآن ١١٩ .
([2]) المرجع السابق نفسه ٢١١ .
([3]) عبد الرؤوف مخلوف : الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن ١٣٧.
([4]) انظر الباقلاني : إعجاز القرآن ٣٣ حتى ٥٠ . وقد شعر الباقلاني أنه أسهب في ذكر الوجوه خارجاً عن الإجمال ، فسوّغ ذلك ، كي لا يوصف بالخروج عن المنهج حيث قال : "فإن قيل : أنتم قد انتهيتم إلى ذكر الإعجاز في التفاصيل ، وهذا الفصل إنما يدل على الإعجاز في الجملة ، قيل : هذا كما أنه يدل على الجملة ، فإنه يدل على التفصيل أيضاً ، فصحَّ أن يلحق هذا القبيل . كما كان يصح أن يُلحق بباب الجمل" إعجاز القرآن ٤١ .
([5]) الباقلاني : إعجاز القرآن ٤٧ .

ونحن نذكر بعد هذا على التفصيل ما تتصرف إليه هذه القصيدة ونظائرها ومترلتها في البلاغة، ونذكر وجه فوت نظم القرآن محلّها، على وجه يؤخذ باليد، ويُتناول من كَثَب، ويُتَصَوَّرُ في النفس كتصوّر الأشكال ؛ ليتبيّن ما ادعيناه من الفصاحة العجيبة للقرآن".

وتتكرّر من قبيل هذه الجملة في ثنايا كتابه، حيث يقول: (١)"والذي تكلّمنا به في هذا الفصل كلام على جملة دون التفصيل، ونحن نذكر بعد هذا في التفصيل، ما يكشف عن ....".

ويرى أحد الباحثين المحدثين أن الباقلاني في كتابه: إعجاز القرآن قد قسّم بحثه في الإعجاز (٢)"إلى مراحل ثالثة متوالية جعل كل مرحلة تمهد لما بعدها وتربط بها وتكمّلها حتى يتسم عمله بطابع الوضوح والتحديد، والتكامل الموضوعي والعملي في آن، وهي مرحلة التمهيد، ومرحلة التفنيد، ومرحلة التحديد:

١. مرحلة التمهيد:

جعل هدفه تنشيط الهمم وتحفيزها على تدارك كتاب الله، ثم الدفاع عنه، ورد كل ما أُذيعَ حوله من أباطيل وأكاذيب، ثم التعريض بما أُلِّفَ حول إعجاز القرآن، وخالف ما عليه أهل السلف عامة، والأشاعرة خاصة.

٢. مرحلة التفنيد:

فإذا ما انتهى الباقلاني من هذه المرحلة التمهيدية، وحدّد منهجه، ورسم خطوطه العريضة، وبيّن هدفه ومبتغاه ... انتقل إلى المرحلة الثانية: مرحلة التفنيد، فقسَّم بحثه إلى فصول متوالية .... كل فصل مرتبط بما بعده ويؤدي إليه، ...... تناول في كل فصل منها ناحية من النواحي التي وعد ببحثها، فكانت مثار اهتمام الباقلاني.

٣. مرحلة التحديد:

فإذا ما أثبت الباقلاني معجزة النبوة، وإذا ما أصَّلَ الأصول التي اعتمدها في بيان وجه الدلالة على أن القرآن معجز في ذاته، انتقل الباقلاني إلى صلب موضوعه، وهو تحديد وجوه إعجاز القرآن".

---

(١) الباقلاني: إعجاز القرآن ٦١ .

(٢) أحمد جمال العمري : مفهوم الإعجاز القرآني ٩٦ حتى ١٠٥ بتصرّف .

ومع كل هذه السمات العلمية التي حكمت مذهبه، حافظ الباقلاني على أشرف سمه للعالم الحقيقي، وهي سمة الأمانة العلمية، فهو لا يجد حرجاً من الإشارة إلى العلماء الذين أخذ عنهم، ونقل منهم، فيناقش آراءهم وينقدها، مُستَدلاً بها على صحة ما يقول به استدلالاً سلبيّاً إن هو ردّها رافضاً، واستدلالاً إيجابياً إن هو قبلها مدَعِّماً رأيه ومقوّياً له.

وهو في أمانته العلمية هذه يسير في طريقين:

أ. فهو إما أن يصرّح باسم العالم فيذكره صراحةً وهذا مِنْ مثل قوله: (١)"وذكر الجاحظ في كتاب البيان والتبيين:". وقوله: (٢)"الذي ذهب إليه عامة أصحابنا، وهو قول الشيخ أبي الحسن الأشعري". وقوله: (٣)"ذهب الشيخ أبو الحسن الأشعري ...". وقوله: (٤)"وذكر الأصمعي وأبو عبيد وحمّاد، وقبلهم أبو عمرو: أنه ...".

ب. وإما أن يؤثر عدم ذكر الاسم، فيلمّح تلميحاً(٥). ومن هذا القبيل قوله: (٦)"قال لي بعض علماء هذه الصنعة، وجاريته في ذلك". وقوله: (٧)"سمعت أفضل من رأيت من أهل العلم بالأدب والحِذق بهذه الصناعة، مع تقدمه في الكلام، يقول: .....". وقوله: (٨)"وسمّاها بعض أهل الصنعة باسم آخر". وغيرها كثير في كتابه، فتأمل ذلك !

ويميل الباقلاني إلى الاستطراد في تأليفه، فنراه يسترسل في حديث معين، ويخشى أن يخرجه هذا عن منهجه، فَيَستدرك سريعاً قائلاً: (٩)"وليس ذلك موضع كلامنا ... ولولا كراهة التطويل لنقلت جملة من ... فتجاوزنا إلى الكلام على ما قاله في ....".

---

(١) الباقلاني : إعجاز القرآن ١٢٦ .
(٢) المرجع السابق نفسه ٢٥٤ .
(٣) المرجع السابق نفسه ٢٥٩ .
(٤) المرجع السابق نفسه ٧٠ .
(٥) ولا أعتقد أن إغفاله هذا الاسم مُنبعِث من أشعريته ضد المعتزلة فقد مرّ بنا قبل قليل كيف ذكر الجاحظ المعتزلي صراحة .
(٦) الباقلاني : إعجاز القرآن ٢٥٧ .
(٧) المرجع السابق نفسه ١٥٥ .
(٨) المرجع السابق نفسه ٧١ .
(٩) المرجع السابق نفسه ٢٣٢ .

فهذه بعض ملامح نزعته العلمية الطاغية في كتابه. أما عن حِسّه الذوقي الرفيع، وقدرته على استشفاف مواطن الجمال،فنراه مبثوثاً في ثنايا حديثه عن إعجاز القرآن.

فمن ذلك قوله: ([1])"فانظر هل تجد وَقْعَ هذا النور في قلبك، واشتماله على لُبك، وسريانه في حسّك، ونفوذه في عروقك، وامتلاءك به إيقاناً وإحاطةً، واهتداءك به إيماناً وبصيرةً ؟ أم هل تجد الرّعب يأخذ منك مأخذه مِنْ وجه، والهزّة تعمل في جوانبك من لون، والأريحيّة تستولي عليك من باب ؟ وهل تجد الطرب يستفزّك للطيف ما فطنت لـــه، والسّرور يحركك من عجيب مـــا وقفت عليه ؟".

أما الجرجاني، فقد ارتبط، كما ارتبط الباقلاني، بالترعة العلمية في عرضه الأفكار ومناقشتها وتحليلها ونقدها. وليس هذا بمستهجن من عالمين يجادلان في مسألة تعتمد الحجة والمنطق. كما نراه يعوّل على التذوّق الأدبي، ويشير إلى إحساس النفس بالجمال، وسلامة الفطرة.

فهو يعرض أفكاره ويناقشها ضمن الأسلوب العلمي ذاته، والطريقة التربوية عينها التي اتبعها الباقلاني ([2])"وهذا هو شأن العالم حين يكتب لقرائه السائرين في دربه، لا يشرح كل شيء، وإنما يفتح الباب، وحين يقول لك: انظر، كأنه يقول لك: تأمّلْ، وافهمْ وتغلغلْ، وتكلّمْ، وعلّمْ كما تعلّمت، وأَسْمِعْ كما أسمعت، وأعطِ كما أخذت".

فهو بعد أن يستشهد على أن معاني النحو هي المعوّل عليها في جمال النظم، ببيتين من الشعر يوضّح جمال النظم فيهما، يفسح المجال لقارئه التلميذ فيُمَلّكُهُ إمكانية القياس لإطلاق الحكم بعد أن علّمه طريق استخراج موطن الإعجاز. حيث يقول: ([3])"فإنك ترى ما ترى من الرونق والطلاوة، ومن الحسن والحلاوة ...... وكله من معاني النحو كما ترى. وهكذا السبيلُ أبداً في كل حُسْن ومزيّة رأيتهما قد نُسبا إلى النظم، وفضل وشرف أحيل فيهما عليه".

ويقول في موضع آخر ([4])"فانظر، هل يقع في وهم متوهم أن يكون ...... ؟ وإذا نظرتَ لم تشك في ذلك".

([1]) الباقلاني : إعجاز القرآن ٢٠٣ .
([2]) محمد محمد أبو موسى : مدخل إلى كتابي عبد القاهر ١٠٦ .
([3]) الجرجاني : دلائل الإعجاز ٨٦ .
([4]) المرجع السابق نفسه ٤٠٥ .

ويؤكد على حتمية النظر والتأمل لإحكام ملكة الاستنباط عنده فيقول: ([1])"فانظر، هل ترى شيئاً كان الاتحاد به غير ما عددناه ؟ وهل تعرف له موجباً سواه ؟".

ويدلُّ تلميذه على طريق امتلاك المعرفة النافعة دون غيرها قائلا: ([2])"ثُمَّ إنك لم تروِ من هذا الضرب شيئاً قط، ولم تحفظ إلاّ الجسد المحض، وإلاّ ما لا معاب عليك في روايته، وفي المحاضرة به وفي نَسْخِهِ وتدوينه، لكان في ذلك غنىً ومندوحةً، ولوجدت طلبك ونِلت مرادك، وحصل لك ما نحن ندعوك إليه من علم الفصاحة، فاختر لنفسك، ودع ما تكره إلى ما تحب".

وهكذا نلاحظ كيف كان ([3])"الشيخ الإمام يخلط فكره البلاغي بالدعوة إلى المراجعة، وطول التأمّل واقتداح العقل، والرجوع إلى النفس، ومراقبة ما تجد ...... وهذا كلام جيّد، لأنه تربية عملية على الإبداع، وإنهاض النفس".

ومن سمات هذا الأسلوب التعليمي أنه يجعل قارئه يتوصل تدريجيّاً إلى النتيجة التي يريدها هو، من خلال إلقاء سؤال يكون جوابه عند القارئ هو مراد عبد القاهر المرجوّ إثباته، حيث يقول: ([4])"وأوضح من هذا كله، وهو أن هذا النظم الذي يتواصفه البُلغاء .... صنعة يستعان عليها بالفكرة لا محالة .... فينبغي أن يُنظر في الفكر، بماذا تلبس ؟ أبالمعاني أم بالألفاظ ؟ فأي شيء وجدته الذي تلبَّس به فكرك من بين المعاني والألفاظ، فهو الذي تحدث فيه صنعتك، وتقع فيه صياغتك ونظمك وتصويرك".

وهو لا يكتفي بالاعتماد على ملكات القارئ العقلية، ورقي ذوقه، لكننا نجده أحياناً يأخذ بيده فيفصّل له بعد أن يجمل القضية، فيوضح ذلك صراحة، فمثلا نجده يقول: ([5])"وأنا أنزّل القول في ذلك، وأدرجّه شيئاً فشيئاً، وأستعين الله تعالى عليه، وأسأله التوفيق".

([1]) الجرجاني : دلائل الإعجاز ٤١٥ .
([2]) المرجع السابق نفسه ١٢ .
([3]) محمد محمد أبو موسى : مدخل إلى كتابي عبد القاهر ١٠٩ .
([4]) الجرجاني : دلائل الإعجاز ٥١ .
([5]) الجرجاني : دلائل الإعجاز ٦٥ .

ويوضح مذهبه في شرح الموضوعات قائلاً ([1])"وليس يتأتى لي أن أُعلمك من أول الأمر في ذلك آخره، وأن أسمي لك الفصول التي في نيّتي أن أحرّرها بمشيئة الله ــ عز وجل ــ، حتى تكون على علم بها قبل موردها عليك. فاعمل على أنّ ههنا فصولاً يجيء بعضها في أثر بعض".

ويخشى مِن أن يتهم بسوء التصنيف، فإن اضطر إلى تكرار مسألة نبّه لذلك قائلاً: ([2])"هذه مسألة قد كنت علمتها قديماً، وقد كتبتها ههنا لأن لها اتصالاً بهذا الذي صار بنا القول إليه".

وإن شعر أنه كرّر، سوّغ هذا التكرار بذكر العلّة قائلا: ([3])"واعلم أني على طول ما أعدتُ وأبدأت، وقلت وشرحت، في هذا الذي قام في أوهام الناس من حديث اللفظ، لربما ظننت أنني لم أصنع شيئاً، وذلك أنك ترى الناس كأنه قُضي عليهم أن يكونوا في هذا الذي نحن بصدده، على التقليد البحت، وعلى التوهم والتخيّل".

ويمتلك الجرجاني المقدرة على توصيل المعنى إلى عقل طالب العلم بوضوح جلي، وبتفصيل مُفْهِم، فيقرّب المسألة له، بأسلوبه التعليمي السّلس، فيقول في بيان شأن الكناية والاستعارة والتمثيل: ([4])"الكلام على ضربين:

١. ضرب أن تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، وذلك إذا قصدت أن تُخْبِر عن زيد مثلاً بالخروج على الحقيقة فقلت زيد خرج ... وعلى هذا القياس.

٢. وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن يدلّك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض. ومدار هذا الأمر على "الكناية" و"الاستعارة" و"التمثيل"، وقد مضت الأمثلة فيها مشروحة مستقصاة، أَوَلا ترى أنك إذا قلت: "هو كثير رماد القدر"، وأو قلت "طويل النجاد"، أو قلت في المرأة: "نؤوم الضحى"، فإنك في جميع ذلك لا تفيدُ غرضك الذي تعني من مجرّد اللفظ، ولكن يدل اللفظ على معناه الذي يوجبه ظاهره، ثم يعقل السامع من ذلك المعنى، على سبيل الاستدلال، معنى ثانياً هو

([1])الجرجاني : دلائل الإعجاز ٤٢ .
([2]) المرجع السابق نفسه ٣٠٤ .
([3]) المرجع السابق نفسه ٣٦٥ .
([4]) المرجع السابق نفسه ٢٦٢ ، ٢٦٣ بتصرّف .

غرضك، كمعرفتك من "كثير رماد القدر" أنه مضياف، ومن طويل النجاد أنه طويل القامة، ومن "نؤوم الضحى" في المرأة أنها مُترفة مخدومة، لها ما يكفيها أمرها".

ثم يعود فيعطي نتيجة الشرح خالصة، حيث يقول: ([1])"وإذ قد عرفت هذه الجملة، فههنا عبارة مختصرة وهي أن تقول "المعنى" و"معنى المعنى"، تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة و "بمعنى المعنى"، أن تعقل من اللفظ معنىً، ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر، كالذي فسّرت لك".

فتأمّلْ هذا التبسيط في الشرح عن طريق التفصيل، ثم هذا التكثيف للقاعدة عن طريق تلخيصها، أليس هذا مذهب معلِّم متمكِّن قد استوعب ما يريد أن يقول، فقاله بشكل منظّم واضح يخلو من غموض ولبس ؟

وكما برزت النزعة المنطقية عن الباقلاني تبرز ذاتها عنده من مثل قوله: ([2])"فإن قيل: فماذا ..... ؟ قيل له: ....". وقوله: ([3])"وإذا كان هذا هكذا، علمت ....". وقوله: ([4])"وإذا كان هذا هكذا، فبنا أن ننظر فيما إذا أُتِيَ به كان معارِضاً ما هو ؟ أهو أن يجيء بلفظ فيضعه مكان لفظ آخر ....، أم ذلك ما لا يذهب إليه عاقل، ولا يقوله من به طِرْقٌ ؟". ومثل ذلك كثير، يعثر عليه طالبه في معظم صفحات كتابه.

وكذلك، وكما ظهرت عند الباقلاني، تظهر عنده هذه النزعة الكلاميّة في الحجاج، فهو ([5])"يفترض خصوماً تشتد بينه وبينهم الملاحاة، فيرميهم بقارس اللفظ، ويتهمهم بسوء الفهم، ويعيبهم بانحراف القصد".

فمن ذلك قوله: ([6])"وليس يتصوّر مثل ذلك في الكلام، لأنه لا سبيل إلى أن تجيء إلى معنى بيت من الشّعر، أو فصل من النثر، فتؤديه بعينه وعلى خاصيّته وصفته بعبارة أخرى، حتى يكون المفهوم من هذه هو المفهوم من تلك، لا يخالفه في صفة ولا وجه ولا أمر من الأمور. ولا يغرنك

([1]) الجرجاني : دلائل الإعجاز ٢٦٣ .
([2]) المرجع السابق نفسه ٦٤ .
([3]) المرجع السابق نفسه ٣٦ .
([4]) المرجع السابق نفسه ٢٥٩ .
([5]) صابر أبو سليمان : رونق البيان في إعجاز القرآن ١٢٤ .
([6]) الجرجاني : دلائل الإعجاز ٢٦١ .

قول القائل: قد أتى بالمعنى عينه، وأخذ معنى كلامه فأدّاه على وجهه، فإنه تسامح منه، والمراد أنه أدّى الغرض، فأما أن يؤدي المعنى بعينه على الوجه الذي يكون عليه في كلام الأول ...... وحتى يكون حالهما في نفسك حال الصورتين المشتبهتين في عينك كالسوارين والشَّنفين، ففي غاية الإحالة، وظن يفضي بصاحبه إلى جهالة عظيمة، .... فإنه وإن كان قد جرت عادة الناس بأن يقولوا في مثل هذا: إنهما عبارتان مَعَبَّرهما واحد، فليس هذا القول قولاً يمكن الأخذ بظاهره، أو يقع لعاقل شكّ أن ليس المفهوم من أحد الكلامين المفهوم من آخر".

فنحن نلاحظ كيف يوفي الجرجاني المسألة حقها في الشرح وفي أثناء ذلك يعرض لرأي المعترض على نظريته ويرد عليها، فأنت إن راقبت هذا المذهب في دراسته، ([1])"ترى استيعاباً كاملاً للمسألة، وحصراً بارعاً مستقصياً لكل ما قيل فيها، وفهماً عميقاً، ثم مناقشة، ومحاورة، وبسطاً، وامتداداً".

فهو ([2])"يتحدث عن المسألة من المسائل، أو القضية من القضايا ويتناولها بالبحث، ويفيض فيها الشرح والإيضاح".

فنحن إن تأملنا مناقشته لأي مسألة من مسائل كتابه نلاحظ كيف يميل إلى تقريبها وتبسيطها بضرب الأمثلة الموضحة، وبقياس حالة بحالة، تماماً كما يفعل الباقلاني، كما أنه يعتمد إجمال الرأي، ثم يعود لتفصيله، فهو ([3])"لا يهجم عليك بكل ما عنده في هذا الأمر، ويفرغه بين يديك مرّة واحدة، من غير أن يهيئ لذلك مكاناً في نفسك، ويفتح له طريقاً إلى عقلك وقلبك، حتى يضمن بذلك إصغاءك إليه، وتلقيك عنه، وإفادتك منه !".

وخير مثال يضرب لتمثيل هذا قوله: ([4])"واعلم أنك لا تَشْفي العلّة، ولا تنتهي إلى ثلج اليقين، حتى تتجاوز حد العلم بالشيء مجملاً، إلى العلم به مفصّلاً، وحتى لا يقنعك إلاّ النظر في زواياه، والتغلغل في مكامنه، وحتى تكون كمن تتبّع الماء حتى عرف منبعه، وانتهى في البحث عن جوهر العود الذي يُصنَعُ فيه إلى أن يعرف منبته، ومجرى عروق الشجر الذي هو منه. وإنا لنراهم

([1]) محمد محمد أبو موسى : مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني ٤ .
([2]) صابر أبو سليمان : رونق البيان في إعجاز القرآن ١٢٤ .
([3]) عبد الكريم الخطيب : إعجاز القرآن ٢٦٠ .
([4]) الجرجاني : دلائل الإعجاز ٢٦٠ .

يقيسون الكلام في معنى المعارضة على الأعمال الصناعية، كنسج الديباج وصَوْغ الشّنف والسّوار وأنواع ما يصاغ، وكل ما هو صنعة وعمل يد، بعد أن يبلُغ مبلغاً يقع التفاضل فيه، ثم يعظم حتى يزيد فيه الصانع على الصانع زيادةً يكون له بها صِيتٌ، ويدخل في حَدِّ ما يَعْجِز عنه الأكثرون".

وليس هذا هو الموطن الوحيد الذي لجأ فيه الجرجاني إلى التشبيه، فقد كان كلما تحدث عن النظم لجأ إليه، ([1])"ليقرّب الفكرة ويجعلها واضحة، ومن ذلك تمسكه بربط النظم بالصياغة والتصوير والوشي والنسج والتحبير والبناء، وتكراره لألفاظ "نَسَجَ" و "صَاغَ" و "وشى" وغيرها. وعبد القاهر حينما يكثر من هذا التشبيه لا يريد أن يسوي بين النظم والنسج في جميع أطرافهما، وإنما يريدُ أن يقرّب الصورة، ويجعل الصياغة هي الأساس لا المادة التي يصاغ منها، أي أنه يجعل النظم أساساً لا الألفاظ من حيث هي ألفاظ، ولا المعنى من حيث هو معنى".

ومثل هذا كثير في كتابه، فمن ذلك قوله في إزالة الشبهة في شأن النظم والترتيب مِن إمكانية تقليده حيث يقول: ([2])"اعلم أنه لا يصلح تقدير حكاية في النظم والترتيب، بل لن تعدو الحكاية الألفاظ وأجراس الحروف، وذاك أن الحاكي هو من يأتي بمثل ما أتى به المُحكَى عنه، ولا بد من أن تكون حكايته فعلاً له ...... نحو أن يصوغ إنسانٌ خاتماً فيبدعُ فيه صنعةً، ويأتي في صناعته بخاصة تستغرب، فيعمد واحد آخر فيعمل خاتماً على تلك الصورة والهيئة، ويجيء بمثل صنعته فيه، ويؤديها كما هي، فيقال عند ذلك: إنه قد حكى عمل فلان، وصنعة فلان".

ويقول في شرحه سبيل الكلام: ([3])"ومعلوم أن سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة، وأن سبيل المعنى الذي يعبّر عنه سبيل الشيء الذي يقع التصوير والصوغ فيه، كالفضة والذهب يصاغ منهما خاتمٌ أو سوارٌ. فكما أَنَّ محالاً إذا أنتَ أردت النظر في صوغ الخاتم، وفي جودة العلم ورداءته، أن تنظر إلى الفضة الحاملة لتلك الصورة، أو الذهب الذي وقع فيه ذلك العمل وتلك الصنعة. كذلك محال إذا أردت أن تعرف مكان الفضل والمزية في الكلام أن تنظر في مجرّد معناه، وكما أنه لو فَضَّلنا خاتِماً على خاتمٍ، بأن تكون فضّة هذا أجود، أو فَصُّهُ أنفس، لم يكن ذلك

([1]) أحمد مطلوب : عبد القاهر الجرجاني ٨٢ .
([2]) الجرجاني : دلائل الإعجاز ٣٥٩ .
([3]) المرجع السابق نفسه ٢٥٥ .

تفضيلاً له من حيث هو خاتم، كذلك ينبغي إذا فضّلْنا بيتاً على بيتٍ مِنْ أجل معناه، أن لا يكون تفضيلاً له من حيث هو شعر وكلام".

كما أن الجرجاني، يلجأ إلى الأمثال والحكم ليدعّم آراءه ويخرجها في شكل نصيحة، فمن ذلك قوله: ([1])"فاختر لنفسك، ودع ما تكره إلى ما تحب". ويقول في موضع آخر ([2])"ولكنهم لم يفعلوا، فجلبوا من الدّاء ما أعيى الطبيب، وحيّر اللبيب". وهو يشابه هنا الباقلاني أيضاً.

وكذلك يشاركه في أمانته العلمية، فهو ينسب المادة العلمية إلى أصحابها، وليس هذا فحسب، بل ([3])"يشير إلى بواعث المادة التي تولدّت في نفسه، وهذه غاية الأمانة العلمية". حيث يقول: ([4])"ولم أزل منذ خدمت العلم أنظر فيما قاله العلماء في معنى الفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة .... فأجد بعض ذلك كالرمز والإيماء، والإشارة في خفاء"، فهو من أجل هذا الإبهام بدأ يبحث بالتفصيل شارحاً ومفسّراً ليزيل الغشاوة ويحقق الهدف.

وهو يراوح في أمانته هذه بين تلميح وتصريح، فنراه ينسب الفضل لأصحابه ذاكراً اسم العالم الذي أخذ عنه واقتبس منه، حيث يقول: ([5])"وقال الجاحظ في كتاب البيان والتبيين". ويقول: ([6])"قال شيخنا([7]) ـــ رحمه الله ـــ". ويقول: ([8])"وحكى العسكري في صنعة الشعر".

ونراه في الوقت نفسه يلمّح معرّضا، كذكره آراء القاضي عبد الجبار، ونقل أقواله حرفياً دون الإشارة لاسمه، فمن ذلك قوله: ([9])"قال أهل النظر: ...."، ومثل قوله: ([10])"فمن ذلك قولهم: ....".

([1]) الجرجاني : دلائل الإعجاز ١٢ .
([2]) المرجع السابق نفسه ٣٢ .
([3]) محمد محمد أبو موسى : الإعجاز البلاغي ١٧٠ .
([4]) الجرجاني : دلائل الإعجاز ٣٤ .
([5]) المرجع السابق نفسه ٣٩٨ .
([6]) المرجع السابق نفسه ١٤٧ .
([7]) ذكر المحقق في الحاشية أنه يعنى بالشيخ أبا الحسن الفارسي . انظر دلائل الإعجاز ح١٤٧/١ .
([8]) الجرجاني : دلائل الإعجاز ٤٧٠ .
([9]) المرجع السابق نفسه ٦٣ .
([10]) المرجع السابق نفسه ٤٣٤ .

وكما هو الحال عند الباقلاني، فإن الجرجاني يجمع إلى هذه النزعة العلمية، والعقلية المنطقية، المعالجة للقضايا بعمق ودقة، والمالكة للقدرة على الاستنباط – يجمع ملكة أدبية راقية، قادرة على الإحساس بمواطن الجمال، فهو (١)"ذو منهج يغلب عليه الذوق، وتستأثر به فيه سلامة الفطرة، ونقاء الطبع".

فمن ذلك قوله: (٢)"وكذا إذا قلت: هو طويل النجاد، كان له تأثير في النفس لا يكون إذا قلت: هو طويل القامة. .... وكذلك إذا قلت: "ألقى حبله على غاربه" كان له مأخذ من القلب لا يكون إذا قلت: هو كالبعير الذي يُلقي حبلهُ على غاربه حتى يرعى كيف يشاء، ويذهب حيث يريد. لا يجهل المزيّة فيه إلاّ عديم الحسّ ميّت النفس".

ويقول في موضع آخر: (٣)"فتجد لها من الثقل على النفس، ومن التنغيص والتكدير، أضعاف ما وجدت هناك من الروح والخفّة، ومن الإيناس والبهجة".

وهكذا نلاحظ كيف اشترك كل من الباقلاني والجرجاني في سمات النزعة العلمية والتذوّق الأدبي. فإني أقول في الموازنة بينهما هنا: إنهما أحسنا جميعاً في مذهبيهما وأجادا، لكنني لا أجعلهما متكافئين، حيث أرى أن الجرجاني يفوق الباقلاني دائماً في إحاطته، متمكناً، بجميع الحجج المراد إدحاضها، والمدحض بها، مما يبرز قوّة حجاجه.

المصطلح

وأسأل هذا فأقول: ما هي أبرز المصطلحات التي استخدمها كلٌّ منهما في عرضه أفكاره والدفاع عنها ؟

فيكون الجواب: لقد اختص كلٌّ منهما بمجموعة من المصطلحات المستخدمة التي طبعت لغته بطابع خاص لتشكل ما يشبه المعجم اللغوي الشخصي له.

فهذا الباقلاني: يستخدم مصطلح "الكلمة" على معنيين:

---

(١) عبد الكريم الخطيب : إعجاز القرآن ٢٤١ .
(٢) الجرجاني :دلائل الإعجاز ٤٣٠ .
(٣) المرجع السابق نفسه ٤٧ .

١. فهو إن أثبتها دون نعتها بلفظة أخرى عنى بها الجملة. وهذا من مثل قوله في بيان جمال النظم في آية قرآنية شريفة: ﴿ وإنَّكَ لَتَهْدِي إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. صِرَاطِ اللهِ الَّذي لَهُ مَا في السَّماواتِ وَمَا فِي الأرْضِ، ألا إلى اللهِ تَصيرُ الأمُورُ﴾ [الشورى ٥٢، ٥٣] حيث يقول: (١)"فانظر إلى هذه الكلمات الثلاث: فالكلمتان الأولَيَان مؤتلفتان. وقوله ﴿ألا إلى اللهِ تَصيرُ الأمُورُ﴾ كلمة منفصلة مباينة للأولى، قد صيّرهما شريف النظم أشدّ ائتلافاً من الكلام المؤالف، وألطف انتظاماً من الحديث الملائم".

٢. وإن هو نعتها "بالمفردة" عنى بها اللفظة الواحدة وهذا مِنْ مثل قوله: (٢)"ولا تتميز الكلمات بوجه البراعة، وإنما تكون البراعة عندك منه في مقدار يزيد على الكلمات المفردة، وحد يتجاوز حد الألفاظ المسندة"، ويقول في موضع آخر: (٣)"ثم في جملة الآيات ما إن لم تراع البديع البليغ في الكلمات الأفراد والألفاظ الآحاد، فقد تجد ذلك مع تركّب الكلمتين والثلاث".

ومن غريب المصطلحات التي استخدمها: "السبعيّات" أطلقها وأراد بها المعلقات السبع، حيث يقول عن معلقة امرئ القيس: (٤)"ولما اختاروا قصيدته في السبعيات، أضافوا إليها أمثالها".

ويستخدم مصطلح "الأحكاميات" ويعني فيها التشريعيّات حيث يقول: (٥)"والآيات الأحكاميات التي لا بد فيها من أمر البلاغة، يعتبر فيها من الألفاظ، ما يعتبر في غيرها".

ويستخدم مصطلح "المستندة" مشيراً إلى الإسناد النحوي من مسند ومُسندٍ إليه، حيث يقول: (٦)"وإنما تكون البراعة عندك منه في مقدار يزيد على الكلمات المفردة، وحدٍ يتجاوز حد الألفاظ المستندة".

ويستخدم المصدر "النِّذَارة" ويعني فيه الإنذار، حيث يقول: (٧)"دلّ على أنه نَزَّله على قلبه ليكون نذيراً، وبيّن أنه آية لكونه بيّناً، ثم وصل بذلك كيفيّة النِّذارة".

---

(١) الباقلاني : إعجاز القرآن ١٨٧ . وانظر أيضا كتابه ١٩٢ ، ١٩٣ في هذا المعنى .
(٢) المرجع السابق نفسه ٢٠٧ .
(٣) المرجع السابق نفسه ٢٠٨ .
(٤) المرجع السابق نفسه ١٥٩ .
(٥) المرجع السابق نفسه ٢٠٨ . ويقول في موضع آخر من كتابه ٢٠٠ "ونذكر في الأحكاميات وغيرها آيات أخر" .
(٦) المرجع السابق نفسه ٢٠٧ .
(٧) المرجع السابق نفسه ١٩٦ .

ويجمع عصر جمع قلّة على "أعصار"، والشائع جمعها على عصور، حيث يقتضي المعنى ذلك، فهو يقول: ([1])"وإن كان من بعدهم من أهل الأعصار لم يعجزوا".

وفي البديع اتبع الباقلاني مذهباً في ذكر المصطلح، حيث يذكر أولاً وجهاً من البديع مطلقاً عليه مصطلحه الشائع، ويعرّفه، ثم يذكر أن قوماً آخرين قد أطلقوا عليه مصطلحاً آخر، وأخيراً يذكر شواهد المصطلحين.

فمن ذلك ذكره مصطلح "الاستعارة"، حيث يقول في ذلك: ([2])"وذكر الأصمعي وأبو عبيد وحمّاد، وقبلهم أبو عمرو، أنه أحسن في هذه اللفظة، وأنه أُتْبِع فلم يُلحَق، وذكروه في باب الاستعارة البليغة. وسماها بعض أهل الصنعة "الإرداف" وهو: أن يريد الشاعر دلالةً على معنى فلا يأتي باللفظ الدال على ذلك المعنى، بل بلفظ هو تابع له وَرِدْفٌ".

ويقول في موضع آخر: ([3])"ومما يعدونه من البديع المماثلة، وهو ضرب من الاستعارة سمّاه قُدَامَةُ التمثيل".

ويذكر مصطلح "**المطابقة**" ويريد به **الطباق**، ثم يذكر الآراء الخلافية حول المصطلح حيث يقول: ([4])"ويرون من البديع أيضاً ما يسمونه "**المطابقة**"، وأكثرهم على أن معناها أن يذكر الشيء وضدّه، كالليل والنهار، والسواد والبياض. وإليه ذهب الخليل بن أحمد والأصمعي، ومن المتأخرين عبدالله بن المعتز .... وقال آخرون: بل المطابقة أن يشترك معنيان بلفظة واحدة([5])، وإليه ذهب قدامة بن جعفر الكاتب".

ومثل هذا كثير في باب البديع، فهو يطلق مصطلح "**التجانس**" ويعني بها **المجانسة**(٦)، كما يطلق على الجناس والطباق مصطلحي "**التجنيس والتطبيق**"(٧) في موضع آخر.

([1]) الباقلاني : إعجاز القرآن ٢٥٠ .
([2]) المرجع السابق نفسه ٧١ .
([3]) المرجع السابق نفسه ٧٨ .
([4]) المرجع السابق نفسه ٨٠ .
([5]) يعني بذلك المشترك اللفظي .
([6]) انظر إعجاز القرآن ٢٧١ .
([7]) انظر إعجاز القرآن ٢٨٤ .

أما الجرجاني فإن مصطلحاته في كتابه دلائل الإعجاز قد تأثرت إلى حد بعيد بنظرية النظم عنده، فجاءت راقية فيها صنعة. فهو عندما يريد أن يعقد تشبيهاً، يجعل المشبه به مضافاً إليه فيختصَر ببلاغة، كما يدعو هو في نظريته القائمة على معاني النحو، فنراه يقول: ([1])"لأن الشعراء في كل عصر وزمان معدودون، والعامة ومن لا يقول الشعر من الخاصة عديدُ الرّمل".

ومصطلحاته أيضاً لا تخلو من حس لغوي ذوقي رفيع حيث يختار مصطلح "تمام الاسم" ومعناه عنده ([2])"أن يكون فيه ما يمنع من الإضافة".

ويطلق مصطلح "الخط" ويريد به الكتابة، حيث يقول: ([3])"بل سبيل الوزن في منعه ـــ عليه السلام ـــ إياه سبيل الخط، حين جُعِلَ ـــ عليه السلام ـــ لا يقرأ ولا يكتب".

ويبيّن وجهة نظره في اللفظ بأنه حامل للمعنى فيطلق على عمله مصطلح "السِّفارة"، حيث يقول: ([4])"........، لأنه يعترضه ما يمنعه أن يقضي حق السِّفارة فيما بينك وبين معناه".

ويكثر الجرجاني من استخدام مصطلح "الوشي"، وهو استخدام دقيق جداً، وخصوصاً عندما تحدث عن معنى المعنى، حيث يقول: ([5])"ههنا نكتة، وهي أن الوشي من الثياب يكون وشياً كان على اللابس، أو كان قد خُلِعَ وتُرِكَ ...... دلوا بها على معان ثوان تكون وشياً وحُليّاً ما دامت لباساً لتلك المعاني، فإذا خُلِعَتْ عنها، ونُظِرَ إليها متروعة منها،، لم تكن وَشْياً ولا حُليّاً. فلو قلت: فُصْلان فلان هَزْلى، وأنت لا تكنّي بذلك عن نحره أمهاتها للضيافة، لم يكن مِن معنى الوشي والحلي في شيء".

وهو دقيق في اختيار ألفاظه، فهو في حديثه عن الإعجاز، والرأي الذي يردّه، يتأدب في لَفظه فيختار مصطلح "رفع الإعجاز" دون مصطلح إبطال الإعجاز أو دفعه عن القرآن، وذلك منه زيادة في مراعاة مقتضى الحال وموافقة المقال المقام. حيث يقول: ([6])"وهو خطأ كبير وغلط منكر يُفضي بقائله إلى رفع الإعجاز من حيث لا يعلم".

([1]) الجرجاني : دلائل الإعجاز ١٢ .
([2]) المرجع السابق نفسه المدخل ٥ .
([3]) المرجع السابق نفسه ٢٧ .
([4]) المرجع السابق نفسه ٢٦٨ .
([5]) المرجع السابق نفسه ٢٦٤ .
([6]) المرجع السابق نفسه ٢٤٩ .

وهو يطلق مصطلح "الحكاية" ويريد به "المحاكاة والتقليد"، حيث يقول: ([1])"واعلم أنه لا يصلح تقدير لحكاية في النظم والترتيب، بل لن تعدوَ الحكايةُ الألفاظَ وأجراسَ الحروف".

ويرى محقق كتابه أن عبد القاهر يكثر من استعمال مصطلح "على هذه الجملة"، ويعني بها الوجه والمعنى والنمط([2]).

وهو في باب البلاغة والبديع يطلق المصطلحات المشهورة على ضروب البيان، دون أن يذكر اختلاف العلماء في هذه المصطلحات([3]).

فهذا هو شأن المصطلح عندهما، والملاحظ أن كل واحد منهما قد أجاد في عرضه مفرداته، واختياره مصطلحاته تبعاً لمذهبه الذي ارتضاه، فإني أجعلهما متكافئين هنا.

المذهب في عرض الشواهد وتحليلها

فيكون السؤال الآن: كيف كان مذهب كل من الباقلاني والجرجاني في عرضه الشواهد والنصوص، وتحليلها ونقدها ؟

والجواب: لقد تلاقى الباقلاني مع الجرجاني في استشهاده بالآيات القرآنية والأبيات الشعرية المتفرّقة لقضايا كتابه، واختلف معه في أن اختار سوراً متكاملة ليدرسها، وقصائد تامة ليحللها وينقدها، ليصل إلى إعجاز القرآن من خلالها.

فهذا الباقلاني يُعَدُّ ([4])"من أسبق من تناولوا النظم على أنه التناسق والترابط بين أجزاء القطعة الفنية الواحدة باعتبارها كلاًّ لا تتقطع أوصاله". حيث أظهر عناية كبيرة بالوحدة الموضوعية للنّص.

فالطريق إلى معرفة إعجاز القرآن عنده هو في النظر والتأمل ([5])"في نظم القرآن، ثم في شيء من كلام النبي ــ صلى الله عليه وسلّم ــ وصحابته، وسوف يعرف الفصل بين النظمين والفرق

([1])الجرجاني : دلائل الإعجاز ٣٥٩ .
([2]) انظر الجرجاني : دلائل الإعجاز ح٤/٧٥ .
([3]) انظر هذه المصطلحات في كتابه ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٢٦٢ ، ٣٠٦ ، وغيرها كثير .
([4]) عبد الرؤوف مخلوف : الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن ٤٣٨ .
([5]) عبد العزيز عرفة : قضية الإعجاز القرآني ٤١١ حتى ٤١٧ بتصرّف .

بين الكلامين، وينظر ويتأمل تحليله لبعض الشعر المجمع على حسنه .... ليستدل استدلال العالم، ويستدرك استدراك الناقد على إعجاز النظم القرآني .... وتطبيقاً لهذا المنهج الذي رسمه يسوق طائفة من خطب الرّسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ورسائله .... ثم يسوق طائفة من خطب الصحابة والتابعين وغيرهم. ويأتي دور الشعر فهو أفصح من الخطب وأبرع من الرسائل ...... فيختار الباقلاني قصيدة امرئ القيس ...... ثم يتناول قصيدة البحتري الذي اشتهر بجمال ديباجته ...... ويشرحها".

فالباقلاني بهذا يكون ([1])"أول ناقد بين نقّاد العرب – قبله وبعده – عقد موازنة بين القرآن وبين كلام العرب على هذا الأساس، فإنه لا يوازن بين آية وجمله من النثر ...... وإنما يوازن الباقلاني بين سورة بجملتها وقصيدة بجملتها، أو بين سورة وخطبة كاملة أو رسالة مستوفاة".

حيث يقول الباقلاني في شرحه لسورة غافر: ([2])"وما من سورة افتتحت بذكر الحروف المقطعة إلاّ وقد أُشبِع فيها بيان ما قلناه([3]). ونحن نذكر بعضها لتستدل بذلك على ما بعده. وكثير من هذه السّور إذا تأملته فهو مِنْ أولّه إلى آخره مبني على لزوم حجة القرآن، والتنبيه على وجه معجزته.

فمن ذلك سورة المؤمن. قوله ــ عز وجل ــ: ﴿حَم. تَنْزِيلُ الكِتابِ مِنَ اللهِ العَزِيزِ العَلِيمِ﴾ [غافر ١، ٢]، ثم وصف نفسه بما هو أهله من قوله تعالى ﴿غافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ العِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إلَهَ إلاّ هُوَ إلَيْهِ المَصِيرُ، مَا يُجَادِلُ في آياتِ اللهِ إلاَّ الذِّينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُم فِي البِلادِ﴾ [غافر ٣ ٤٥] فدلّ على أن الجدال في تنزيله كفر وإلحاد.

ثم أخبر بما وقع من تكذيب الأمم برسلهم ...... فتوعدهم بأنه آخذهم في الدنيا بذنبهم في تكذيب الأنبياء وردّ براهينهم فقال تعالى:﴿فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ﴾ [غافر ٥]، ثم توعّدهم بالنّار .... ثم عظمَ المؤمنين بهذه الحجة، بما خبر من استغفار الملائكة لهم، وما وعدهم عليه من المغفرة، ثم ذكر تمام الآيات في دعاء الملائكة للمؤمنين، ثم عطف على وعيد الكافرين فذكر آيات، ثم قال ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آياتهِ﴾ [غافر ١٣] فأمر بالنظر في آياته وبراهينه إلى أن قال: ﴿رَفِيعُ

([1]) عبد الرؤوف مخلوف : الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن ٣٠٤ .
([2]) الباقلاني : إعجاز القرآن ٩ حتى ١١ بتصرّف .
([3]) مِنْ أن الله ــ تعالى ــ جعل معجزة محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ القرآن الكريم .

الدَّرَجاتِ ذُو العَرْشِ، يُلقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ على مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لِيُنْذِرَ يومَ التَّـــلاقِ﴾ [غافر ١٥] فجعل القرآن والوحي به كالرّوحِ، لأنه يؤدي إلى حياة الأبد، ولأنه لا فائدة للجسد من دون الرّوح. فجعل هذا الروح سبباً للإنذار، وعلماً عليه، وطريقاً إليه، ولولا أن ذلك برهان بنفسه لم يَصِحَّ أن يقع به الإنذار والإخبار عما يقع عند مخالفته ...... فلمّا خلص من الآيات في ذكر الوعيد على ترك القَبول، ضرب لهم المثَلَ بمن خالف الآيات، وجَحدَ الدلالات والمعجزات .... ثُمَّ بيّن أن عاقبتهم صارت إلى السُّوآي، بأن رسلهم كانت تأتيهم بالبيّنات، وكانوا لا يقبلونها فيهم ..... ثم ذكر قصّة موسى ويوسف ــ عليهما السلام ــ ومجيئهما بالبيّنات، ومخالفتهم حكمها .... ثم ذَكَر كثيراً من الاحتجاج على التوحيد .... ثم بيّن هذه الجملة، وأنَّ مِنْ آياتِهِ الكتاب، فقال: ﴿الذي كَذّبوا بالكتابِ وبِمَا أَرْسَلْنا به رُسُلَنا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [غافر ٧٠] إلى أن قال: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيةٍ إلاّ بِإذْنِ اللهِ﴾ [غافر ٧٨] فدلّ على أن الآيات على ضربين. أحدهما كالمعجزات التي هي أدلة في دار التكليف. والثاني الآيات التي ينقطع عندها العذر، ويَقَعُ عندها العلم الضروري، وأنها إذا جاءت ارتفع التكليف، ووجب الإهلاك".

ومثل هذا التحليل الموضوعي لسورة غافر، حلّل سورة فصلّت بنفس هذه [1]"المعالجة التحليليّة البارعة التي نهض بها الباقلاني لآيات القرآن، والتي حاول أن يستخرج منها إعجازه".

ثمّ نراه يوازن هذه السّور بخطب كاملة نثرية[2] ساقها دون تحليل أو تعليق لكنه عندما عمد إلى تحليل النصوص الشعرية اختار قصيدتين[3] من مختارات الشعر العربي، فعالجها معالجة موضوعية.

وقد كانت له وقفات تهكّمية في نقده لامرئ القيس في معلقته حيث يقول، ليثبت قصور البشر عن الوصول إلى القرآن المعجز: [4]"لم يقنع بذكر حدّ، حتى حدّه بأربعة حدود، كأنه يريد بيع المنزل فيخشى – إن أخلَّ بحدّ – أن يكون بيعه فاسداً أو شرطه باطلاً !".

---

(1) محمد محمد أبو موسى : الإعجاز البلاغي ٢٤٠ .

(2) انظر الباقلاني : إعجاز القرآن ١٢٩ حتى ١٥٤ .

(3) المرجع السابق نفسه ١٥٩ حتى ١٨٣ و ٢١٦ حتى ٢٤١

(4) المرجع السابق نفسه ٢٢١ .

وهذا الأسلوب التهكمي نفسه لبيت امرئ القيس، ينقد كلمة "الهيكل" التي جاء بها البحتري قائلا: ([1])"ولو أن هذه الكلمة كرّرها أصحاب العزائم على الشياطين لراعوهم بها، وأفزعوهم بذكرها **!**".

ولَنا عند مذهب نقد الباقلاني للشعر واختياره أفضله وقفة، فأفضل اختيار للشعر عنده هو الاختيار الوسط الذي يطرح المستنكر الوحشي، واحتج لصحة اختياره هذا بخصائص اللغة العربية، وقد تأثر في هذا بابن جني، الذي كان يعيش في زمن الباقلاني، فهو ([2])"كثيراً ما يعوّل على خصائص العربية في مناقشة قضايا الشعر".

حيث يقول: ([3])"وإنما فضلت العربية على غيرها، لاعتدالها في الوضع. لذلك وضع أصلها على أن أكثرها هو بالحروف المعتدلة، فقد أهملوا الألفاظ المستكرهة في نظمها، وأسقطوها من كلامهم، وجعلوا عامة لسانهم على الأعدل".

وهو مع هذه المعالجة التحليلية الموضوعية، نظر إلى آيات كريمةً مُفْردة، وأبيات شعرية متفرقة نظرة جزئية، فمن هذه الآيات القرآنية التي نظر إليها بعدماً استشهد بها قوله تعالى: ﴿واشتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً﴾ [مريم ٤] فهو يكتفي بأن يقول فيها: ([4])"ذكروا أن من البديع في القرآن قوله عز ذكره ...." وذكر الآية. ويقول في موضع آخر في معرض حديثه عن الاستعارة المليحة [5]"ويجعلون من هذا القبيل ما قدمنا ذكره من القرآن" وذَكَرَ الآية. فنحن نلاحظ كيف لم يقف عند موطن الجمال في هذه الآية، ولم يفصّل في ذلك.

ومن الأبيات الشعرية التي نقدها قول امرئ القيس:

وقَد أَغْتَدِي والطيرُ في وُكُنَاتِها بمُنْجَرِدٍ قيدَ الأوابد هَيْكَــــــلِ

فذكر ما في البيت من بديع دون أن يفصّل أيضاً في موطن الجمال حيث قال: ([6])"قوله: قيدَ الأوابد عندهم من البديع ومن الاستعارة، ويرونه من الألفاظ الشريفة، وعَنى بذلك أنه إذا أرسل

([1])انظر الباقلاني : إعجاز القرآن ٢٢٨ .
([2]) محمد محمد أبو موسى : الإعجاز البلاغي ٢٧٣ .
([3]) الباقلاني : إعجاز القرآن ١١٨ .
([4]) المرجع السابق نفسه ٦٦ .
([5]) المرجع السابق نفسه ٧١ .
([6]) المرجع السابق نفسه ٧٠ .

هذا الفرس على الصيد صار قيداً لها، وكانت بحالة المقيَّد مِنْ جهة سرعة إحضاره. واقتدى به الناس، واتبعه الشعراء".

وذكر البيت في موضع آخر قائلاً: ([1])"وقد خرّجوا له في البديع من القصيدة قوله: ...." وذكر البيت. ثم قال: ([2])"فأما قوله: قيد الأوابد، فهو مليح، ومثله في كلام الشعراء وأهل الفصاحة كثير، والتعمّل بمثله ممكن".

فلاحِظْ كيف كانت معالجته عاجلة تفتقر إلى تفصيل وتوضيح لموطن الجمال في البيت الشعري.

أما الجرجاني فقد اختلف عن الباقلاني في تحليله النصوص الشعرية ونظره إلى الآيات القرآنية، فهو لم يعالجها معالجة موضوعية، بقياس سورة كاملة بقصيدة كاملة كما فعل الباقلاني، لكنه اكتفى بموازنة آية كريمة بقول شهير، حيث قال: ([3])"ففي غاية الإحالة، ...... وهي أن تكون الألفاظ مختلفة المعاني إذا فُرِّقت، ومُتّفقتها إذا جُمعت وأُلِّفَ منها كلام. وذلك أن ليس كلامنا فيما يُفْهم من لفظتين مفردتين نحو قعد وجلس،ولكن فيما فُهِمَ من مجموع كلامٍ ومجموع كلامٍ آخر، نحو أن تنظر في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي القَصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [البقرة ١٧٩]، وقول الناس "قتْلُ البَعْض إحياءٌ للجميع"، فإنه وإن كان قد جرت عادة الناس بأن يقولوا في مثل هذا: إنهما عبارتان مُعَبَّرهُما واحد، فليس هذا القول قولاً يمكن الأخذ بظاهره".

ويقول في موضع آخر في نفس المعنى: ([4])"وينبغي أن تكون موازنتهم بين بعض الآي وبين ما قاله الناسُ في معناها، كموازنتهم بين: ﴿ وَلَكُمْ فِي القَصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ [البقرة ١٧٩] وبين (قتل البعض إحياءٌ للجميع) خطأ منهم، لأنا لا نعرف لحديث التحريك والتسكين وحديث الفاصلة مذهباً في هذه الموازنة، ولا نعلمهم أرادوا غير ما يريده الناس إذا وازنوا بين كلام وكلام في الفصاحة والبلاغة ودقة النّظم وزيادة الفائدة".

([1])الباقلاني : إعجاز القرآن ١٨١ .
([2]) المرجع السابق نفسه ١٨٢ .
([3]) الجرجاني : دلائل الإعجاز ٢٦١ .
([4])المرجع السابق نفسه ٣٩٠ .

والجرجاني الذي فاق الباقلاني في النظر الموضوعي للآيات القرآنية وشريف منثور الكلام ومنظومه اتفق معه في الوقوف محلّلاً مستخرجاً مواطن الجمال لأبيات شعرية وآيات قرآنية.

وأقف الآن عند الآية القرآنية الكريمة نفسها التي وقف عندها الباقلاني وهي قوله تعالى: ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأسُ شَيْباً﴾ [مريم ٤] حيث يعرّض بنقد الباقلاني لها، ويظهر جمال نظمها قائلاً: ([1])"ومن دقيق ذلك وخفيّة أنك ترى الناس إذا ذكروا قوله تعالى: ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأسُ شَيْباً﴾ [مريم ٤] لم يزيدوا فيه على ذكر الاستعارة، ولم ينسبوا الشرف إلاّ إليها، ولم يروا المزية مُوجباً سواها. هكذا ترى الأمر في ظاهر كلامهم. وليس الأمر على ذلك، ولا هذا الشرف العظيم، ولا هذه المزيّة الجليلة، وهذه الروعة التي تدخل على النفوس عند هذا الكلام لمجرد الاستعارة، ولكن لأن سُلَك بالكلام طريقُ ما يُسنَدُ الفعل فيه إلى الشيء، وهو لما هو من سببه، فيدفع به ما يُسند إليه، ويؤتى بالذي الفعل له في المعنى منصوباً بعده، مبيّناً أن ذلك الإسناد وتلك النسبة إلى ذلك الأول، إنما كانا من أجل هذا الثاني، ولما بينه وبينه من الاتصال والملابسة، كقولهم: طاب زيدٌ نفَساً، .... وأشباه ذلك مما تجد الفعل فيه منقولاً عن الشيء إلى ما ذلك الشيء من سَببه. وذلك أنا نعلم أن اشتعل للشيب في المعنى، وإن كان هو للرأس في اللفظ .... وإن أُسندَ إلى ما أُسندَ إليه. يُبيّنَ أن الشرف كان لأن سُلكَ فيه هذا المسلك، وتوخّي به هذا المذهب أن تدع هذا الطريق فيه، وتأخذ اللفظ فتسنده إلى الشيب صريحاً فتقول: اشتعل شيبُ الرأس، أو اشتعل الشيب في الرأس، ثم تنظر هل تجد ذلك الحسن وتلك الفخامة ؟ وهل ترى الروعة التي كنت تراها ؟

فإن قلت: فما السبب في أَنْ كان "اشتعل" إذا استعير للشيب على هذا الوجه، كان له الفضل ؟ ولِمَ بان بالمزية من الوجه الآخر هذه البينونة ؟

فإن السبب أنه يفيد، مع لمعان الشيب في الرأس الذي هو أصل المعنى، الشّمول، وأنه قد شاع فيه، وأخذ من نواحيه، وأنه قد استغرقه وعم جملته، حتى لم يبقَ من السواد شيء، أو لم يبقَ منه إلاّ ما لا يُعتَدُّ به. وهذا ما لا يكون إذا قيل: اشتعل شيب الرأس، أو الشيب في الرأس، بل لا يوجب اللفظ حينئذٍ أكثر من ظهوره فيه على الجملة".

([1]) المرجع السابق نفسه ١٠١ . وانظر أيضا مناقشته لهذه الآية الكريمة في المرجع نفسه في ٣٩٣ ، ٤٠٢، ٤٠٧، ٤٢٧، ٥٢١ .

لاحظ، يرعاك الله، هذه القدرة على استشفاف موطن الجمال في الآية الكريمة، ومعالجتها من جانب نحوي ليطبّق نظرية النظم.

وتأمل أيضاً تحليله لبيتٍ لامرئ القيس من معلقته التي نقدها الباقلاني فطفق ينزل بها كلَّ عيب حيث يقول: ([1])"ومما هو أصل في شرف الاستعارة، أن ترى الشاعر قد جمع بين عدة استعارات، قصداً إلى أن يلحق الشكل بالشكل، وأن يتم المعنى والشبه فيما يريد، مثاله قول امرئ القيس:

فَقُلْتُ لما تَمَطى بِصُلْبِهِ   وأردَفَ أعجازاً وناءَ بِكَلْكَلِ

لما جعل للّيل صلباً قد تمطى به، ثَنى ذلك فجعل له أعجازاً قد أردف بها الصلب، وثلَّث فجعل له كلكلاً قد ناء به، فاستوفى له جملةً أركان الشّخص، وراعي ما يراه الناظر من سَواده، إذا نظر قُدّامه، وإذا نظر إلى خلفه، وإذا رفع البصر ومدّه في عُرْض الجَوِّ".

فأين هذا النقد مما قاله الباقلاني فيه حيث اكتفى الأخير بأن عَدَّ البيت من محاسن القصيدة قائلاً: ([2])"وقد جرى ذلك بين يدي بعض الخلفاء، فقدمت أبيات امرئ القيس، واستحسنت استعارها، وقد جعل للّيل صدراً يثقل تنحّيه، ويبطئ تقضّيه، وجعل له أردافاً كثيرة، وجعل له صلباً يمتد ويتطاول".

فنلاحظ مما سبق تفوّقاً عند الجرجاني وبراعة في نقد النصوص وتحليلها فاقت قدرة الباقلاني الذي امتاز عنه بهذه القدرة المبتكرة على النقد الموضوعي الكلي للنص الأدبي و النّظر إلى شريف التنزيل القرآني لذلك أطلق الحكم قائلةً: لقد أجاد الباقلاني في تحليله الكلي، لكن الجرجاني تقدّمه في التحليل الجزئي.

وهكذا أكون قد أتممت موازنتي بينهما في مذهبيهما.

([1]) الجرجاني : دلائل الإعجاز ٧٩ .
([2]) الباقلاني : إعجاز القرآن ١٨١ .



النتيجة



وبعد أن أتممتُ الموازنة بين مذهب كلٍّ من الباقلاني والجرجاني في كتابيهما: إعجاز القرآن ودلائل الإعجاز، عارضةً لهذين المذهبين، ومتتبعة لأهم العنوانات المتعلقة بالإعجاز التي عالجاها مُؤتلِفَيْنِ: كقضية التحدي والمعارضة، وقضية الصّرفة، وإعجاز النظم، وتعلّق النظم بالبيان، ومختَلِفَيْنِ: كاختصاص الباقلاني في الحديث عن السجع، والجرجاني في الحديث عن النحو، شارحةً ومحلّلةً في الفصل الثاني.

ثم ناقدةً لمذهبيهما في معالجة الموضوعات وتحليل النصوص الشعرية منها والقرآنية في الفصل الثالث بالإضافة إلى بروز مصطلحات عند كل منهما شكلت معجمها اللغوي.

وذلك بد أن مهّدت بالحديث عن الإعجاز متطرّقة لأهم القضايا المبحوثة فيه من معنى لغوي للعجز واصطلاحي للإعجاز، والتعريف بأهم المذاهب في دراسة وجوه الإعجاز والوقوف عند أبرز الموضوعات المرتبطة به، واختزال لاختصاص أشهر العلماء، قدماء ومحدثين، درسوا الإعجاز.

ثم ترجمت للرجلين في الفصل الأول محققة في اسم كل واحد منهما وكنيته ونسبه ومولده ونشأته وملامح شخصيته وشيوخه وتلاميذه وآثاره وآراء العلماء فيه.

أقول: فبعد هذه الموازنة أخلص إلى النتائج التالية:

- كل كتاب من كتابي الرجلين دائرة معارف عامة، حيث اختص الكتابان في الحديث عن الإعجاز القرآني، فعرّج مؤلفاهما إلى الحديث عن كل ما يتعلّق بالإعجاز، ويبيّن مواطن الجمال فيه، ويكون سبباً في الكشف عنه، فدراسة الإعجاز علم يتداعى بعضه في أثر بعض، ويُكْسِبَ الدارس لهما معرفة موسوعية، وهو نهج القدماء في كتبهم.

- اهتم كل من الرجلين بالتأسيس للقواعد والمقاييس التي تكشف عن مواطن إعجاز القرآن، ولم يعتنيا بالناحية التطبيقية فيما يخص الآيات القرآنية بشكل موسّع. فهذا يتماشى مع مذهبيهما في دراستهما، حيث يرسمان الطريق للدارس ويطلقان له العنان للاستنباط والإبداع.

- اتُّهِمَ كلٌّ من الرجلين بأن دراسة كلٍّ منهما ليست في الهدف الذي ألّفَ الكتابان مِنْ أجلهما، وأنهما حادا عن المنهج الصحيح في المعالجة، وهذا اتهام باطل يَنُمُّ عن عدم فهم النظرة

الشمولية لقضية الإعجاز والطريقة السليمة للبحث فيها، وتمليك الدارس القدرة على المعالجة والتحليل.

– ظَنَّ بعض الباحثين أنهما لم يحسنا تبويب الموضوعات، وكرَّرا فيما عرضا من أفكار، ولم يتقنا تقسيم الأبواب بعدم ضم المؤتلف وإلحاق المختلف به. وهذا الظن مجانب للصواب لأن هذا المنهج لا يشي بعدم قدرة على الترتيب والتبويب لكنه يدل على قدرة فائقة في تربية عمليّة على الإبداع، فهما يفهما المسألة ثم بعد أن يوضّحا جانب متعلق فيها يعودان إليها لتجلية فرعياها بشكل أفضل مؤكد للهدف الأساس، ففي هذا مهارة جامعة وحضور كامل.

– سيطرت على كل منهما نزعتان:

- علمية، يحكمها المنطق العقلي في التحليل والاستنباط.
- أدبية، يحكمها الحس المرهف في التذوّق والاستشفاف.

– اهتم كل منهما بالشعر ونقده، متخذاً منه وسيلةً لإثبات إعجاز القرآن على اختلاف في الأسلوب والمعالجة فهو عند الباقلاني وسيلة للاستدلال السلبي للخلوص إلى الإعجاز بينما يعتمد الجرجاني الاستدلال الإيجابي بنظرة له اتسمت بالنضوج.

– أراد الباقلاني أن يثبت صحّة رأيين خاطئين له في موضوعي: شعر الجن، والسجع، فأتى بحجج واهية وجانبه الصواب.

– نظرية النظم النحوية عند الجرجاني هي عينها الفصاحة التي قال بها القاضي عبد الجبّار، مع مزيد من تفصيل وإسهاب في توضيح كيفية ربطه بالنحو، وتفسير وتوضيح بضرب الأمثلة.

– امتاز كل منهما بخصوصية في مذهبه:

- فالباقلاني: أسس للنقد الموضوعي للنّص الأدبي، ولفت أنظار النّقاد إلى إمكانية تذوّق قصيدة متكاملة أو خطبة تامة أو سورة كاملة للوقوف على موطن الجمال فيها.
- والجرجاني: عوّل على دراسة فلسفة النحو التي تكشف عن مواطن الجمال في النصوص الأدبية عامة، والنص القرآني خاصة، من خلال نظرية النظم.

ويبقى أن أقول: إن كتابي الباقلاني والجرجاني كتابان تراثيان من ذخائر العرب، فهما كتابان يعالجان قضية من أنبل القضايا وأعوصها لتعلقها بالقرآن الكريم من جهة، ولاتصالها بحالة من العجز رافقت الدارسين، ليس فقط عن معارضته، ولكن عن البحث في وجهِ الإعجاز فيه.

ومهما جدَّ كُلٌّ من الباقلاني والجرجاني، وأصاب في الكشف عن وجه الإعجاز، وإزالة الحجاب عن غوامضه، فأين هما من أسرار هذا الإعجاز القرآني الذي هو آية الله الباقية بقاء الدهر؟

وعلى أن هذا لا يعني انتقاصاً من جهود الرجلين اللذين أسّسا القواعد المتينة للوقوف على مواطن الجمال المعجز في القرآن العظيم.

رحمهما الله وأدخلهما فسيح جنانه.



ثبت المصادر والمراجع

أولاً المصادر

١. **الأسنوي** جمال الدين عبد الرّحيم بن الحسن بن علي ٧٧٢هـ
طبقات الشافعية (جزآن) ط١
تحقيق كمال يوسف الحوت دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٧م .

٢. **ابن الأنباري** كمال الدين عبد الرّحمن بن محمد بن عبدالله أبو البركات ٥٧٧هـ
نزهة الألبّاء في طبقات الأدباء ط٢
تحقيق إبراهيم السامرائي مكتبة الأندلس بغداد ١٩٧٠م .

٣. **الباخرزي** نور الدين العلي بن الحسن بن أبي الطيّب أبو الحسن ٤٦٧هـ
دُمية القصر وعُصْرَة أهل العَصر (جزآن) ط٢
تحقيق سامي مكي العاني دار العروبة للنشر والتوزيع الكويت ١٩٨٥م.

٤. **الباقلاني** محمد بن الطيب بن محمد أبو بكر ٤٠٣هـ

أ. **إعجاز القرآن** ط٥
تحقيق سيد أحمد صقر دار المعارف القاهرة (د.ت) .

ب. **الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به** (د.ط)
تحقيق محمد زاهد بن الحسن الكوثري المكتبة الأزهرية للتراث القاهرة ١٩٩٣م .

٥. **البغدادي** عبد القاهر بن طاهر بن محمد التميمي أبو منصور ٤٢٩هـ
الفَرْق بين الفِرق وبيان الفرقة الناجية منهم ، عقائد الفرق الإسلامية وآراء أعلامها (د.ط)
تحقيق محمد عثمان الخشت مكتبة ابن سينا القاهرة ١٩٨٨م .

٦. **ابن تغري بَرْدي** جمال الدين يوسف بن تَغْري بَرْدي الأتابكي أبو المحاسن ٨٧٤هـ
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (١٦ جزءاً) ط١
تحقيق محمد حسين شمس الدين دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٢م.

٧. **التوحيدي** علي بن محمد بن العبّاس أبو حيّان ٤٠٠هـ
الإمتاع والمؤانسة (٣ أجزاء) (د.ط)
تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين دار مكتبة الحياة بيروت (د.ت)

٨. **الجاحظ** عمرو بن بحر بن محبوب الكناني البصري أبو عثمان ٢٥٥هـ

أ. **البيان والتبيين** (٤ أجزاء) (د.ط)
تحقيق عبد السلام هارون دار الجيل بيروت (د.ت)

ب. **الحيوان** (٧ أجزاء) ط٣
تحقيق عبد السلام هارون المجمع العلمي الإسلامي ١٩٦٩م.

ج. **رسائل الجاحظ** ط١
تحقيق حسن السندوبي المطبعة الرحمانية مصر ١٩٣٣م.

٩. **الجرجاني** عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد أبو بكر ٤٧١هـ
دلائل الإعجاز ط٣
تحقيق محمود محمد شاكر مطبعة المدني القاهرة ١٩٩٢م.

١٠. **الجرجاني** علي بن محمد بن علي ٨١٦هـ
التعريفات ط٤
تحقيق إبراهيم الأبياري دار الكتاب العربي بيروت ١٩٩٨م.

١١. **الجوهري** إسماعيل بن حمّاد الفارابي أبو نصر ٤٠٠هـ
الصِّحاح تاج اللغة وصَحَاحُ العربية (جزآن) ط١
تحقيق شهاب الدين أبو عمرو دار الفكر لبنان ١٩٩٨م.

١٢. **الحريري** القاسم بن علي أبو محمد ٥١٦هـ
درّة الغوّاص في أوهام الخواص ط١
تحقيق عرفات مطرجي مؤسسة الكتب الثقافية بيروت ١٩٩٨م

١٣. **ابن حزم** علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري الأندلسي أبو محمد ٤٥٦هـ
الفصل في الملل والأهواء والنحل (٥ أجزاء) (د.ط)
تحقيق محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة دار الجيل بيروت ١٩٨٥م.

١٤. **الحموي** شهاب الدين ياقوت بن عبدالله أبو عبدالله ٦٢٦هـ
معجم البلدان (٧ أجزاء) (د.ط)
تحقيق فريد عبد العزيز الجندي دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٠م

١٥. **الخطيب البغدادي** الإمام الحافظ أحمد بن علي بن ثابت أبو بكر ٤٦٣هـ
تاريخ بغداد أو مدينة السّلام (٢٤ جزءاً) ط١

تحقيق مصطفى عبد القادر عطا   دار الكتب العلمية   لبنان ١٩٩٧م .

١٦. **ابن خلّكان** شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر   أبو العبّاس   ٦٨١هـ
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان   (٨ أجزاء)   (د.ط)
تحقيق إحسان عبّاس   دار صادر   بيروت   ١٩٧٨م .

١٧. **الخيّاط المعتزلي** عبد الرحيم بن محمد بن عثمان   أبو الحسين   (نحو ٣٠٠ هـ)
الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد ما قصد به من الكذب على المسلمين والطعن عليهم   ط٢
تحقيق فيبرج   مكتبة الدار العربية للكتاب   القاهرة   ١٩٩٣م .

١٨. **الداوودي** الحافظ شمس الدين محمد بن علي بن أحمد   ٩٤٥هـ
طبقات المفسرين   (جزآن)   (د.ط)
تحقيق لجنة من العلماء بإشراف الناشر   دار الكتب العلمية   بيروت   (د.ت) .

١٩. **الذّهبي** الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان   أبو عبد الله   ٧٤٨هـ

أ. **سير أعلام النبلاء**   (٢٨ جزء)   ط١١
تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي وآخرون   مؤسسة الرسالة   بيروت   ١٩٩٦م .

ب. **العبر في خبر من غبر**   (٤ أجزاء)   (د.ط)
تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول   دار الكتب العلمية   بيروت   ١٩٨٥م .

٢٠. **الرازي** فخر الدين محمد بن عمر بن الحسن البكري   أبو عبد الله   (٦٠٦هـ)

أ. **التفسير الكبير**   (٣١ جزءاً)   ط١
دون تحقيق   المطبعة البهية المصرية   مصر   ١٩٣٨م .

ب. **نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز في علوم البلاغة وبيان إعجاز القرآن الشريف** (د.ط)
تحقيق إبراهيم السامرائي ومحمد بركات أبو علي   دار الفكر   عمّان   ١٩٨٥م.

٢١. **الرّماني** علي بن عيسى بن عبد الله   أبو الحسن   ٣٨٦هـ
والخطابي   حمد بن محمد بن إبراهيم البُستي   أبو سليمان   ٣٨٨هـ   والجرجاني   عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد   أبو بكر   ٤٧١هـ

ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ط٢
تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام دار المعارف
القاهرة ١٩٦٨م .

٢٢. **الزركشي** بدر الدين محمد بن عبد الله ٧٩٤هـ
البرهان في علوم القرآن (٤ أجزاء) ط٢
تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم عيسى البابي الحلبي القاهرة
(د.ت)

٢٣. **الزّمخشري** محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي أبو القاسم ٥٣٨هـ
الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل
(٤ أجزاء) ط١
تحقيق عبد الرازق المهدي دار إحياء التراث العربي ١٩٩٧م .

٢٤. **السّبكي** تاج الدين عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي أبو نصر ٧٧١هـ
طبقات الشافعية الكبرى (٦ أجزاء) ط١
تحقيق مصطفى عبد القادر أحمد عطا دار الكتب العلمية بيروت
١٩٩٩م .

٢٥. **السّمعاني** عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي أبو أسعد ٥٦٢هـ
الأنساب (٥ أجزاء) ط١
تحقيق عبد الله عمر البارودي دار الجنان بيروت ١٩٨٨م .

٢٦. **السّيوطي** جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد أبو بكر ٩١١هـ

أ. **الإتقان في علوم القرآن** (٤ أجزاء) (د.ط)
تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم المكتبة العصرية
بيروت
١٩٨٧م .

ب. **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة** (جزآن) ط٢
تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار الفكر بيروت
١٩٧٩م

٢٧. **الشهرستاني** محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد أبو الفتح ٥٤٨هـ
الملل والنّحل (جزآن) (د.ط)
تحقيق محمد سيد كيلاني مصطفى البابي الحلبي وأولاده مصر
١٩٦٧م .

٢٨. **الصفدي** صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبدالله ٧٦٤هـ
الوافي بالوفيات (٢٩ جزءاً) ط٢
تحقيق س.ديدرينغ فرانز شتايز فيسبادن ١٩٧٤م.

٢٩. **ابن الصّلاح** تقي الدين عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري أبو عمرو ٦٤٣هـ
طبقات الفقهاء الشافعية (جزآن) ط١
تحقيق محي الدين علي نجيب دار البشائر الإسلامية بيروت ١٩٩٢م.

٣٠. **طاش كبرى زاده** عصام الدين أحمد بن مصطفى بن خليل أبو الخير ٩٦٨هـ
مفتاح السعادة ومصباح السّيادة في موضوعات العلوم (٣ أجزاء) (د.ط)
تحقيق كامل بكري وعبد الوهاب أبو النور دار الكتب الحديثة القاهرة ١٩٦٨م.

٣١. **الطّبري** محمد بن جرير بن يزيد أبو جعفر ٣١٠هـ
جامع البيان في تأويل القرآن (١٦ جزءاً) (د.ط)
تحقيق محمود محمد شاكر مراجعة وتجريح الأحاديث أحمد محمد شاكر دار المعارف القاهرة ١٩٦٠م.

٣٢. **عبد الجّبار المعتزلي** قاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمذاني الأسداباذي ٤١٥هـ
المغني في أبواب التوحيد والعدل (٢٠ جزءاً) ط١
تحقيق أمين الخولي دار الكتب الجمهورية العربية المتحدة ١٩٦٠م.

٣٣. **ابن عساكر** ثقة الدين علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي أبو القاسم ٥٧١هـ
تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري ط٢
تحقيق حسام الدين القدسي دار الفكر دمشق ١٩٢٨م.

٣٤. **العسكري** الحسن بن عبد الله بن سعيد أبو أحمد ٣٨٢هـ
شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف (د.ط)
تحقيق السيد محمد يوسف مراجعة أحمد راتب النفاخ مطبوعات مجمع اللغة العربية دمشق (د.ت).

٣٥. **العلوي** يحيى بن حمزة بن علي اليمني ٧٤٩هـ
الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز (٣ أجزاء) (د.ط)
دون تحقيق دار الكتب الخديوية مصر ١٩١٤م.

٣٦. **ابن العماد** عبد الحي بن أحمد بن محمد الحنبلي أبو الفلاح ١٠٨٩هـ
شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٩ أجزاء) ط١

تحقيق مصطفى عبد القادر عطا دار الكتب العلمية لبنان ١٩٩٨م .

٣٧. **عياض** القاضي عياض بن موسى بن عياض السّبتي أبو الفضل ٥٤٤هـ
أ. **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك** (٨ أجزاء) (د.ط)
تحقيق سعيد أحمد أعراب وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغرب ١٩٨٣م
ب. **الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ صلى الله عليه وسلّم ـ** (جزآن) (د.ط)
تحقيق حسين عبد الحميد نيل دار الأرقم بن أبي الأرقم بيروت (د.ت)

٣٨. **ابن فارس** أحمد بن فارس بن زكريا اللغوي أبو الحسين ٣٩٥هـ
مجمل اللغة (٤ أجزاء) ط١
تحقيق زهير عبد المحسن سلطان مؤسسة الرّسالة لبنان ١٩٨٤م.

٣٩. **أبو الفداء** عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود ٧٣٢هـ
تاريخ أبي الفداء المسمّى المختصر في أخبار البشر (جزآن) ط١
تحقيق محمد ديّوب مكتبة محمد علي بيضون لبنان ١٩٩٧م .

٤٠. **ابن فرحون** الإمام القاضي إبراهيم بن نور الدين المالكي ٧٩٩هـ
الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ط١
تحقيق مأمون بن محي الدين الجّنان دار الكتب العلمية لبنان ١٩٩٦م .

٤١. **الفيروز آبادي** مجد الدين محمد بن يعقوب ٨١٧هـ
القاموس المحيط ط٦
تحقيق مكتب تحقيق التراث مؤسسة الرّسالة لبنان ١٩٩٨م .

٤٢. **الفيومي** أحمد بن محمد بن علي المقري ٧٧٠هـ
المصباح المنير في غريب الشرح الكبير (جزآن) ط٤
دون تحقيق المطبعة الأميريّة القاهرة ١٩٢١م .

٤٣. **القرطبي** محمد بن أحمد الأنصاري أبو عبدالله ٦٧١هـ
الجامع لأحكام القرآن (٢٠ جزءاً) ط٢
دون تحقيق دار الكتب الجمهورية العربية المتحدة ١٩٦٢م .

٤٤. **القفطي** جمال الدين علي بن يوسف أبو الحسن ٦٤٦هـ
إنباه الرواة على أنباه النحاة (٣ أجزاء) ط١
تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٥٢م.

٤٥. **الكتبي** صلاح الدين محمد بن شاكر بن أحمد الدمشقي ٧٦٤هـ
فوات الوفيات (٥ أجزاء) (د.ط)
تحقيق إحسان عبّاس دار صادر بيروت ١٩٧٤م.

٤٦. **ابن كثير** عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير أبو الفداء ٧٧٤هـ
البداية والنهاية (١٤ جزءاً) ط٢
تحقيق هيئة بإشراف الناشر مكتبة المعارف بيروت ١٩٧٧م.

٤٧. **الكفوي** أيوب بن موسى الحسيني أبو البقاء ١٠٩٤هـ
الكليّات ، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية ط١
تحقيق عدنان درويش مؤسسة الرّسالة بيروت ١٩٩٢م.

٤٨. **ابن منظور** محمد بن مكرم بن علي بن أحمد الأنصاري أبو الفضل ٧١١هـ
لسان العرب (١٥جزءاً) ط٣
دون تحقيق دار صادر بيروت ١٩٩٤م.

٤٩. **النباهي** علي بن عبد الله بن الحسن الأندلسي أبو الحسن ٧٩٣هـ
تاريخ قضاة الأندلس طبعة صحيحة
تحقيق لجنة إحياء التراث العربي دار الآفاق الجديدة بيروت ١٩٨٠م.

٥٠. **ابن هشام** عبد الملك بن هشام بن أيوب الحِمْيَريّ أبو محمد ٢١٣هـ
السيرة النبوية (٤ أجزاء) ط١
تحقيق مصطفى السّقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي دار الخير بيروت ١٩٩٢م.

٥١. **اليافعي** عفيف الدين عبد الله بن أسعد بن علي أبو السعادات ٧٦٧هـ
مرآة الجَنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزّمان
(٤ أجزاء) ط١
تحقيق خليل المنصور دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٧م.

ثانيا : المراجع

١. **بدوي** أحمد أحمد
عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية ط٢
مكتبة مصر مصر (د.ت)

٢. **البغدادي** إسماعيل باشا
هدية العارفين ، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين (جزآن) (د.ط)
مطبعة وكالة المعارف الجليلة استانبول ١٩٥٥م .

٣. **البوطي** محمد سعيد رمضان
من روائع القرآن ، تأملات علمية وأدبية في كتاب الله -عزّ وجلّ-
طبعة جديدة فريدة ومنقحة
مكتبة الفارابي دمشق (د.ت) .

٤. **الحمصي** نعيم
فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر مع نقد وتعليق ط٢
مؤسسة الرّسالة بيروت ١٩٨٠م .

٥. **الخطيب** عبد الكريم
إعجاز القرآن ، الإعجاز في دراسة السابقين ، دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها ط٢
دار المعرفة لبنان ١٩٧٥م .

٦. **خفاجي** محمد عبد المنعم
عبد القاهر والبلاغة العربية ط١
المطبعة المنيرية مصر ١٩٥٢م

٧. **خليفة** حاجي
كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (٦ أجزاء) طبعة جديدة ومنقحة
دار الفكر بيروت ١٩٩٤م .

٨. **الرافعي** مصطفى صادق
تاريخ آداب العرب (٣ أجزاء) ط٥
دار الكتاب العربي بيروت ١٩٩٩م .

٩. **رحماني** أحمد
نظريات الإعجاز القرآني ط١
مكتبة وهبة القاهرة ١٩٩٨م .

١٠. **الزَّبيدي** محمد مرتضى الحسيني ١٢٠٥هـ
تاج العروس من جواهر القاموس (٢٣ جزءاً) (د.ط)
تحقيق الترزي وحجازي والطحاوي والعزباوي مطبعة حكومة الكويت الكويت ١٩٧٥م .

١١. **الزّركلي** خير الدين
الأعلام ، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين (٨ أجزاء) ط٦
دار العلم للملايين لبنان ١٩٨٤م .

١٢. **السلطان** منير
إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة (د.ط)
منشأة المعارف الإسكندرية ١٩٧٧م .

١٣. **أبو سليمان** صابر حسن محمد
رونق البيان في إعجاز القرآن ط١
دار الشريف للنشر والتوزيع الرياض ١٩٩٧م .

١٤. **الشّعراوي** محمد متولي
معجزة القرآن (٨أجزاء) (د.ط)
(د.د) (د.ب) (د.ت) "مصوّرة"

١٥. **عامر** فتحي أحمد
فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم (د.ط)
منشأة المعارف الإسكندرية ١٩٨٨م .

١٦. **عبد الرحمن** عائشة
الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق (د.ط)
دار المعارف مصر (د.ت)

١٧. **عرفة** عبد العزيز عبد المعطي
قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية ط١
عالم الكتب بيروت ١٩٨٥م .

١٨. **العمري** أحمد جمال
مفهوم الإعجاز القرآني حتى القرن السادس الهجري (د.ط)
دار المعارف القاهرة (د.ت)

١٩. **فقيهي** محمد حنيف
نظرية إعجاز القرآن عند عبد القاهر الجرجاني عن كتابيه أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز ط١
المكتبة العصرية بيروت ١٩٨١م .

٢٠. **لاشين** عبد الفتاح
بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجّبار وأثره في الدراسات البلاغية (د.ط)
دار الفكر العربي القاهرة (د.ت)

٢١. **مخلوف** عبد الرؤوف
الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن دراسة تحليلية نقدية (د.ط)
دار مكتبة الحياة بيروت ١٩٧٨م .

٢٢. **مخلوف** محمد بن محمد ١٣٦٠هـ
شجرة النور الزكية في طبقات المالكية
طبعة جديدة بالأوفست عن الطبعة الأولى
دار الكتاب العربي بيروت (د.ت) .

٢٣. **مراد** وليد محمد
نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر الجرجاني ط١
دار الفكر دمشق ١٩٨٣م .

٢٤. **مطلوب** أحمد
عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده ط١
وكالة المطبوعات الكويت ١٩٧٣م .

٢٥. **أبو موسى** محمد محمد

أ. **الإعجاز البلاغي دراسة تحليلية لتراث أهل العلم** ط٢
مكتبة وهبة القاهرة ١٩٩٧م .

ب. **مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني** ط١
مكتبة وهبة القاهرة ١٩٩٨م .

٢٦. **الموسوي** محمد باقر
روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات (٨ أجزاء) (د.ط)
تحقيق أسد الله إسماعيليان
مطبعة مهراستوار طهران ١٩٧٠م.

٢٧. **نبي** مالك
الظاهرة القرآنية إعادة ط٤
دار الفكر دمشق ٢٠٠٠م.

٢٨. **ياسوف** أحمد
جماليات المفردة القرآنية في كتب الإعجاز والتفسير ط١
دار المكتبي دمشق ١٩٩٤م.

تمام الدراسة بحمد من كان في العلم مُعين الطالبين.


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com





تصميم الغلاف
محمد عساف